

برتراند رسل

في الشريعة

ترجمة
سمير عابد



منقورات دار مكتبة الحياة
بيروت لبنان

في التَّزْيِينِ ..

برتراند رسل

في الشريعة

ترجمة

سليم عابد

*

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

هذه ترجمة
لكتاب

ON EDUCATION
BY
Bertrand Russell
Unwin Books

George Allen & Unwin Ltd.
Ruskin House, Museum Street
London W. C. I.

مؤلفات برنارد رسل

- ١ - ا. ب. ج. النسبية
- ٢ - تحليل الجوهرى
- ٣ - المجتمع الانسانى فى الاخلاقيات والسياسة
- ٤ - أثر العلم فى المجتمع
- ٥ - آمال جديدة لعالم متغير
- ٦ - السلطة والفرد
- ٧ - المعرفة الانسانية مرماها وحدودها
- ٨ - تاريخ الفلسفة الغربية
- ٩ - قواعد الرياضيات
- ١٠ - مدخل الى فلسفة الرياضيات
- ١١ - تحليل العقل
- ١٢ - معرفتنا للعالم الخارجى
- ١٣ - فى مختصر الفلسفة
- ١٤ - فلسفة ليبنز
- ١٥ - البحث العلمى فى المعنى والحقيقة
- ١٦ - المنطق والمعرفة
- ١٧ - المسائل الفلسفية
- ١٨ - الأصول الرياضية

- ١٩ - فلسفتي في النشوء والارتقاء
- ٢٠ - الإدراك السليم والحرب النووية
- ٢١ - لم لست مسيحياً
- ٢٢ - صور من الذاكرة
- ٢٣ - مقالات غير شعبية
- ٢٤ - القوة
- ٢٥ - في مدح الكسل
- ٢٦ - مقالات الشك
- ٢٧ - الصوفية والمنطق
- ٢٨ - النظرة العلمية
- ٢٩ - الزواج والأخلاق
- ٣٠ - التربية والنظام الاجتماعي
- ٣١ - في التربية
- ٣٢ - الحرية والنظام ١٨١٤ - ١٩١٤
- ٣٣ - إعادة البناء الاجتماعي
- ٣٤ - سبيل الحرية
- ٣٥ - التمرس والنظرية البلشفية
- ٣٦ - أفاق الحضارة الصناعية (مع دورا رسل)
- ٣٧ - قاعدة الكتابة عند برتراند رسل (تحرير ليستري. دينون وروبرت. ي. اي)
- ٣٨ - مختارات برتراند رسل (تحرير روبرت . ي. اينير)
- ٣٩ - الشيطان يحوار المدينة
- ٤٠ - كابوس الافراد الأماجد

مقدمة

يحتل برتراند رسل الفيلسوف الانكليزي المعاصر مكانة مرموقة لدى الرأي العام العالمي، وهو عضو لجنة المئة، وهي اللجنة التي تكونت في بريطانيا لمقاومة التسليح الذري . وقد اخذت آراء رسل في المدة الاخيرة قنحو منحى انسانياً عاماً شاملاً ، واتخذ من السلاح الذري موضوعاً له وطفق يناشد رؤساء دول العالم للعمل يداً بيد لافناء هذا السلاح الرهيب .

ومنذ جاز رسل الثمانين من عمره أصبح علماً من أعلام الفكر الحديث ولا زال نشاطه العقلي والفكري ملء أسماع العالم . وقد أعار في السنوات الاخيرة بعد الحرب العالمية الثانية دراسة تبيان أثر التقدم العلمي على مستقبل البشرية واتصل في ذلك بأئمة الفكر والعلم في العالم وشهد في صيف سنة ١٩٥٥ مؤتمراً عالمياً في لندن دعا فيه الى نبذ الأسلحة النووية وحذر من خطرها المادي والمعنوي على الانسانية ، واشترك مع اينشتين وغيره من كبار مفكري العالم في كتابة نداء بهذا المعنى بشأن القنابل الذرية والهيدروجينية . وكم من مرة تظاهر هو ولجنة المئة امام وزارة الدفاع البريطانية مطالباً بوقف التسليح الذري والعمل على تحريم اجراء التجارب النووية، ولهذا سجن وشرد وهو في التسعين من العمر.

ولست هذه اول مرة يدخل فيها السجن أو يلاحق . فانت حياته مليئة بهذه المظاهر (الانسانية) . فبعيد نشوب الحرب العالمية الاولى كان له نشاط ظاهر في حركة مقاومة التجنيد الاجباري ، وحكم عليه بغرامة قدرها (١٠٠) جنيه لأنه أصدر نشرة يمتدح فيها الحكم على أحد معارضي التجنيد بالسجن سنتين ، وقد بيعت مكتبته للوفاء بهذه الغرامة ، وفصلته كليته من وظيفته كمدرس . وحكم عليه ايضاً في عام ١٩١٨ بالسجن ستة أشهر لنشره مقالاً يحبذ السلم ، وفي فترة سجنه هذه ألف أحد كتبه الهامة .

*

تتسم كتابات برتراند رسل بعمق الموضوع وبالمنحى الانساني العام ، وقد طرق اكثر المواضيع المتصلة بعصرنا ، وأعار الناحية العلمية في كتاباته الشيء الكثير ، وتكفي قراءة قائمة المواضيع التي طرقها في كتبه ومقالاته لتعطي فكرة عما يحول في رأس هذا المفكر الكبير .

ورث في عام ١٩٣١ لقب أيرل ، وهو من الالقاب المرموقة في بريطانيا ، ومنح سنة ١٩٥٠ جائزة نوبل في الادب ، كذلك منح عدة جوائز أدبية من بلاد مختلفة .

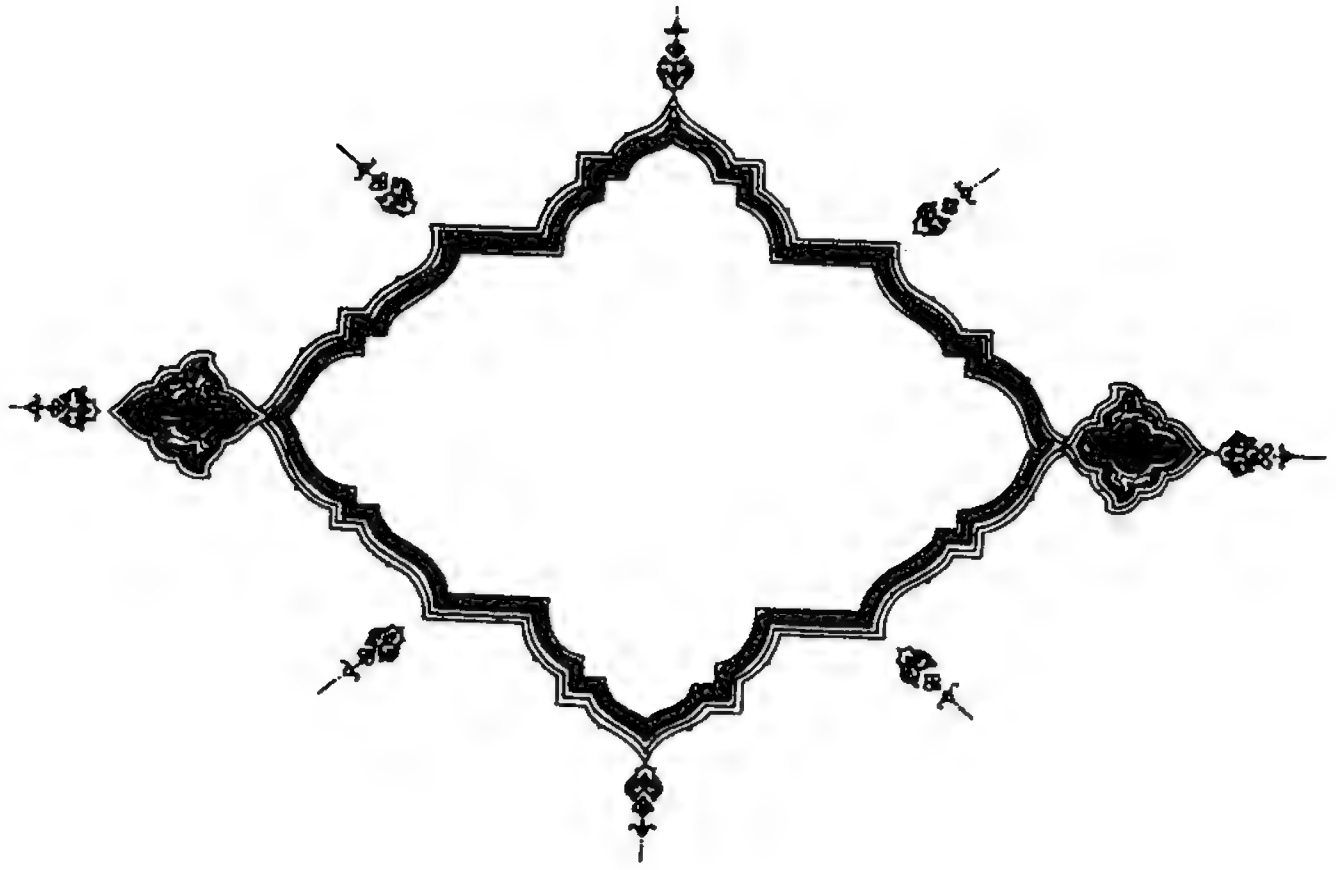
وقد عالج رسل في كتابه (في التربية) الذي بين ايدي القارئ جملة مواضيع تتصل بالتربية ، وجاء كتابه جامعاً شاملاً لموضوع من أخطر المواضيع التي تتصل بحياة الفرد ، حتى أن بعض الجامعات فرضت على طلابها دراسة هذا الكتاب .

وقد حرصت أن أنقله الى قراء العربية بترجمة قريبة الى نفس المؤلف ، كما

انني حاولت ما أمكنني ذلك على ان تكون ترجمتي كاملة لموضوع الكتاب دون حذف منه .

وأرجو أن يكون عملي هذا خدمة متواضعة لطلاب المعرفة ولرجال الفكر والمثقفين .

سَمِير عَبدِه



مقدمة المؤلف

هناك الكثير من الآباء في الدنيا أمثالي ، لهم أولاد صغار يجاهدون لتربيتهم التربية الحسنة ، لكنهم ينفرون من تعريضهم الى سيئات معظم المعاهد التربوية القائمة . والصعوبات التي يلقاها هؤلاء الآباء لا يحلها اي مجهود فردي . فمن الممكن طبعاً ان ينشأ الاطفال في المنزل على أيدي المؤدبات والمؤدبين ، لكن هذا يحرمهم من المخالطة التي يشتهونها بفطرتهم ، مخالطة الأقران التي بدونها لا بد وان تعوز تربيتهم بعض عناصرها الأساسية . بالاضافة الى ذلك ان من شر الامور للولد او البنت ان يشعر انه « غريب » يختلف عن غيره من الاولاد او البنات ، ولو نسبنا هذا الشعور في سببه الى الوالدين كاد يكون من المؤكد ان يثير في النفس حقداً عليها يؤدي الى كل ما يكرهان ، وهذه الاعتبارات قد تدفع الوالد اذا الضمير الى ان يرسل أولاده وبناته الى مدارس يرى فيها عيوباً خطيرة ، لمجرد انه لا يجد مدارس يرضاهم ، او لأن المدارس التي يرضاهم ليست على مقربة منه . ومن ثم يضطر بعض ذوي الضمائر من الآباء ان يطالبوا بالاصلاح التربوي لا لمصلحة الجماعة فقط ، بل ايضاً لمصلحة اطفالهم انفسهم . واذا كانت الآباء من ذوي الدخل الميسور فليس من الضروري لحل مشكلاتهم الخاصة ان تكون جميع المدارس صالحة ، ولعكن من الضروري ان تقوم بعض المدارس الصالحة في مناطق يسهل وصولهم اليها . اما الآباء الذين يكسبون عيشهم بالكد وعرق

الجبين فلا يكفي لحل مشكلتهم الا اصلاح المدارس الأولية . ولما كان من المتوقع ان يعترض والد على الاصلاحات التي ينشدها والد آخر فليس هناك ما يؤدي المهمة الا القيام بدعاية تربوية نشيطة ، وهذه قد لا تثمر الا بعد ان يكون اطفال طالب الاصلاح قد شبوا وكبروا . وبهذا ننتقل خطوة فخطوة من ميدان محبة اطفالنا الى ميدان أوسع هو ميدان السياسة والفلسفة .

سأحاول في الصفحات التالية ان أبرز هذه النواحي الواسعة قدر المستطاع ، ولن يتوقف الجزء الاكبر مما أريد ان أقوله على ما قد يكون لدي من رأي في كبريات المسائل الجدلية في عصرنا الحالي . لكن يكاد يكون من المستحيل ايجاد استقلال تام في هذا الصدد ، فالتربية التي ننشدها لأطفالنا لا بد ان تتوقف على مثلنا العليا للخلق الانساني ، وعلى الدور الذي نرجو ان يكون لأطفالنا في المجتمع اذا كبروا . فالمؤمن بالسلم لن يبتغي لأولاده نفس التربية التي يستجيدها المؤمن بالحرب ، والافكار التربوية للشيوعي لن تكون نفس نظرة القائل بحقوق الفرد . على أن هنالك من الخلاف ما هو أعمق وأشد من هذا : خلاف ما بين الذين يتخذون التربية وسيلة لتلقين عقائد محددة معينة بالذات ، وبين الذين يرون ان التربية يجب ان تفرس في المتعلم القدرة على الاستقلال في الحكم . ففي مسائل كهذه مما يتصل بهذه الامور يكون من العتة ان يتجنب المرء الخوض فيها . وهناك الى جانب هذا طائفة كبيرة من المعلومات الجديدة في علم النفس وفن التربية مستقلة عن تلك المسائل الأساسية ، وذات علاقة وثيقة بالتربية ، وكان لها بالفعل بعض نتائج غاية في الأهمية ، الا انه لا يزال علينا ان نقوم بأمر كثيرة قبل ان نهضم تلك المعلومات ويقدرها الناس تقديراً كاملاً . وينطبق هذا بصفة خاصة على السنوات الخمس الاولى من حياة الطفل ، فقد تبين ان لها اهمية تزيد كثيراً على ما كان مقدراً لها فيما مضى ، وهذا يعني زيادة في اهمية الوالدين من الناحية التربوية . ان ما أقصد اليه هو تجنب المشاكل الجدلية ما أمكن ذلك ، والكتابة الجدلية ضرورية في بعض المجالات ، لكن المرء حين يوجه الخطاب الى الآباء يستطيع ان

يفترض فيهم رغبة صادقة في اسعاد ذريتهم ، وهذه وحدها اذا اقترنت بالمعلومات الحديثة التي أشرنا اليها من قبل ، تكفي لأن تجلي عدداً كبيراً من المسائل التربوية . ان ما سأقوله في هذا الكتاب هو نتاج ما ألم بي من حيرة تقتلوها حيرة بشأن أولادي ، ومن ثم لن يكون كلاماً غريباً او حديثاً نظرياً . ولذا أرجو ان يساعد على تنوير الآراء وتوضيح الفكر لدى أمثالي من الآباء الذين واجهوا حيرة شبيهة بحيرتي ، سواء اتفقوا معي فيما وصلت اليه من النتائج او خالفوني . ان آراء الوالدين لعل جانب عظيم من الأهمية ، لأنهم كثيراً ما يكونون - لجهلهم بالمعلومات الفنية - عبئاً ثقيلاً على خيرة المربين ، فاذا رغب الآباء حقاً في تربية أبنائهم تربية جيدة فاني موقن بأننا لن نعدم المعلمين القادرين على تحقيق هذه المهمة عن رغبة .

والخطة التي أنوي السير عليها فيما يلي هي ان أنظر أولاً في اغراض التربية من حيث نوع الفرد ونوع المجتمع اللذين يصح ان نتطلع بحق الى ان تصوغها لنا التربية من المادة الخام الموجودة في الوقت الحاضر . وسأتجاهل مسألة تحسين السلالة عن طريق علم اصلاح النسل او أية عملية اخرى طبيعية كانت او صناعية ، لأن هذا في صميمه لا يدخل في المسائل التربوية .

لكنني أعلق آمالاً كبيرة على الاكتشافات الحديثة في علم النفس التي ترمز في جملتها الى ان خلق الانسان يتكون ويتحدد بالتربية المبكرة الى حد أعظم بكثير مما كان يدور بخلد اكثر المربين تحمساً في الأجيال الماضية . اني أميز بين التربية لتهديب الخلق والتربية لتحصيل المعرفة التي يصح تسميتها تعليمياً بالمعنى الضيق ، وهذا التفريق وان لم يكن نهائياً له فائدته ، فبعض الفضائل مطلوب في الطالب الذي يراد تعليمه ، كما ان كثيراً من المعرفة مطلوب في الشخص الذي يرجى له الفلاح في ممارسة كثير من أمهات الفضائل . ومع ذلك ففي سبيل تحديد المناقشة يصح ان نجعل التعليم منفصلاً تماماً عن تربية الخلق . وسأبدأ بمعالجة التربية الخلقية لما لها من الاهمية الخاصة في السنوات الاولى ، لكنني سأتابعها حتى دور المراهقة ، وأعالج المشكلة الهامة مشكلة التربية الجنسية ، وسأبحث في

النهاية التربوية العقلية وأناقش أهدافها ومناهجها واحتمالاتها ابتداء من الدروس الأولى في المطالعة والكتابة حتى السنوات النهائية من الدراسة الجامعية . أما التعليم الذي يناله الرجال والنساء في كبرهم من الحياة ومن الدنيا المحيطة بهم فسأعده خارج نطاق بحثي ، لكنني مع ذلك أرى من الملائم أن توضع الأهداف نصب العين في بواكير التربية بحيث تجعل الرجال والنساء قادرين على التعلم من تجارب الحياة .



المُشَلُّ الْعُلَيَّا الشَّرِيفِيَّة

مُسَلِّمَاتُ نَظَرِيَّةِ التَّربِيَةِ الْحَدِيثَةِ

عندما يطالع احدنا ما كتب في العصور الماضية عن التربية يشعر ، حتى في خير المؤلفات ، بتغييرات جذرية خاصة قد اعتورت نظرية التربية . كان لوك وروسو الرائدان العظيمان في ميدان التربية النظرية قبل القرن التاسع عشر ، وقد استحق كلاهما الشهرة التي نالها ، لأنها كليهما نبذا اخطاء كثيرة كانت شائعة حين كتبوا ، لكن لم يذهب ايها في اتجاهه الخاص الى المدى الذي ذهبت اليه الاكثرية العظمى من رجال التربية الحديثة . فكلما مثلاً من اهل النزعة التي أدت الى الحرية والديمقراطية ، ومع ذلك فكلما لم يبحث الا في تربية الابن الارستقراطي التي يتفرغ لها مربٍ يخصصها بكل وقته . ومهما يمكن ان يكون لنظام كهذا من نتائج باهرة فلن يعيره احد ممن لهم وجهة نظر حديثة اهتمامه الجدي لأن من العسير حسابياً ان يستأثر كل طفل بوقت معلم خاص ، فهو نظام لا يمكن ان قلبه الا طبقة محظوظة ، ويستحيل وجوده في دنيا يسودها العدل . والرجل الحديث ، وان جاز ان يطلب عملياً ميزات خاصة لأطفاله ، لا تعدد المشكلة النظرية محلولة الا اذا وجدت طريقة في التربية يمكن ان تكون ميسورة للجميع ، أو على الأقل لجميع الذين تؤهلهم استعداداتهم للانتفاع بها . ولا اقصد بذلك ان على من هم في مجبوحة ان يتخلوا من الآن عن كل فرص التربية التي لا

تتيسر للجميع في الدنيا الحاضرة ، فلو فعلوا لضحوا بالحضارة في سبيل العدل .
انما الذي أعنيه ان نظام التربية الذي يتحتم أن نرمي الى اقامته في المستقبل هو
نظام يمنح كل ولد وبنت فرصة لنيل أفضل ما هو موجود . ان النظام المثالي
للتربية يجب ان يكون ديمقراطياً وان لم يكن تحقيقه ممكناً في الحال . ونخيّل
إلى ان الاجماع يكاد ينعقد على التسليم بهذا في الوقت الحاضر ، وبهذا المعنى
سأجعل الديمقراطية نصب عيني . فكل ما سأدعو اليه سيكون مما يستطيع
تعميمه ، وان كان على الفرد اثناء ذلك ألا يترك أطفاله ضحية للفوضى الشائعة
اذا كان عنده من الذكاء ومن الفرصة ما يحصل به على ما هو خير وليس في
مؤلفات لوك وروسو حتى هذا الشكل المخفف الرقيق من المبدأ الديمقراطي ،
فان روسو وان نبذ الارستقراطية لم يكن يدرك ما يترتب على نبذه اياها فيما
يتعلق بالتربية .

ومن الأهمية بمكان ان نكون على بينة من هذا الامر ، امر الديمقراطية
والتربية . ان الاصرار على المساواة التامة التي لا عوج فيها يكون وبالاً ، ذلك
لأن بعض الأولاد والبنات أذكى من بعض ، ومن ثم يكونون أقدر على الانتفاع
من التعليم العالي ، كذلك بعض المدرسين أفضل من بعض من حيث الاعداد الفني
أو الاستعداد الفطري . لكن من المستحيل أن يتعلم كل انسان على يد القلة من
صفوة المدرسين حتى على فرض أن حصول جميع الناس على أعلى مراتب التربية
أمر مستحب ، وهو ما أشك فيه ، اذ من المستحيل ان يتيسر ذلك للجميع
في الوقت الحاضر ، واذاً فقد يؤدي تطبيق قواعد الديمقراطية تطبيقاً غاشماً الى
الحكم بحرمان الجميع من تلك التربية الراقية . والأخذ بوجهة نظر كهذه يكون
ضربة قاضية على التقدم العلمي ، ويؤدي الى ان يصير مستوى التربية العام
بعد مائة سنة منحطاً من غير داع ، وليس ينبغي ان يضحى بالتقدم في الوقت
الحاضر في سبيل مساواة عشواء ، وانما الواجب علينا ان نقرب من الديمقراطية
في التربية بحذر بقدر الامكان دون القضاء خلال ذلك على ما يكون قد
اقتربنا بالظلم الاجتماعي من نتائج قيمة .

على اننا لا نستطيع ان نركن الى راحة البال في أية طريقة من طرق التربية اذا لم يكن تعميمها مستطاعاً ، فأطفال الاغنياء لهم غالباً بجانب أهمهم مربية وخادمة ، ولهم بعد ذلك نصيب من بقية خدم المنزل ، وهذا يضمن مقداراً من العناية لا يمكن قط أن يؤثاه جميع الأطفال في أي نظام اجتماعي .

وبعد ، فهل الأطفال الذين يعنى بهم تلك العناية البالغة ينتفعون حقاً من جعلهم عالة على غيرهم من غير ضرورة ؟ ذلك موضع شك كبير ، وعلى أي حال فليس هناك منصف يستطيع أن ينصح بأن يمنح نفر قليل ميزات خاصة إلا لأسباب خاصة ، كضعف عقل أو عبقرية . والمتوقع في أيامنا هذه من الوالد العاقل ، اذا استطاع أن يختار ليتعلم أولاده طريقة ليست عامة . ومن المستحب - من باب التجربة - أن تتاح للآباء فرصة تجريب طرق جديدة على شرط أن تكون هذه الطرق مما يمكن تعميمه اذا حسنت نتائجها ، لا أن تكون بطبيعتها مقصورة لا محالة على قليلين متميزين . ومن دواعي الغبطة أن بعضاً من خيرة عناصر التربية الحديثة ، النظرية والعملية ، قد جاء من مصدر عريق في الديمقراطية ، فأعمال مدام منتسوري مثلاً بدأت في مدارس الحضانة بأحياء الفقراء المدقع . وفي التعليم العالي لا مناص من اعطاء فرصة استثنائية لكل ذي قدرة استثنائية . أما فيما عدا ذلك فلا سبب يدعو لأن يكون في تطبيق النظم التي يصح تعميمها بين الجميع ضرر بأي طفل .

ويوجد في التربية اتجاه آخر حديث مرتبط بالديمقراطية لكن لعله أكثر مثاراً للجدل ، واعني به الميل الى حقل التربية الذي هو أقرب الى النفعية منه الى الزخرفية . وقد استقصى فبلن كتابه (نظرية أهل الفراغ)^١ من علاقة ما بين الزخرفي وبين الارستقراطية ، لكن الذي يعنينا من هذه العلاقة هو ناحيتها التربوية . أما في تربية الذكور فالأمر مرتبط بالمفاضلة الجدلية بين التربية القديمة

(١) لندن : جورج آلن وانوين ليمنتد .

والتربية الحديثة ، وأما في تربية البنات فهو جزء من المشادة بين تربية البنات لتكون (سيدة) وبين الرغبة في اعدادها لكسب عيشها . لكن شكل التربية كلها قد التوى فيما يتعلق بالنساء واعوج بسبب الرغبة في المساواة بالرجال ، فقد كانت منهن محاولة لتحصل البنات على نفس التربية التي يتلقاها البنون حتى ما لم يكن منها طيباً في حد ذاته ، وكانت نتيجة ذلك أن قصد المشتغلات بالتربية الى اعطاء تلميذاتهن معلومات (عديمة النفع) كالتي تعطى لنظرائهن من البنين ، وخاصمن الرأي القائل بأن جزءاً من تربية الأنثى ينبغي أن يكون اعدادها فتياً للامومة . هذه التيارات المتعارضة تجعل النزعة التي أنا بصدد بحثها أقل تحديداً من بعض النواحي فيما يختص بالنساء ، وإن كان من أظهر الأمثلة لتلك النزعة تداعي نموذج (السيدة الأنيقة) كمثال أعلى لتربية البنات . ولكي أتجنب اللبس سأقصر بحثي الآن على تربية الذكور .

كثير من الموضوعات الجدلية المنفصلة التي يؤدي كل منها الى غيره متوقف في بعض نواحيه على مسألة النفعية والزخرفي : هل ينبغي أن يكون ما يتعلمه الطلاب عماده الآداب القديمة أو عماده العلوم ؟ في هذا اعتبارات مختلفة ، أحدها أن الآداب القديمة زخرفية والعلوم نفعية . هل ينبغي أن تصبح التربية بأسرع ما يمكن تعليمياً فنياً يعد لتجارة أو حرفة ؟ هل ينبغي أن يتعلم الأولاد كيف ينطقون ويفصحون وكيف يتحلون بالآداب المستظرفة ، أم هذه مجرد آثار تخلفت عن الارستقراطية ؟ هل تقدير الفن أمر له قيمة لغير الفنان ؟ هل ينبغي أن يكون التهجي تابعاً للمنطق ؟ كل هذه الجدليات وكثير غيرها تستمد بعض الحجج فيها من الحوار الأصلي بين أنصار النفعية وأنصار الزخرفية .

إني اعتقد ان الجدل بأسره صوري يتلاشى بمجرد تعريف الألفاظ ، فإذا توسعنا في تفسير (النافع) وضيّقنا من تفسير (الزخرفي) كسب فريق ، وإذا عكسنا الأمر كسب الفريق الآخر . فبأوسع معاني النفع وأصحها يكون العمل (نافعاً) إذا أعقبته نتائج حسنة - وهذه النتائج يجب أن تكون (حسنة) بمعنى

آخر غير مجرد (النفع) والا لم نحصل على تعريف صحيح . فنحن لا نستطيع أن نقول ان العمل النافع هو ما كانت له نتائج نافعة . ان لب ما هو (نافع) هو أن يوصل الى نتيجة لا تقف عند حد النفع ، فأحياناً نحتاج الى سلسلة طويلة من النتائج قبل الوصول الى النتيجة النهائية التي يصح أن تسمى حسنة . فالمحراث نافع يشق الأرض ، لكن شق الأرض في ذاته ليس حسناً ، وانما هو نافع بدوره لأنه يمكن من بذر الحب ، وهذا نافع لأنه ينتج القمح ، وانتاج القمح نافع لأنه ينتج الخبز ، وهذا نافع لأنه ينتج الخبز ، وهذا نافع لأنه يحفظ الحياة ، لكن الحياة يجب ان تكون لها قيمة ذاتية . فالحياة تكون تارة حسنة وتارة سيئة تبعاً للظروف ، ولذا قد تكون أيضاً نافعة اذا كانت وسيلة الى حياة طيبة . فلا بد لنا أن نتجاوز سلسلة المنافع المتعاقبة ، الى حيث نجد مرتكزاً نعلق منه السلسلة ، والا لما كان لأية حلقة من حلقاتها نفع حقيقي . فاذا عرف (النافع) على هذا الوجه فلن يكون هناك محل للتساؤل : هل ينبغي أن تكون التربية نافعة ؟ طبعاً ينبغي ، لأن عملية التربية وسيلة الى غاية لا غاية في ذاتها ، لكن هذا ليس بالضبط الذي في بال المدافعين عن النفعية في التربية فان ما يحتاجون عليه هو أن تكون نتيجة التربية نافعة . وبغير تلطف في التعبير انهم يريدون ان يقولوا ان الرجل المربي هو الذي يعرف كيف يصنع الآلات ، فاذا سألنا عن فائدة الآلات كان الجواب في النهاية أنها تنتج حاجات الجسم ووسائل راحته - الغذاء والكساء والبيوت الخ . وهكذا نجد ان المدافع عن النفعية بمعناها المعارض عليه هو رجل لا يجعل قيمة ذاتية الا لما يرضي الحس ، (فالنافع) عنده هو الذي يعين على سد حاجات البدن وارضاء رغائبه . فعندما يكون هذا هو المقصود يكون المدافع عن النفعية غير مصيب بلا ريب اذا كان جاعلاً من مذهبه فلسفة غائية ، وان جاز ان يكون على صواب كسياسي في دنيا تزخر بالجائعين لأن سد حاجات البدن ربما كان عندئذ ألزم من كل ما عداه .

ومثل هذا التصوير ضروري عند النظر في الجانب الآخر من هذا الجدل . وتسمية الجانب الآخر (زخرفياً) هو بالطبع تسليم للمدافع عن النفعية ببعض

دعواه ، اذ المفهوم ان (الزخرف) تافه الى حد ما ، اكن الوصف (زخرفي) في محله تماماً اذا أطلق على الصورة التقليدية (للسيد المحترم) او (السيدة) فسيد القرن الثامن عشر كان يتكلم بنبرات منتقاة ويتمثل بالأدب القديم في المناسبات ، ويلبس على الطراز ، ويفهم قواعد السلوك ، ويعرف متى تكون المباراة مما يزيد شهرة ، وهناك يكون الإنسان في اغتصاب المغلق الذي كان :

لا جدوى من علبة السعوط الكهرمان
والقيادة الدقيقة بين ضباب القصب

فالمثل الأعلى للتربية الزخرفية بالمعنى القديم أرسقراطي يفترض طبقة من الناس عندها مال كثير ولا حاجة بها الى العمل . ان السادة الأنيقين او السيدات الأنىقات مما يلد تأمله في التاريخ ، فمذكراتهم وبيوتهم الريفية تثير فينا نوعاً من السرور لم نعد نهيمه نحن لذريتنا ، لكن محاسنهم حتى عند صدقها لم تكن بالغة الذروة ، وقد كانوا نتاجاً غالياً غلواً فاحشاً . فليس هناك في عصرنا هذا من يدعو الى تربية زخرفية بهذا المعنى الضيق

على ان هذا ليس بيت المراد اذ موضوع الخلاف الحقيقي هو : هل علينا في التربية ان نرمي الى حشو العقل بمعرفة لها فائدة عملية مباشرة ، او علينا ان نحاول تزويد تلاميذنا بهبات عقلية صالحة في ذاتها ؟ ان من الخير ان يعرف الانسان ان في القدم اثنتي عشرة بوصة وفي الياردة ثلاثة اقدام ، لكن هذه المعرفة ليس لها قيمة ذاتية ولا نفع لها قط عند الذين يعيشون حيث تستخدم المقاييس المترية ، ومن الناحية الاخرى نجد ان تذوق هملت لن يكون له كبير فائدة في الحياة العملية ، لكنه يهب الرجل هبة عقلية يؤسفه ان يحرم منها ، ويجعله في بعض النواحي انساناً أكمل . فهذا النوع الأخير من المعرفة هو ما يؤثره الرجل الذي يحتج بأن النفعية ليست المرمى الوحيد من التربية .

ان هناك على ما يبدو ثلاثة خلاقات اساسية داخلية في المناظرة بين المدافعين

عن التربية النفعية وخصوصهم . فهناك أولاً مناظرة بين الارستقراطيين والديمقراطيين ، اذ يقول الأولون بأن الطبقة الممتازة ينبغي أن تعلم كيف تستخدم فراغها فيما ترتاح اليه ، وان الطبقة المسودة ينبغي ان تعلم كيف تستخدم كدها فيما ينفع الآخرين . ومعارضة الديمقراطيين لوجهة النظر هذه يشوبها شيء من الاضطراب ، فانهم يكرهون ان يتعلم الارستقراطيون ما ليس بنافع ، ويحتجون في نفس الوقت بأن تربية الراكض وراء لقمة العيش يجب ألا تقتصر على ما هو نافع ، وبذلك نجد معارضة ديمقراطية للتربية القديمة التقليدية بالمدارس العامة ، مع مطالبة ديمقراطية بأن العمال ينبغي ان تتاح لهم فرص لتعلم اللاتينية واليونانية . هذه الواجهة صحيحة عملياً في الجملة وان كان فيها بعض غموض من الناحية النظرية ، فالديمقراطي لا يود تقسيم المجتمع الى قسمين أحدهما نافع والآخر زخرفي ، ولذا يستزيد من المعرفة النافعة الصرفة للطبقات التي كانت الى الآن زخرفية صرفة ، ومن المعرفة الممتعة الصرفة للطبقات التي كانت الى الآن نافعة صرفة ، لكن الديمقراطية لا تقرر بطبيعتها النسب التي بها ينبغي مزج هذه العناصر .

والنقطة الثانية من الخلاف واقعة بين الساعين وراء المنافع المادية وبين الراغبين في المتع العقلية . فأغلبية المؤسرين المحدثين من الانجليز والامريكيين لو نقلوا بطريقة سحرية الى عصر اليصابات لتمنوا العودة الى العالم الحديث . ان الاجتماع بشكسبير ورالي والسير فيليب سيدني ، والموسيقى الممتازة وجمال العمارة ، كل ذلك لن يعزيمهم عن الحرمان من الحمامات ، ومن الشاي والقهوة ، ومن السيارات وغيرها من اسباب الراحة التي كان يجهلها عصر اليصابات . فمثل هؤلاء ينزع رأيهم — الا الى الحد الذي يتأثرون فيه بالتقاليد المحافظة — الى ان الغرض الاساسي من التربية هو تكثير ما تنتجه الصناعة وتنويعه . قد يدرجون في ذلك الطب وعلم الصحة ، لكنهم لن يشعروا بأي تحمس للأدب او الفن او الفلسفة ، ولا نزاع في ان امثال هؤلاء كان لهم ضلع كبير في القوة المحركة للحملة التي ثارت ضد منهج الآداب القديمة الذي أسس في عصر النهضة .

ولا أخال من الانصاف معارضة هذه الوجهة بمجرد قولنا ان العقلي من الطيبات أعظم قيمة من الحسي الصرف . اني اعتقد ان هذا القول حق لكنه ليس كل الحق ، فانه وان لم تكن للطيبات الحسية قيمة رفيعة فان السيئات الحسية قد تكون من سوء بحيث ترجح كفتها على كثير من التفوق العقلي . ان الجوع والمرض والخوف المستمر منها قد خيم على حياة الاغلبية الساحقة من البشر منذ صار في امكانهم توقع العواقب ، فمعظم الطيور تموت من الجوع ، لكنها تكون سعيدة حين تجد وفرة من الطعام لأنها لا تفكر في المستقبل ، لكن الفلاحين الذين ينجون من القحط يظلون على الدوام تساورهم الذكري والوجل .

ان الشعب يرضى بالكد ساعات طويلة من أجل أجر تافه اتقاء للموت ، بينما تفضل الحيوانات اقتناص السرور كلما تيسر حتى ولو كان عاقبته الموت ، وهكذا انتهى الامر الى ان معظم الناس صاروا يهتمون بالحياة ولو كادت تخلو من السرور ، لأن الحياة بغير ذلك تكون قصيرة . ولأول مرة في التاريخ اصبحت في الاستطاعة الآن بفضل الثورة الصناعية ومنتجاتها ان تخلق دنيا يجد كل فرد فيها فرصة معقولة للسعادة ، فمن الممكن اذا أردنا ان نقلل الشرور الحسية الى نسبة ضئيلة . من الممكن بالتنظيم والعلم ان نؤوي سكان الدنيا كلهم ونطعمهم ، لا اترافاً ولكن كفافاً يحول دون البؤس ، ومن الممكن مكافحة المرض وجعل السقم المزمناً نادراً جداً ، ومن الممكن منع تكاثر السكان من ان يطغى على التحسينات في التموين . ان المخاوف العظيمة التي أظلم بها العقل الباطن للجنس البشري وجرت في أذيالها القسوة والظلم والحرب ، اصبحت من المستطاع تخفيفها الى حد يفقدها أهميتها . وكل هذا قد عظمت قيمته للحياة البشرية عظماً لا نجرؤ امعه ان نعارض التربية التي من شأنها تحقيقه . ولا مناص من ان تكون العلوم التطبيقية العنصر الاساسي في مثل هذه التربية ، فبدون الطبيعة وعلم وظائف الاعضاء وعلم النفس لا نستطيع بناء العالم الجديد ، لكننا نستطيع بناءه بدون اللاتينية واليونانية ، وبدون دانتي وشكسبير ، وبدون باخ وموزارت . تلك هي الحجة العظمى للتربية النفعية ، قد عبرت عنها بقوة لأنني أحسها بقوة .

ومع ذلك فللمسألة جانب آخر : اذ ما فائدة الظفر بالفراغ والصحة اذا غفل الناس عن احسان استخدامها ؟ ان الحرب التي تثار على الشرور الحسية يجب ككل حرب اخرى ألا تدار بعنف يجعل الناس عاجزين عن ممارسة فنون السلم . ان ما تملكه الدنيا من خير مطلق يجب ان يصابن عن ان يندثر ابان الجهاد ضد الموبقات .

وهذا ما يفضي الى النقطة الثالثة في الخلاف الداخل في هذا الجدل : هل صحيح ان المعرفة العديمة النفع هي وحدها ذات القيمة الذاتية ؟ هل صحيح ان أية معرفة ذات قيمة ذاتية عديمة النفع ؟ اما عن نفسي فقد قضيت في درس اللاتينية واليونانية في شبابي جزءاً كبيراً من وقتي اعتبره الآن وقتاً ضائعاً كونه تقريباً سدي ، فمعرفة الآداب القديمة لم تساعدني أقل مساعدة في حل مشكلة من المشاكل التي جابهتني فيما استقبلت من حياتي ، ولم أستطع ان أحقق الآداب القديمة الى الحد الذي يمكنني من مطالعتها للمتعة والسرور . وشأني في ذلك شأن ٩٩٪ من الذين يدرسونها . وقد تعلمت منها أشياء لم أستطع ان أنساها لا تربو قيمتها الذاتية على قيمة معرفة ان الiardة ثلاثة أقدام . اما ما تعلمته من الرياضيات والعلوم فلم يكن ذا نفع كبير فحسب ، بل كان ايضاً ذا قيمة ذاتية عظيمة اذ أمدني بموضوعات للتفكير والتأمل ، وبدليل أميز به الحق في دنيا خداعة . وهذا بالطبع يتعلق بمزاجي الى حد ما ، لكنني على يقين من أن المقدرة على الانتفاع بالآداب القديمة أمر مزاجي وهو أندر وجوداً بين الحديثين من الرجال . ان لفرنسا وألمانيا أدبهما القديم ، ولغتهما سهلتا التعلم نافعتان في نواح عملية كثيرة ، فقضية تعليم الألمانية والفرنسية هي غاية الرجحان على قضية اللاتينية واليونانية . فبغير تقليل من أهمية المعرفة التي ليس لها نفع عملي مباشر نستطيع اذاً فيما أرى أن نطالب بأن مثل هذه المعرفة يجب أن تعطى بطرق لا تتطلب انفاق وقت طويل وطاقة عظيمة في تعلم جانبها الآلي مثل النحو ، اللهم الا للمتخصصين . ان مجموع المعارف الانسانية وتعقد المشاكل البشرية في ازدياد مستمر ، ومن ثم يتحتم على كل جيل أن ينقح طرائقه في التربية اذا شاء أن يدبر

الوقت لما هو جديد. يجب ان نحافظ على التوازن بالتوفيق الممكن بين المتناقضات. ان العناصر الادبية في التربية يجب أن تبقى ، لكنها يجب أن تبسط الى الحد الذي يفسح مجالا للعناصر الاخرى التي بدونها لا يمكن ايجاد العالم الحديث الذي أصبح ايجاده ممكناً بفضل العلم .

ولا أريد أن ألقى في روع القارئ ان عناصر الفن والادب في التربية أقل أهمية من العناصر النفعية ، ان معرفة شيء من الادب الراقي وشيء من الموسيقى والتصوير وفن العمارة لا غنى عنها اذا أردنا أن ننمي حياة الخيال الى أقصى حد ، وعن طريق الخيال وحده يستطيع الانسان ان يتصور ما يمكن ان تكون عليه الدنيا ، وبدونه يصبح (التقدم) آلياً تافهاً . لكن العلم أيضاً يستطيع أن ينبه الخيال ، فالملك وعلم طبقات الارض قد نفعاني من هذه الناحية حين كنت صبياً اكثر من الآداب الانجليزية والفرنسية والالمانية التي قرأت معظم روائعها مرغماً وبغير أدنى اهتمام . على ان هذه مسألة شخصية ، فمن الاولاد او البنات من ينبه خياله بعض مصادر المعرفة ومنهم من ينبهه بعض آخر . ان الذي أريد ان أبديه هو أن المادة التي لا بد للحدق فيها من اسلوب خاص صعب يحسن ان تكون مادة نافعة ، الا عند اعداد الاختصاصيين . وفي عصر النهضة كان أدب اللغات الحديثة العالي قليلاً ، اما الآن فهو كثير ، وان من المستطاع ان نطلع الناس الذين لا يعرفون اليونانية على قيمة كثير من التقاليد اليونانية ، أما التقاليد اللاتينية فليست في الحقيقة عظيمة القيمة . لذلك أرى أنه ، ما لم توجد عند الاولاد او البنات ميول خاصة ، ينبغي ان نسلك الى امدادهم بعناصر الفن والادب في التربية طرقاً لا تستلزم جهازاً تعليمياً كبيراً . أما الجزء الصعب من التعليم في السنوات الاخيرة فينبغي على الاجمال ان نقصره على الرياضيات والعلوم ، لكن ينبغي أن يستثنى من ذلك كل من له ميل قوي أو موهبة في اتجاه آخر . ان القواعد الحديدية يجب إزالتها قبل كل شيء .

استعرضنا هذه النقطة في أي نوع من المعرفة ينبغي تعليمه ، والآن أنتقل

الى مجموعة اخرى من المشاكل يتصل بعضها بطرق التعليم وبعضها بالتربية الخلقية ،
وهنا ننتقل عن السياسيات الى علم النفس وعلم الأخلاق . كان علم النفس الى عهد
قريب مجرد دراسة نظرية تطبيقاتها في الحياة العملية قليلة جداً ، لكن هذا كله
تغير الآن . فعندنا مثلاً علم النفس المتصل بالصناعة ، وعلم النفس المتصل بالعلاج ،
وعلم النفس المتصل بالتربية ، وجميعها على عظم أهمية من الناحية العملية . ولنا
أن نرجو ونتوقع في المستقبل القريب ان يزداد سريعاً أثر علم النفس في مؤسساتنا
وقد بدأت بالفعل آثاره تزداد عظماً ونفعاً في التربية على أي حال .

ولنتناول أولاً مسألة (التأديب) . كانت فكرة التأديب القديمة بسيطة . كان
الطفل او الصبي يؤمر بتأدية شيء يكرهه او بالامتناع عن شيء يحبه ، فاذا عصى
عوقب في بدنه أو كان في الاحوال الخطيرة يحبس وحيداً على الخبز والماء . اقرأ
مثلاً في كتاب (أسرة فيرتشايلد) الفصل الذي يشرح كيف تعلم هنري الصغير
اللاتينية ، اذ قيل له ان لا أمل في أن يصير قسيساً الا اذا تعلم تلك اللغة ، وعلى
الرغم من هذه الحجة لم يقبل هنري الصغير على كتابه الاقبال الذي كان يبتغيه
أبوه ، فسجن ولم يعط إلا الخبز والماء ، ومنع من مخاطبة شقيقاته اللاتي أفهمن
انه قد ارتكب ما يشينه ، وان عليهن ان يقطعن كل صلة به ، ومع ذلك حملت
اليه احداهن بعض الطعام فتمّ بها أحد الخدم فناها الاذى ايضاً . ويحدثنا
الكتاب ان الصبي بعد ان قضى في السجن فترة من الزمن أخذ يحب اللاتينية
وأكب بعد ذلك على دراستها . قارن هذه القصة بقصة تشيهوف عن عمه الذي
حاول ان يعلم قطة صغيرة صيد الفيران فأحضر فأراً صغيراً الى الغرفة التي بها
القطة ، ولم تكن غريزة الصيد قد نمت بعد فيها فلم تلتفت اليه ، فضربها عمه ،
وكرر العملية في اليوم التالي ثم كررها وكررها ، وأخيراً اقتنع الاستاذ بأنها
قطة بليدة غير قابلة للتعلم ، وظلت هذه القطة في كبرها ترتاع وتفر كلما رأت
فأراً على الرغم من انها كانت عادية فيما عدا ذلك . وختم تشيهوف قصته هذه
بقوله :

ولقد كان لي كالقطة شرف تعلم اللاتينية على يد عمي .

فماتان القصتان توضحان التأديب القديم والثورة ضده .

على أن المربي الحديث لا ينفرد من التأديب ولا يتجنبه وإنما يسعى لتحقيقه بطرق جديدة ، والذين لم يدرسوا هذه الطرق عرضة لتكوين آراء خاطئة عنها . لقد كنت دائماً أعتقد أن مدام منتسوري استغنت عن التأديب ، وكنت أعجب في نفسي كيف تسيطر على ملء غرفة من الاطفال ، ولكنني عندما طالعت ما كتبه هي بنفسها عن طريققتها تبينت أن التأديب لا يزال ذا مكانة عندها ، وأنها لم تحاول الاستغناء عنه ، وعندما بعثت بابني الصغير الذي عمره ثلاث سنوات ليقضي نهاراً كاملاً في مدرسة من المدارس المنتسورية لم ألبث أن وجدته قد صار بسرعة أكثر تأديباً من قبل ، وأنه كان ينصاع في غبطة للقواعد المدرسية دون أقل شعور منه بتسر . كانت القواعد المدرسية عنده كقواعد اللعب : تطاع كوسيلة للاستمتاع . كانت الفكرة القديمة : ان الاطفال لا يمكن ان يرغبوا في التعلم ، وانهم إنما يُحملون عليه بالتخويف ، وقد تبين ان ذلك مرجعه الى انعدام المهارة في سياسة الاطفال ليس غير . فاذا قسم ما يجب تعلمه كالقراءة والكتابة مثلاً الى مراحل ملائمة أمكن ان نجعل كل مرحلة محببة الى الطفل المتوسط ، وعندما يكون الاطفال يفعلون ما يحبون لا يكون هناك بالطبيع داع الى فرض نظام عليهم . ان قواعد بسيطة قليلة مثل : ممنوع تدخل طفل في عمل طفل آخر - ممنوع ان يأخذ طفل اكثر من جهاز واحد . وبهذه الطريقة يكتسب الطفل تأديب النفس الذي يتكون بعضه من تكوين العادات الصالحة وبعضه من ادراك الطفل عن طريق الامثلة المحسوسة انه قد يكون أجدى عليه ، في بعض الاحيان ان يقاوم احدى نزعاته كي ينال ربحاً ما في النهاية . وكل انسان يعرف من قديم ان من السهل الوصول الى تأديب النفس في الالعاب ، لكن لم يخطر ببال احد ان تحصيل المعرفة يمكن ان يجعل ذا جاذبية كافية لتحريك نفس البواعث في الانسان .

اننا الآن نعرف ان هذا ممكن وانه سيتحقق ، لا في تربية صغار الاطفال وحسب ولكن في جميع المراحل . ولست أدعي ان ذلك سهل ، فالاكشافات في فن التربية المنتفع بها في ذلك احتاجت في كشفها الى عبقرية ، لكن المعلمين الذين يعهد اليهم تطبيقها لا يحتاجون في ذلك الى عبقرية ، فكل ما يحتاجون اليه هو الاعداد الملائم مع حظ من العطف والصبر ميسور ، والفكرة الاساسية بسيطة ، ان التأديب الصحيح يقوم لا على القسر الخارجي ولكن على عادات عقلية تؤدي من نفسها الى المستحب ، لا الى غير المستحب من النشاط . والمدحش هو النجاح الباهر في ايجاد طرق فنية في التربية تمثل هذه الفكرة ، ومن اجل هذا تستحق مدام منتسوري اعظم الثناء والتقدير .

لقد كان لفكرة اضمحلال عقيدة (الخطيئة الأصلية) اثر عظيم في التغيير الذي طرأ على طرق التربية . كانت الفكرة التقليدية التي يكاد يعفي عليها الدهر اننا جميعاً نولد (سيئين) مفطورين على الشر ، وان علينا قبل ان نصلح لأي خير أن نتحول الى (اطفال الرحمة والعفو) وهو تحول يساعد على التعجيل به الضرب المتكرر . ولا يكاد معظم المحدثين يصدق الى اي حد أثرت هذه النظرية في تعليم آبائنا وأجدادنا ، ولكن خطأهم يتبين من اقتباسين نقتبسهما من حياة (الدكتور أرنولد) للقس ستانلي . والقس ستانلي كان أحب تلاميذ الدكتور أرنولد اليه ، وهو الولد الطيب أرثر في كتاب (ايام توم براون المدرسية) وكان ايضاً ابن عم مؤلف هذا الكتاب زار معه كنيسة وستمنستر وهو صبي . والدكتور ارنولد هو المصلح العظيم لمدارسنا العامة التي تعتبر بحق احدى مفاخر انكلترا ، والتي لا تزال تدار الى حد كبير طبقاً لتعاليمه ومبادئه . فنحن حين نتحدث عن الدكتور ارنولد لسنا نتكلم عن شيء يتصل بالماضي البعيد ، ولكن عن شخصية لها الى يومنا هذا اثر فعال في صوغ الطبقة الراقية من الانكليز . وقد قلل الدكتور ارنولد من عقوبة الضرب ، واحتفظ بها للأولاد الصغار وحدهم ، وقصرها كما يروي لنا كاتب تاريخ حياته على (الذنوب الخلقية كالكذب

وشرب الخمر واعتياد الكسل) لكن حين قالت احدى صحف الأحرار ان
الضرب عقوبة مزرية يجب إلغاؤها تماماً ، غضب مندهشاً ونشر البيان التالي :

اني على يقين تام من هذا الشعور الذي يعبر عنه القول ، فهو شعور
ينشأ عن تلك الفكرة المستكبرة فكرة الاستقلال الشخصي ،
التي هي لا معقولة ولا مسيحية ، وانما هي في صميمها همجية
جلبت على اوربا جميع مصائب عصر الفروسية ، وهي تهددنا
الآن بمصائب اليعقوبية . ففي العصر الذي يكاد يستحيل فيه
العثور على ما تقتضيه الرجولة من شعور بأن الاجرام يزري
والعيوب تزري ، اين هي الحكمة في إيهام الناس ان من المزري
تصحيح الأخطاء بالعقاب المدني ؟ اي شيء أدخل في الباطل
والكذب من هذا وأشد مضادة للبساطة والاستقامة والتواضع
العقلي ، التي هي لعمرى خير ما يزين الشباب ، وخير ما يبشر
برجولة طاهرة ؟

فليس بمستغرب أن يؤمن التلاميذ اتباع الدكتور ارنولد بصواب ضرب الأهلين
في الهند حين ينقصهم التكامل العقلي .

وتوجد قطعة اخرى اقتبسها بالفعل السيد ستر اخي في (الأعلام الفكتوريون)
لكنها من المناسبة لما نحن بصدده بحيث لا أستطيع الكف عن الاستشهاد بها .
كان الدكتور ارنولد يقضي احدى اجازاته بعيداً يتمتع بجمال بحيرة كومو ،
وتتجلى الصورة التي اتخذها هذا التمتع في رسالة بعث بها الى زوجته يقول فيها:

اني أكاد اشعر بالرعب يتولاني عندما أجول ببصري في الجمال
الأخاذ الباهر الذي يحيط بي ثم فكرت في الشر الخلقى ، فكأنما
الجنة والنار متجاوزتان تماماً بدلاً من ان تفصلهما هوة عظيمة ،
بل كأنهما غير بعيدتين من كل واحد منا ، فليت حاسة الشر

الخلقي قوية عندي قوة ابتهاجي بالجمال المشهود ، ففي الشعور العميق بالشر الخلقي ، اكثر من أي شيء آخر ، تكمن معرفة بالله تنجي الانسان ، وليست الهبة الاعجاب بالخير الخلقي ، فانا قد نفعل ذلك ولا نعمل بمقتضاه ، لكننا اذا كنا حقيقه نمقت الشر لا الأشرار ، نمقت عن يقين وعلم الشر المستقر في الناس . فهذا هو الشعور بالله والمسيح ، وهذا هو تجاوب روحنا مع روح الله . وأسفاه ! ما أبسط ان نرى هذا ونقوله ، وما أصعب ان نفعله ونشعر به ! من ذا الذي هو كغؤ لهذا كله ؟ لا أحد غير الذي يشعر بعجزه عنه ويحزن لذلك حقاً .

ان من المؤسف حقاً أن نرى هذا السيد المذهب الرحيم بطبعه يلهب نفسه الى حال من الحزن والأسف يستطيع معها أن يضرب الصبية الصغار من غير ندم وهو يظن انه يتبع ديانة المحبة . ذلك أمر يرثى له اذا نظرنا اليه من ناحية الخداع أرنولد ، لكنه أمر مؤسف اذا فكرنا فيه من ناحية أجيال القسوة التي أوجدها في الدنيا بخلقه جواً من مقت (الشر الخلقي) الذي يشمل عنده ، كما تذكر ، اعتبار الكسل في الأطفال . واني لأرتجف حين افكر في الحروب والتعذيبات والمظالم التي جناها اناس وهم يظنون أنهم يحاربون (الشر الخلقي) عن صلاح وتقوى ! ومن رحمة الله أن المربين لم يعودوا يحسبون الأطفال الصغار سواعد الشيطان . نعم لا يزال هناك كثير من هذه النظرة قائماً في معاملة الكبار ، لاسيما في عقاب الجرائم ، لكن هذه النظرة قد اختفت تقريباً من دور الحضانة ومن المدرسة .

وهناك غلطة هي عكس غلطة الدكتور ارنولد . وان كانت اقل ضرراً منها بكثير ، لكنها مع ذلك غلطة من الناحية العلمية ، وهي الاعتقاد بأن الأطفال اهل فضيلة بفطرتهم ، وانهم انما يفسدون بمشاهدة رذائل من يكبرونهم سناً . وقد جرى العرف بنسبة هذا الرأي الى روسو ، ولعله كان رأيه نظرياً ، لكن

من يقرأ اميل يجد انه كان بحاجة الى كثير من التربية الخلقية قبل ان يصير الفرد
الفرد الذي كان تخريجه مقصوداً من نظام روسو . الواقع ان الأطفال ليسوا
(أختياراً) ولا (أشراراً) بالفطرة ، فهم يولدون وليس فيهم الا بعض غرائز
وانعكاسات ، ومن هذه تنتج العادات بتأثير البيئة والوسط . والعادات اما
صحيحة واما سقيمة ، وايها تكون يتوقف على حكمة الأمهات او المربيات ،
ان طبيعة الطفل في اول الامر مطاوعة الى حد لا يكاد يصدق ، فالجمهرة العظمى
من الأطفال مادة لتكوين المواطن الصالح او لتخريج مجرم ، وقد اثبت علم
النفس ان ضرب الأطفال اثناء الاسبوع ووعظهم في ايام الاحاد ليس الوسيلة
الفنية المثلى لتكوين الفضيلة ، لكن لا يصح ان يستنتج ان لا وسيلة فنية الى
تكوينها . ان من الصعب مخالفة صمويل بتلر فيما يراه من ان المربين في الأزمان
الخالية كانوا يتلذذون بتعذيب الأطفال ، والا فان من العسير ان نفهم كيف
طوعت لهم نفوسهم ان يستمروا طوال ذلك الزمن ينزلون بالأطفال تعاسة لا
فائدة فيها . ليس من الصعب ان نجعل الطفل الصحيح سعيداً . ومعظم الأطفال
يكونون اصحاء اذا عني بعقولهم واجسامهم كما ينبغي . والسعادة في الطفولة
ضرورية لا غنى عنها لتكوين خير انسان ، فاعتياد الكسل الذي يعده الدكتور
ارنولد نوعاً من (الشر الخلقى) ان يكون له وجود اذا اشعر الطفل بأن تربيته
هي تعليمه شيئاً يستحق ان يعرف ^١ . اما اذا كانت المعرفة المراد تعليمها عديمة
النفع ، وكان الذين يعلمونها يبدون للطفل ظلمة قساة ، فمن الطبيعي ان يسلك
الطفل مسلك قطة تشيهوف . يجب ان تكون القوة الدافعة في التربية هي الرغبة
الذاتية الموجودة عند كل طفل طبيعي كما تدل جهوده في سبيل المشي والكلام .
واحلال هذه القوة الدافعة محل العصا من أعظم خطوات التقدم التي خطاها
عصرنا .

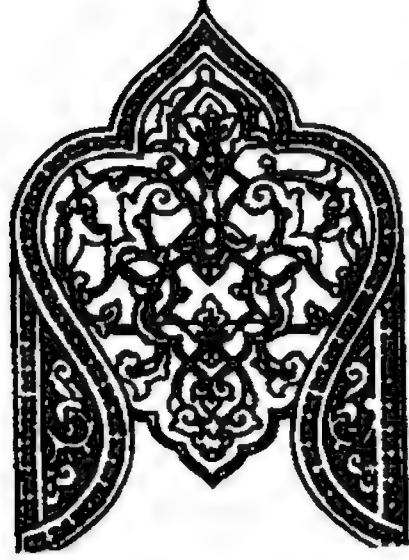
(١) يرجع الدكتور أرنولد عدة احتمالات للقاصرين الذين يعانون من الغداني ، وهناك الانسان
غير الانساني الذي يوعز بالضرب والتعذيب ايضاً الذي يسبب التبطل المؤلف .

وهذا يؤدي بي الى آخر نقطة أود ان اعرض لها في هذا العرض التمهيدي للاتجاهات الحديثة، أعني تزايد الاهتمام بفترة الرضاعة ، وهذا مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتنوير الذي طرأ على افكارنا عن تربية الاخلاق ، ان الفكرة القديمة هي ان الفضيلة اساسها الارادة . كان المفروض ان الرغبات السيئة تملؤنا ، واننا نكبحها بملكة مجردة هي الارادة ، وكانوا فيما يظهر يعدون اقتلاع تلك الرغبات السيئة مستحيلاً ، وان كل ما نستطيع عمله هو كبحها . فكان الموقف يشبه تماماً موقف المجرم والشرطة . ولم يزعم احد امكان وجود مجتمع خال من القابلين للاجرام ، وخير ما كان يمكن عمله هو ايجاد شرطة هي من الكفاية بحيث يخشى معظم الناس الوقوع في الجرائم ، اما الشواذ القليلون فيقبض عليهم ويعاقبون . لكن عالم النفس الجنائي الحديث لا يقنع بهذا الرأي ، فهو يعتقد بأن النزوع الى الجريمة يمكن في اكثر الاحوال كبحه بواسطة التربية الملائمة . وما ينطبق على المجتمع ينطبق ايضاً على الفرد . فالاطفال على الاخص يودون ان يحبهم رفاقهم ومن هم اكبر منهم على العموم ، وتكون فيهم عادة نزعات يمكن ان تنمو في اتجاهات حسنة او سيئة حسب المواقف التي يحدون انفسهم فيها ، وهم فوق ذلك في سن لا يزال تكوين العادات الجديدة فيها سهلاً ، والعادات الطيبة تستطيع ان تجعل جزءاً كبيراً من الفضيلة لا يكاد يكلف مجهوداً . اما نموذج الفضيلة القديم الذي كان يترك الرغبات السيئة تُرعى ويكتفي بكبح مظاهرها باستخدام قوة الارادة فقد وجد انها طريقة غير ناجعة لقهر الخلق السيء . والرغبات السيئة كياه نهر أقيم عليه سد : تجد مخرجاً آخر فات عين الارادة اليقظى . ان الرجل الذي كان في صباه يود لو قتل أباه يجد راحة وهو كبير في ضرب ابنة تحت ستار انه انما يعاقب فيه (الشر الخلقى) . والنظريات التي تبرر القسوة أصلها في الغالب رغبة ما حولتها الارادة عن مجراها الطبيعي ، وطردها الى السريرة لتظهر في النهاية متنكرة في زي كره للذيلة أو شيء محترم مثله . فضبط الرغبات

السيئة عن طريق الارادة ، وان كان ضرورياً في بعض المناسبات ، ليس اذن كافياً من حيث هو لتكوين الفضيلة .

وتدفعنا هذه الاعتبارات الى ميدان التعليل النفسي . اني أجد كثيراً من تفاصيله وهما لا تؤيده أدلة كافية ، لكن يبدو لي ان طريقته العامة مهمة جداً ولا غنى عنها لابتكار الطرق الصحيحة للتربية الخلقية ، كما يبدو لي أيضاً ان الأهمية التي يعلقها كثير من المحللين النفسيين على بواكير عهد الرضاعة مبالغ فيها ، فانهم يتكلمون احياناً كما لو كانت اخلاق الطفل تحدت ورسخت عند بلوغه الثالثة من عمره اني على ثقة من ان هذا لا ينطبق على الواقع ، لكنها غلطة في جانب الحق ، ذلك ان نفسانية عهد الرضاعة كانت فيما مضى مهمة ، بل الواقع ان الطرق التي كانت شائعة بين المفكرين جعلت دراستها مستحيلة . خذ مسألة كالنوم : كل الامهات يرغبنه لأطفالهن لأنه صحي لهم ومريح لهم ، وقد انشأ الامهات لاحدائه فناً خاصاً من هز المهد والاغاني المهددة . وكان من نصيب الذكور الذين بحثوا هذه المسألة علمياً ان يكشفوا خطأ اسلوبهن الفني اذا قيس بالمثل الكامل ، لانه وان كان حرياً ان ينجح في اي يوم يجرب فيه ، يخلق في الاطفال عادات سيئة . كل طفل يجب ان يهتم به الجميع ، فذلك يرضي احساسه بأهمية نفسه ، فاذا وجد ان امتناعه عن النوم يضمن الاهتمام به فسرعان ما يتعلم سلوك هذا الطريق ، وتكون النتيجة اضراراً بالصحة والاخلاق على حد سواء . ان الشيء المهم هنا هو تكوين العادة أي الربط والقران بين فراش الطفل وبين نومه ، فاذا تكون قدر كاف من هذا الارتباط والاقتران فان الطفل لن يرقد مستيقظاً الا اذا كان مريضاً او متألماً . لكن ايجاد هذا الارتباط يحتاج الى تدريب ، فلا يمكن تحقيقه بمجرد تدليل الطفل لأن ذلك يقرن بين السرور والسهرة في ذهنه . وتنطبق مثل هذه الاعتبارات على تكوين العادات الاخرى ، الحسن منها والسيء . هذه الدراسة كلها لا تزال في مهدها ، لكن اهميتها العظمى قد تبينت بالفعل ، ويكاد يكون محققاً أنها ستزداد . لقد وضح ان تربية الخلق

يجب أن تبدأ منذ الولادة ، وانها تحتاج الى قلب كثير من أساليب المربيات والامهات الجاهلات ، كذلك من الواضح أن التعليم المحدد يمكن ان يبدأ في وقت أسبق مما كان يعتقد فيما مضى ، لأن من الممكن أن نجعله سائغاً لا يجهد انتباه الطفل . وقد تعدلت نظريات التربية من هاتين الناحيتين كلنيهما تعديلاً أساسياً في السنوات الاخيرة أدى الى نتائج نافعة ينتظر ان تزداد ظهوراً واتضحاً على مر السنين . لذلك سأبدأ فيما يلي ببحث شبه تفصيلي لتربية الأخلاق في عهد الرضاع قبل أن أتناول بالشرح التعليم المناسب للمراحل التالية .



غاية التربية

قبل البحث في كيفية التربية يحسن بنا ان نكون على بينة من نوع النتيجة التي نرمي اليها . كان هدف الدكتور ارنولد (التواضع العقلي) وهو صفة لا تتوفر في (الرجل الكريم) هدف ارسطو . والمثل الاعلى عند نيتشه غيره في المسيحية وغيره عند كانت ، اذ بينا يوصي المسيح بالحب ويأمر به ، يقرر كانت انه ما من فعل مبعثه الحب يمكن ان يكون فاضلاً حقاً . بل ان من لا خلاف بينهم على عناصر الخلق القويم قد يختلفون في اهميتها النسبية ، فمنهم من يؤثر الشجاعة ، ومنهم من يؤثر المعرفة ، وآخر يفضل الرحمة ، وآخر يشيد بالاستقامة ، ومنهم من يضع الواجب نحو الدولة فوق محبة اولى الارحام مثل بروكس الاكبر ، ومنهم من يقدم محبة اولى الارحام مثل كنفوشيوس . وكل هذه الخلافات تنتج عنها اختلافات في التربية . فلا غنى لنا عن ان يكون لدينا تصور ما لنوع الشخص الذي نرمي الى تخريجه قبل ان نستطيع تكوين رأي واضح عن التربية التي نعلوها خيراً من غيرها .

طبعاً قد يكون المرابي احمق بمعنى انه يصل الى نتائج غير التي كان يرمي اليها ، ان (يوريا هيب) كانت نتاج دروس في التواضع اختلف أثرها تماماً عن

المقصود ، لكن أقدر المربين صادفوا نجاحاً مقبولاً في معظم ما قصدوا . وتجدر أمثلة لذلك في الصيني الأديب ، والياباني الحديث ، واليسوعيين ، والدكتور ارنولد ، والذين بيدهم سياسة المدارس العامة بأمريكا ، هؤلاء جميعاً قد نجحوا نجاحاً باهراً في طرائقهم المختلفة . كانت النتائج المقصودة في مختلف هذه الحالات متباينة كل التباين ، لكنها تحققت في صميمها . وقد يكون من الخير ان نقضي بضع لحظات في التحدث عن هذه النظم المختلفة قبل ان نحاول الوصول الى تحديد الاهداف التي نرى نحن ضرورة جعلها غرضاً للتربية .

كانت التربية الصينية التقليدية كبيرة الشبه من بعض النواحي بنظيرتها في أثينا في أعز أيامها . كان الصبية الأثينيون يحملون على حفظ هومر عن ظهر قلب من أوله الى آخره . وكذلك كان الصبية الصينيون يحملون على حفظ المأثورات الكونفوشية بنفس العناية والدقة ، وكان الأثينيون يعلمون نوعاً من احترام الآلهة يقوم على المحافظة على المظاهر ولا يضع حاجزاً في طريق النظر الفكري الحر ، وكذلك كان الصينيون يعلمون طقوساً خاصة تتصل بتقديس الاسلاف من غير ان يجبروا بحال على اعتقاد ما كان منطوياً في تلك الطقوس في الظاهر . وكان التشكك السهل اللبق هو ما كان ينتظر ان يظهر به الصيني المتربي . كان له ان يناقش اي شيء ، لكن الوصول الى نتائج قاطعة كان يعتبر على شيء من الابتذال ، وكان من المستحب ان تكون الآراء بحيث تصلح موضوعاً لمناقشة طريفه على الطعام لا موضوع مخاصمة بين الرجال . وكارليل يسمي أفلاطون (أثينياً مهذباً رفيعاً يبدو في بيت العبادة كأنه في بيته) ، وهذه الصفة المميزة الاخيرة كانت أيضاً عند الحكماء الصينيين ولم يكن لها على العموم وجود عند الحكماء الذين خرجتهم الحضارات المسيحية ، الا اذا كانوا مثل غوتيه قد أشربوا الروح اليونانية . ان الاثينيين والصينيين على السواء كانوا يرغبون في الاستمتاع بالحياة ، وكانت لهم فكرة عن الاستمتاع خلاصتها احساسهم الفائق بالجمال .

على أنه قد كانت هناك فروق عظيمة بين الحضارتين اليونانية والصينية ترجع

الى ان اليونانيين كانوا في الجملة نشيطين ، وان الصينيين كانوا في الجملة كسالى . وقد وقف اليونانيون قدرتهم ونشاطهم على الفن والعلوم وابداء بعضهم بعضاً ، واحرزوا في جميع ذلك نجاحاً غير مسبوق . وقد وجدوا في السياسة والوطنية مصرفاً لطاقتهم . كان السياسي منهم اذا عزل آوى الى التلال وكتب القصائد في مسرات الحياة الريفية . ومن هذا يتبين ان الحضارة اليونانية دمرت نفسها ، اما الحضارة الصينية فتدميرها لم يكن مستطاعاً الا من الخارج . ويبدو مع ذلك ان هذه الفروق لا يمكن ان تعزى الى التربية جملة ، لان الكنفوشية في اليابان لم تنتج قط ذلك الشك المثقف الكسول الذي عرف به ادباء الصين ، اللهم الا عند اشراف كيوتا .

ان التربية الصينية انتجت الاستقرار والفن ، وفشلت في انتاج التقدم او العلم . ولعل هذا هو النتيجة المتوقعة لمذهب الشك ، فالمعتقدات عن عقيدة تنتج اما تقدماً واما وبالاً ، ولا تنتج استقراراً . والعلم حتى حين يهاجم المعتقدات التقليدية له معتقداته الخاصة فلا يكاد يزدهر في جو من ادب الشك ، فالأهم في حاجة الى طاقة تحافظها على نفسها في دنيا مبالاة الى الخصام قد قربت المخترعات الحديثة بين اجزائها فوحدتها . وبدون العلم تكون الديمقراطية مستحيلة . فالحضارة الصينية كانت محصورة في النسبة الضئيلة من المتعلمين ، والحضارة اليونانية قامت على الاستعباد ، وهذه الاسباب كانت التربية الصينية التقليدية غير صالحة للعالم الحديث وقد استنكف عنها الصينيون انفسهم ، وللأسباب نفسها اصبح من المستحيل وجود طراز القرن الثامن عشر من السادة المثقفين الذين كانوا يشبهون من بعض النواحي ادباء الصين .

واليابان الحديثة اظهر مثل يوضح النزعة التي تغلب على جميع الدول العظمى ، نزعة جعل العظمة الوطنية الهدف الأسمى للتربية . فالتربية اليابانية هدفها تخريج مواطنين مخلصين للدولة عن طريق تربية عواطفهم ، ونافعين لها عن طريق المعارف التي تعلموها . ولا يستطيع ان اثني الثناء المكافي على المهارة التي بها سعى

اليابانيون وراء هذا الهدف المزدوج ، فمنذ استطاع أسطول الكومادور پري ان يجد طريقاً الى اليابان قد اصبحت اليابانيون في مركز صعب عليهم جداً حماية انفسهم فيه . وإنا لنجد في نجاحهم مبرراً لطرائقهم الا اذا قلنا بأن حماية النفس قد تكون جريمة . ووجودهم في مركز المستيئس هو وحده الذي يبرر أساليبهم في التربية ، تلك الاساليب لو اتبعتها أية أمة ليست في خطر داهم لعد ذلك منها جريمة . ان ديانة الشنتو التي لا يصح ان يتشكك فيها حتى الأساتذة الجامعيون في اليابان لها تاريخ يشك فيه بقدر ما يشك في سفر التكوين ، وان محاكمة (ديتن) لتهنرل حتى تتمحي بجانب التحكم اللاهوتي في اليابان . وهناك في الاخلاق تحكم مثله ، فالوطنية واحترام الآباء وعبادة الميكادو الخ . كلها يجب ألا يشك فيها ياباني ، ومن ثم كاد كثير من أنواع التقدم يستحيل هناك . والخطر العظيم في نظام حديدي من هذا النوع هو أنه قد يؤدي الى الثورة باعتبارها الوسيلة الوحيدة للتقدم ، هذا الخطر حقيقي وان كان غير عاجل ، وهو ناشئ الى حد كبير عن نظام التربية هناك .

ففي اليابان الحديثة اذا عيب هو نقيض عيب الصين القديمة . كان أدباء الصين يسرفون في الشك والكسل ، وحرى بخريجي التربية اليابانية ان يسرفوا في العقائد والتحمس . وما ينبغي ان تنتج التربية اعتقاداً بأن المعرفة يمكن تخصيصها الى حد ما وان بصعوبة ، وان كثيراً مما يعتبره الناس معرفة في عصر قد يكون فيه خطأ قليل او كثير . غير ان هذه الأخطاء يمكن اصلاحها بالعناية والاجتهاد . وفي العمل بمعتقداتنا يجب ان نكون على حذر شديد في المواطن التي تجر فيها الغلطة البسيطة الى كارثة ، ومع كل ذلك فلا مناص من ان تكون معتقداتنا هي أساس أعمالنا ، وهذه حالة للعقل محفوفة بالصعوبة لأنها تتطلب درجة عالية من الثقافة الفكرية خالية من ضмор العاطفة ، لكنها على صعوبتها ليست مستحيلة لأنها في الواقع المزاج العلمي . والمعرفة كغيرها من الطيبات صعبة لكنها غير مستحيلة ، فالمسرف في التهديق ينسى صعوبتها ، والمتشكك ينكر امكانها ، فكلاهما على

خطأ وأخطاؤها حين تضيع وتنتشر تؤدي الى كارثة اجتماعية .

واليسوعيون كاليابانيين الحديثين وقعوا في غاطة اخضاع التربية لصلحة هيئة هي في هذه الحالة الكنيسة الكاثوليكية ، فلم يكن همهم الاول هو صالح التلميذ ذاته ، ولكن جعله وسيلة الى صالح الكنيسة . واذا قبلنا نظريتهم اللاهوتية فاننا لا نستطيع لوهمهم ، لأن انقاذ الارواح من عذاب جهنم أهم من اي شيء دنيوي صرف ، ولا يحققه عندهم الا الكنيسة الكاثوليكية . اما الذين لا يقبلون نظريتهم فسيحكمون على التربية اليسوعية بنتائجها . نعم كانت هذه النتائج في بعض الاحيان مكروهة مثل يوريا هيب ، وقد كان فولتير من نتائج الأساليب اليسوعية ، لكن النتائج التي قصدوا اليها كانت في الجملة تتحقق بالفعل الى أمد طويل . ولكي يحققوا أغراضهم أخضعوا الفن للعاطفة ، وجعلوا الفكر سطحياً والخلق منحللاً ، واحتاجت فرنسا آخر الامر الى الثورة الفرنسية لتخلص البلاد وتطهرها من شر ما عملوا . اما في التربية فكانت جريمتهم أنهم لم يكونوا يصرون عن حب لتلاميذهم ولكن عن غايات لهم بعيدة .

اما طريقة الدكتور ارنولد التي ظلت متسلطة على المدارس العامة الانكليزية الى اليوم فقد كان لها عيب آخر هو ارسقراطيتها ، كان هدفها اعداد رجال للوظائف ذات النفوذ والسلطان سواء في انجلترا او في النائي من أجزاء الامبراطورية . ان الارسقراطية اذا أريد لها البقاء تحتاج فضائل معينة وهذه كان على المدرسة ان تفرسها في التلميذ . كان المقصود ان يكون المتخرج فيها نشطاً جلدأً صحيح البدن ، تملكه معتقدات معينة ثابتة راسخة ، معايير الاستقامة عنده عالية ، قد اقتنع بأن له في الدنيا رسالة هامة . وقد تحققت تلك النتائج الى حد مدهش ، من أجلها كان يضعي بتقوية الذهن لأن الذهن الناضج قد يحدث الشك ، وكان يضعي بالعطف لأنه قد يتعارض مع حكم الاجناس او الطبقات (المنحطة) وكانت الرحمة تضعي من اجل الصلابة ، والخيال من اجل العزم . ولو كانت الدنيا غير متغيرة لأمكن ان تكون النتيجة ارسقراطية

دائمة لها من المحاسن والمساوىء ما كان لأهل اسبارطا ، لكن الارستقراطية صارت لا تتفق مع العصر ، ولن تطيع الشعوب المغلوبة الحكام بعد الآن مهما أوتوا من الحكمة والفضيلة ، وهذا يدفع الحكام الى القسوة ، والقسوة تشجع الثورة . ان الدنيا الحديثة بمشاكلها المعقدة تزداد على الزمن حاجة الى الذكاء ، وقد ضحى الدكتور ارنولد بالذكاء في سبيل (الفضيلة) . وقد تكون معركة واترو كسبت في ملاعب ايتن الرياضية ، لكن الامبراطورية البريطانية يخسرها اهلها هناك . ان الدنيا الحديثة تحتاج طراز آخر من الرجال اكثر عطفاً عن خيال ، وأشد مرونة عن فهم ، وأقل اعتقاداً في الشجاعة الغاشمة ، واكثر اعتقاداً في المعرفة الفنية . يجب ان يكون رجل الارادة في المستقبل خادماً لمواطني أحرار لا حاكماً محسناً الى رعايا معجبين به . فالتقاليد الارستقراطية المتغلغلة في التربية البريطانية الراقية هي آفتها ، وربما كان من المستطاع تخليصها من هذه التقاليد بالتدرج ، وربما تبين ان معاهد التربية العريقة عاجزة عن تكييف نفسها لتتمشى مع العصر ، اما أيها سيكون فلست أجازف فيه برأي.

واذا اخذنا بعين الاعتبار المدارس العامة الامريكية فانها تؤدي بنجاح مهمة لم يحاولها احد قط من قبل على نطاق واسع ، هي تحويل مجموعة من البشر متباينة الى امة متجانسة ، وهذه المهمة يظهر القائمون بها كثيراً من المقدرة ، ثم هي في الجملة من الخير بحيث يستحقون عليها عند الحساب ثناء عظيماً . لكن امريكا كاليابان في مركز خاص ، وما تبرره الظروف الخاصة لا يلزم ان يكون مثلاً أعلى يحتذى في كل مكان وزمان . ان لأمريكا ميزات خاصة ، وصعوبات خاصة ، فمن الميزات مستوى اعلى من الثروة ، وسلامة من خطر الهزيمة في الحرب ، وخلو نسي من التقاليد المعطلة الموروثة عن العصور الوسطى ، ولقد وجد فيها المهاجرون شعوراً ديمقراطياً شائعاً ، ومرحلة راقية من الفن الصناعي ، وهذان في رأيي هما السببان الرئيسيان اللذان من اجلهما صار جميع المهاجرين تقريباً اكثر اعجاباً بأمريكا منهم بأوطانهم الاصلية . لكن المهاجرين انفسهم يحتفظون عادة بوطنية مزدوجة ، واذا ما قام نزاع اوربي ظالموا ينتصرون بحماسة ، كل

للأمة التي جاء منها ، أما ذريتهم فعلى عكس ذلك يفقدون كل ولاء للممالك التي قدم منها آباؤهم ، ويصيرون أمريكيين وحسب . ويعزى موقف الآباء ذاك إلى ما في أمريكا من محاسن عامة ، أما موقف الأبناء فأكبر وأكثر ما يقرره هو التربية المدرسية ، وعمل المدرسة في هذا الصدد هو وحده الذي يهمنا .

وطالما المدرسة تستطيع أن تعتمد على المحاسن الأصلية لأمريكا فهي في غير حاجة إلى أن تقرر تعليم الوطنية الأمريكية بتلقين معايير زائفة ، لكن المدرسة الأمريكية تضطر إلى أن تغرس في نفوس التلاميذ احتقاراً لهشوف من التفوق الحقيقي حيثما تجد العالم القديم متفوقاً على العالم الجديد . أن المستوى الفكري في غرب أوروبا والمستوى الفني في شرقها هما في الجملة أعلى منهما في أمريكا ، والخرافات الدينية في غرب أوروبا كله إلا إسبانيا والبرتغال أقل منها في أمريكا ، وفي جميع الممالك الأوروبية تقريباً نجد الفرد أقل عرضة منه في أمريكا للجري مع القطيع ، فحرية النفس أعظم حتى عندما تكون حرية السياسة أقل ، فمن هذه الوجوه تأتي المدارس الأمريكية العامة بضرر ، وهو ضرر لا مناص منه لتعليم وطنية أمريكية بحتة ، ومنشأ الضرر هنا كما في حالة اليابان واليسوعيين هو اعتبار التلاميذ وسيلة إلى غاية لا أنهم غاية في أنفسهم . أن المعلم يجب أن يحب أطفاله أكثر من دولته أو من كنيسته والالم يكن مثلاً أعلى للمعلم .

وفي هذا عندما اصرح أن التلاميذ يجب أن يعتبروا غايات لا وسائل قد يعترض عليّ بأن كل إنسان هو أهم كوسيلة منه كغاية ، فما يكونه الرجل كغاية يندثر عندما يموت ، أما ما ينتجه كوسيلة فيبقى على الدهر . ونحن لا نستطيع أن ننكر هذا ، لكننا نستطيع أن ننكر ما يراد استنتاجه منه . أن أهمية الإنسان كوسيلة قد تكون للخير أو للشر ، والآثار البعيدة للأعمال الإنسانية هي من الشك بحيث ينزع العاقل إلى أن يسقطها من حسابه . فإذا تكلمنا بوجه عام قلنا أن الطيبين لهم آثار طيبة والاشرار لهم آثار سيئة ، وليس هذا بطبيعة الحال قانوناً ثابتاً من قوانين الفطرة ، فقد يقتل الرجل الشرير طاغية لعلمه أن

هذا الطاغية ينوي معاقبته على جرائم ارتكبها ، وآثار هذا العمل قد تكون طيبة وان كان الفاعل وفعاله سيئين . ومع ذلك فالقاعدة الاجمالية العامة هي ان الجماعة من الرجال والنساء الخيرين في ذاتهم ستكون آثارها أفضل من آثار الجماعة المكونة من قوم جهلاء أشرار . وبغض النظر عن مثل هذه الاعتبارات فالأطفال والناشئون يحسون بغريزتهم الفرق بين الذين يودون لهم الخير حقاً والذين يعتبرونهم مجرد خامات تستخدم في تنفيذ خطة ما، فلا الخلق ولا الذكاء يبلغان مبلغهما من النمو الطيب الحر اذا كان العلم ناقص الحب ، والحب الذي من هذا النوع يتكون في صميمه من الشعور بالطفل كغاية في ذاته . ونحن جميعاً عندنا هذا الشعور نحو انفسنا ، فنحن نشتهي الطيبات لأنفسنا من غير ان نطالب أولاً بدليل على ان حصولنا على تلك الطيبات سيكون من ورائه عون على تحقيق غرض عظيم . وكل والد عادي في عطفه يشعر بشيء كهذا نحو أطفاله، فالوالدان يبغيان لأطفالهما النمو والقوة والصحة والنجاح في المدرسة وهلم جرا بنفس الطريقة التي يبغيان بها الخير لنفسيهما . والاهتمام بمثل هذه المسائل لا يقتضي اية محاولة لانكار الذات ، او اي تطبيق لقاعدة من قواعد العدل المجرد . وليست هذه الغريزة الوالدية دائماً مقصورة على اطفال الانسان نفسه لا تعدوهم ، بل انها في صورتها غير المركزة يجب ان توجد في اي انسان يريد ان يكون معلماً جيداً للأولاد والبنات والصغار . وكلما كبر التلاميذ اخذت اهمية هذه الغريزة تقل ، لكن الذين يملكونها هم وحدهم الذين يمكن ان يؤمنوا على وضع برامج التربية . اما الذين يعتبرون احد اغراض تربية الذكور تخريج رجال راغبين في ان يقتلوا ويقتلوا للثأف من الأسباب ، فهؤلاء ينقصهم بداهة ذلك الشعور الوالدي المخفف ، ومع ذلك فهم يسيطرون على التعليم في جميع الاقطار المتمدنة الا الدانمرك والصين .

لكن لا يكفي في المربي ان يحب الصغار اذ من الضروري ايضاً ان يكون عنده ادراك صحيح للسمو في الانسان . ان القطة تعلم صغارها صيد الفير ان واللعب بها ، والحريون يفعلون مثل ذلك بالصغار من بني البشر ، فالقطة تحب

صغيرها ولكنها لا تحب الفأر الصغير ، والحربي قد يحب ابنه هو لكنه لا يحب ابناء اعداء بلاده ، حتى اولئك الذين يحبون الناس جميعاً قد يخطئون عن تصور خاطيء للحياة الطيبة ، لذلك سأحاول قبل الاستمرار فيما انا بصدد ان اعطي فكرة عما اعتبره سمواً في الرجال والنساء بقطع النظر عن كونه عملياً او غير عملي ، وعن طريق التربية التي بها يمكن ابرازه للوجود . ان صورة كهذه ستساعدنا فيما بعد حينما نشرع ننظر في تفاصيل التربية ، فسنعرف عندئذ الاتجاه الذي نود ان نسير فيه .

وعلينا ان نميز من اول الامر بين بعض الصفات التي يستحب وجودها في فريق من الناس وبين الصفات التي يستحب وجودها فيهم جميعاً ، فنحن نحتاج رجال فن ولكننا نحتاج ايضاً رجال علم ، ونحن نحتاج اداريين عظماء ، ولكننا نحتاج ايضاً حراثين وطحانين وخبازين . ان الصفات التي تنتج رجلاً سامياً ممتازاً في ناحية خاصة يغلب ان تكون مما قد لا يستحب تعميمه فالمعادن التي امتدحها شيلي الشاعر في الابيات التي وصف بها عمله اليومي والتي يقول فيها :

فراقب من الفجر الى المساء
انعكاس اشعة الشمس على البحيرة
النحل الاصفر يتغلغل في العليق المزهر
بلا مبالاة او نظر لما هيمة الأشياء .

هذه الابيات قد لا تكون مستحبة في ساعي البريد مثلاً ، فلسنا نستطيع اذن صوغ تربيتنا لنؤتي بها كل انسان مزاج شاعر . لكن هناك مميزات خاصة يستحب وجودها في الناس اجمالاً وتلك وحدها هي التي سأنظر فيها في هذه المرحلة .

اني لا أميز فرقاً البتة بين ما يسمونه الذكر وما يسمونه الانثى . نعم يستحسن في المرأة التي سيعهد اليها بالعناية بالاطفال الصغار ان تتلقى قدرأ معيناً من الاعداد المهني ، لكن هذا لا يستلزم من الفروق الا شبه ما بين الزارع

والطحان، وهذا ليس أساسياً بأية حال من الاحوال ولا يتطلب منا اعتباراً ونحن في مستوانا الحاضر .

اني سأتناول اربع مميزات يبدو لي انها تكون مجتمعة أساس الخلق المثالي :
الحيوية ، والشجاعة ، والحساسية ، والذكاء . ولست أزعـم ان هذه القائمة كاملة ،
ولكني أراها تحملنا شوطاً حسناً في الطريق المرجو ، وفضلاً عن هذا فاني اعتقد
اعتقاداً راسخاً ان هذه الصفات يمكن اشاعتها واذاعتها بواسطة العناية الحقة
بالنـشء من النواحي البدنية والعاطفية والذهنية ، وسأتكلم عن كل منها بالدور .

الحيوية صفة فسيولوجية اكثر منها عقلية ، والمفروض انها دائماً تكون حيث
تكون الصحة التامة ، لكنها تنزع الى التناقض مع التقدم في السن وتتضاءل
بالتدريج الى ان تنعدم في الشيخوخة ، اما في الاطفال الأصحاء فانها تتزايد
بسرعة الى حدها الاعلى قبل ان يصل الطفل الى سن دخول المدرسة ، ثم تنزع
الى النقصان بالتربية . وأينما توجد الحيوية يوجد اغتباط الانسان بأنه حي ، بغض
النظر عن اي ظروف سارة معينة . انها تزيد المسرات متعة ، وتنقص الآلام .
انها تسهل على الانسان الاهتمام بما يدور حوله ، وبذلك تساعد على الانشغال عن
النفس اللازم لاتزان العقل . ان الآدميين نزاعون الى الاشتغال بأنفسهم عما سواها
مما يبصرون ويسمعون ، نزاعون الى العجز عن الاهتمام بشيء خارج جلودهم ،
وهذا عليهم نكبة لأنه يؤدي بهم الى العجز عن الاهتمام بشيء خارج جلودهم ،
وهذا عليهم نكبة لأنه يؤدي بهم على احسن تقدير الى الملل والسأم ، وعلى أسوأ
تقدير الى الهم والانقباض ، وهو ايضاً مانع مهلك يمنع المرء ان يكون نافعاً الا في
احوال نادرة جداً . والحيوية تنمي الاهتمام بالعالم الخارجي كما تنمي المقدرة على
العمل الشاق ، وهي فوق هذا أمان من الحسد لأنها تشع البهجة في حياة الانسان ،
وهذا من اكبر حسناتها ، لأن الحسد من اكبر مصادر شقاء الانسان . نعم ان
كثيراً من الصفات السيئة يأتلف بطبيعة الحال مع الحيوية كما تأتلف صفات النمر
وحيويته ، كما ان كثيراً من خير الصفات يأتلف مع فقدانها . فنيوتن ولوك مثلاً

كان حظها من الحيوية ضئيلاً ، ولو انها كانا احسن صحة لنجوا مما كان بهما من ضيق صدر وحسد . فالجدال الذي قام بين نيوتن وليبنز ، والذي دمر الرياضيات الانجليزية اكثر من قرن ، كان يمكن تجنبه كله على الراجح لو ان نيوتن كان قوي البدن قادراً على الاستمتاع بالمسرات العادية . فعلى الرغم مما للحياة من قيود فاني اضعها بين الصفات التي يجب ان يحوزها كل انسان .

والشجاعة - ثانياً الصفات في قائمتنا - لها صور متعددة كلها معقدة . فالتجرد من الخوف شيء ، والمقدرة على ضبط الخوف شيء آخر ، والتجرد من الخوف بدوره شيء حين يكون الخوف معقولاً ، وشيء آخر حين يكون الخوف غير معقول . ومن الواضح ان التجرد من الخوف غير المعقول محود ، ومثله المقدرة على ضبط الخوف . أما لتجرد الخوف المعقول فأمر فيه نظر ، على أني سأؤجل هذه المسألة الى أن أقول شيئاً عن الصور الأخرى للشجاعة .

يلعب الخوف غير المعقول دوراً كبيراً في الحياة العاطفية الغريزية لأكثر الناس ، وهو في صورته المرضية ، كتوهم الاضطهاد أو القلق المربك أو ما الى ذلك ، يعالجه أطباء الأمراض العقلية ، لكنه في صورته الخفيفة شائع بين المعدودين في العقلاء . قد يكون شعوراً مبهماً بأن هناك أخطاراً محيطة بنا وعندئذ يكون الأصبوب تسميته (قلقاً) ، او قد يكون خوفاً معيناً من أشياء لا خطر فيها كالفيران أو العناكب^١ وكان المظنون فيما مضى أن كثيراً من المخاوف غريزية ، لكن معظم الباحثين في الوقت الحاضر يشكون في ذلك . ان هناك فيما يظهر مخاوف قليلة غريزية - كالخوف مثلاً من الاصوات العالية - لكن أكثرها وأغلبها ينشأ مما يقع للانسان أو من الايحاء ، فالخوف من الظلام مثلاً راجع كله الى الايحاء فيما يبدو . وهناك ما يحمل على الظن أن الفقرات لا تستشعر

(١) للمراجعة عن الخوف والقلق في الطفولة اقرأ ما كتبه وليم اشتيرن مثلاً في الفصل الخامس والثلاثين من (نفسانية بواكير الطفولة) - طبعة جورج آلن وأنوين ليمنت سنة ١٩٢٤

خوفاً غريزياً من اعدائها بالفطرة ولكن تأخذ هذا الخوف من كبارها ، لان الناس عندما يربون بأيديهم هذه الحيوانات لا يجدون فيها صنوفاً من الخوف شائعة في نوعها من الحيوان . لكن الخوف معد الى غير حد ، يأخذه الأطفال من الكبار حتى حين لا يشعر الكبار أنهم أظهروه . والفرق في الأمهات أو الحاضنات سرعان ما يقلده الأطفال بالايحاء ، وقد رأى الرجال الى اليوم من الجاذبية في النساء أن يكن ذوات خوف غير معقول ورعب ، لأن ذلك كان يعطي الرجال فرصة لان يظهروا بمظهر الحماسة من غير تعرض لأي خطر حقيقي ، لكن أبناء هؤلاء الرجال كانوا يأخذون الفزع والرعب عن امهاتهم ، فكان ذلك يدعو الى تدريبهم فيما بعد على استعادة الشجاعة التي ما كانوا ليفقدوها لو أن آباءهم لم يؤثروا تحقير أمهاتهم . ان الضرر الذي نشأ عن استخضاع النساء يفوق كل تقدير ، وأمر الخوف هذا ان هو الا مثل واحد عرضي يوضح ما نحن بصددده .

إنني لا أعير الآن البحث في الطريق التي بها يمكن تقليل الخوف والقلق الى أقصى حد ، فهذا موضوع سأنظر فيه بعد ، ومع ذلك فهناك سؤال ينشأ في هذه المرحلة الا وهو : هل نستطيع في علاج الخوف أن نقنع باستخدام القمع ، أو علينا ان نلتمس علاجاً أشفى وأبقى ؟ ان الارستقراطيات كانت تدرب بحكم التقاليد على عدم اظهار الخوف ، بينما تشجع الأمم والطبقات والنساء الحكومة على ان تبقى في جنبها . وكان محك الشجاعة سلوكياً غاشماً : فالرجل يجب ألا يفر من الزحف ، ويجب ان يكون خبيراً بالعباب (الرجولة) ، ويجب أن يحتفظ برباطة جأشه في الحرائق وعند انكسار السفن والزلازل الخ . يجب عليه ألا يقتصر على عمل ما هو صواب ، وانما عليه ان يتجنب اصفرار الوجه ، أو الارتجاف ، أو البهر ، أو اية علامة اخرى سهل ملاحظتها من علامات الخوف . كل ذلك أعده على جانب عظيم من الأهمية ، واني لأود ان أرى الشجاعة تغرس في كل الأمم ، وفي كل الطبقات ، وفي الجنسين على السواء ، لكننا اذا اتخذنا لذلك وسيلة مبنية على القمع فانها تجر علينا الشرور التي تصحب القمع عادة . وقد كان

خوف العار والفضيحة دائماً سلاحاً فعالاً في أحداث مظاهر الشجاعة ، لكنه في الواقع انما يسبب صراعاً بين صنوف من الخوف يرجى ان تكون الغلبة فيه للخوف من سخط الناس . لقد كان يقال لي في طفولتي : (قل الصدق دائماً الا اذا اخافك شيء) ، واني لا أستطيع ان اجيز هذا الاستثناء ، فالخوف يجب ان يتغلب عليه لا في الفعل وحده ولكن في الشعور ايضاً ، ولا في الشعور الواعي فحسب ولكن في غير الواعي كذلك ، فالانتصار الظاهري المحض على الخوف وهو الذي يرضي العرف الارستقراطي يترك الخوف يعمل في السر ، فتنتج انفعالات سيئة ملتوية لا يدرك الناس انها وليدة الفرع . ولست اتكلم هنا عن (الصدمة القنبلية) فعلاقتها بالخوف واضحة ، وانما اتكلم عن النظام كله ، نظام الظلم والقسوة التي تلتبس به الفئات الحاكمة الاحتفاظ بسلطانها وسيادتها . فعندما امر احد الضباط البريطانيين في شنغهاي بضرب عدد من الطلبة الصينيين العزل بالرصاص في ظهورهم بغير انذار ، كان الحافز له بداهة هو الفرع ، شأنه في ذلك بالضبط شأن الجندي الذي يفر من المعركة ، لكن الارستقراطيات الحربية ليس لديها من الذكاء ما يكفي لرد مثل تلك الأعمال الى اصولها النفسية ، فهم يعتبرونها من دلائل العزم والروح الصحيحة .

ان الخوف والغضب عاطفتان متشابهتان تماماً من وجهتي نظر علم النفس وعلم وظائف الأعضاء ، فالرجل الذي يغضب ليس عنده أعلى انواع الشجاعة ، والقسوة التي تتجلى باطراد في قمع الاضطرابات الزنجية او غيرها من الحركات التي تهدد الارستقراطية . هي وليدة الجبن وتستحق نفس الاحتقار الذي نخلمه عادة على هذه الرذيلة في صورها الأكثر ظهوراً . واني اعتقد ان في الامكان تربية الرجال والنساء العاديين بحيث يستطيعون ان يعيشوا بلا خوف ، وهذا ما لم يستطعوا الى الآن غير عدد قليل من الابطال او القديسين ، لكن ما فعلوه يستطيع غيرهم أن يفعله اذا وجد من يرشده بأقلها شأنًا .

وللحصول على شجاعة لا تقوم على القمع يجب أن نجتمع بين عدة عوامل ،

ولنبداً بأقلها شأنًا . ان الصحة والحيوية تساعدان كثيراً على الشجاعة وان لم تكونا ضروريين لها تماماً ، والمران والمهارة في المواقف الخطيرة مستحبات جداً . لكننا نحتاج الى ما هو أعظم شأنًا من ذلك حين نشرع ننظر في الشجاعة الشاملة ، لا الشجاعة في نواح خاصة : نحتاج الى مزيج من احترام الذات ونظرة للحياة غير شخصية . ولنبداً باحترام الذات . يعيش بعض الرجال بوحى من انفسهم ، بينا هناك آخرون ليسوا الا مرايا لما يحس جيرانهم وما يقولون ، فهؤلاء لا يمكن ان يكونوا قط ذوي شجاعة حقيقية . انهم لا يستغنون عن اعجاب غيرهم بهم ، ولا يفارقهم الخوف من أن يفقدوه . وتعليم (التواضع) الذي كان فيما مضى مستحباً ، كان الوسيلة لانتاج صورة ممسوخة لهذه الرذيلة نفسها ، كان (التواضع) يكبت احترام النفس ولا يقتل الرغبة في الحصول على احترام الآخرين ، فلم يعد ان يجعل التصاغر وسيلة الفوز بالتقدير ، ومن ثم كان ينتج الرياء ويفسد الطبع ، وكان الأطفال يعلمون الخضوع الأعمى ، فاذا ما كبروا أخذوا يتقاضونه ، وكان يقال ان الذين تعلموا كيف يطيعون يعرفون وحدهم كيف يأمر ، والذي أعرضه هو أن ليس لأحد أن يتعلم كيف يطيع وليس لأحد أن يحاول ان يأمر ، ولست أعني بالطبع أنه لا ينبغي ان يكون هنالك قادة حين تشترك الجماعات في عمل ، وإنما أعني أن سلطان هؤلاء القادة يجب ان يكون كسلطان رئيس فرقة كرة القدم الذي يخضع له الأفراد مختارين لتحقيق غرض مشترك . ينبغي ان تكون اغراضنا لنا ومنا ، لا مفروضة علينا من غيرنا ، وينبغي ألا نفرض اغراضنا قط على غيرنا بالقوة . هذا هو الذي اعنيه حين اقول انه ليس لأحد ان يأمر وليس لأحد ان يطيع .

وهناك شيء آخر ألزم للشجاعة العليا ، وهو ما سميته الآن (نظرة للحياة غير شخصية) . ان الرجل الذي تتركز كل آماله ومخاوفه حول نفسه لا يمكن ان ينظر الى الموت باطمئنان ، لأن الموت يطفئ عالم عواطفه كلها . وهنا نواجه مرة اخرى تقليداً يفرينا بطريقة القمع السهلة الرخيصة ، ألا وهو ان القديس

يجب ان يتعلم كيف يبرأ من النفس ويعذب البدن وينبذ المسرات الغريزية . ومن الممكن عمل هذا ، لكن نتائجه سيئة ، فالقديس الزاهد اذا ما حرم على نفسه المسرات فانه يحرمها ايضاً على الآخرين ، فذلك اسهل . لكن الحسد يستمر في السر ، وينتهي به الى اعتقاد ان تحمل الألم يسمو بالانسان الى النبيل ، ومن ثم يكون فرضه على الناس مشروعاً ، وهذا يؤدي الى انعكاس تام لقيم الاشياء ، فالحسن يرى سيئاً والسيئ يرى حسناً . ومنشأ الضرر كله هو قلمسنا الحياة الطيبة عن طريق إطاعة أوامر سلبية ، لا عن طريق توسيع الرغبات والفرائر الفطرية وانماؤها .

وهناك اشياء معينة في الفطرة البشرية تقودنا بغير جهد الى ما وراء النفس . واكثرها شيوعاً هو الحب ، وعلى الأخص الحب الوالدي الذي نجده عند بعض الناس يعم حتى يشمل الجنس البشري بأسره . ومنها المعرفة ، فليس هناك من سبب يحملنا على الظن أن غاليليه كان شديد الحب للخير ، ومع ذلك فقد كان له في الحياة غرض لم يبطل بموته . وشيء آخر : الفن . لكن الواقع ان كل اهتمام يبديه الانسان بشيء خارج عن جسمه هو ، يجعل حياته الى ذلك الحد غير شخصية . لهذا ارى ، وإن بدا ذلك لبعض الناس تناقضاً ، ان الرجل الذي تتسع وتتضح دائرة اهتمامه ، لا يصعب عليه ان يفارق الحياة كما يصعب ذلك على البائس الخائر الذي تتحدد دائرة اهتمامه والذي يشعر بأن نفسه ان هي الا جزء صغير من الدنيا ، لا لاحتقاره نفسه ولكن لتقديره كثيراً سواها . وهذا لا يكاد يحدث الا حيث تكون الغريزة حرة والذكاء متوقداً ، ومن اتحاد هذين العاملين معاً ينشأ شمول في النظر لا يعرفه المنغمس في شهواته ولا الزاهد . ولمثل هذه النظرة الشاملة يبدو الموت الشخصي أمراً تافهاً . فمثل هذه الشجاعة ايجابية غريزية ، لا سلبية قمعية . والشجاعة بهذا المعنى الايجابي هي التي أعتبرها من العناصر الأساسية في الخلق الكامل .

والحساسية — ثلاثة الصفات في قائمتنا — هي على وجه مصححة للشجاعة

المجردة . ان السلوك الجريء اسهل على الرجل الذي يعجز عن ادراك الأخطاء ، لكن مثل هذه الشجاعة قد تكون حمقاء في الغالب . فإنا لا نستطيع ان نرضى عن اي طريق للعمل متوقف على الجهل او النسيان ، لأن من اساس ما هو مستحب بلوغ اقصى مدى ممكن من المعرفة والادراك . على ان ناحية العرفان يأتي الكلام عنها مع الذكاء ، والحساسية بالمعنى الذي اقصده من هذا اللفظ تابعة من العواطف . واذا أردنا لها تعريفاً نظرياً بحثاً قلنا ان الشخص يكون حساساً من الناحية العاطفية عندما تتنبه عواطفه بمنبهات كثيرة ، لكنها على عمومها لا يتعتم ان تكون صفة حسنة . فلكي تكون الحساسية طيبة يجب ان يكون الانفعال العاطفي مما يليق . فمجرد الشدة في العاطفة ليس هو المطلوب . ان الصفة التي اقصدها هي تأثر الانسان ان سروراً او مساءة ، بأشياء كثيرة ، وبالأشياء الصالحة . وسأجتهد في تفسير ما هي الاشياء الصالحة . ان الخطوة الاولى التي يخطوها معظم الاطفال في سن حوالي خمسة اشهر هي الانتقال من مجرد مسرات الاحساس مثل الطعام والدفع ، الى المسرات الناشئة عن الاستحسان الاجتماعي . هذا السرور ينمو سريعاً جداً بمجرد نشوئه ، فكل طفل يحب الثناء ويكره اللوم . ورغبة الانسان في ان يظن الناس به خيراً تبقى في العادة احد الدوافع المتسلطة عليه مدى الحياة . وهي حقاً عظيمة القيمة كحافز الى السلوك المستظرف ، وكابح لدوافع الجشع ، وكان يصح ان تكون انفع وانفس لو كنا أكثر حكمة في اعجابنا ، لكن ما دام اكثر الابطال نصيبا من اعجاب الناس اكثرهم تقتيلاً للناس ، فان حب الاعجاب لا يمكن ان يكفي وحده للحياة الصالحة .

وثانية المراحل في نشوء حساسية مستحبة هي العطف . هناك عطف طبيعي محض ، بكاء الطفل الصغير جداً عندما يبكي اخوه او اخته ، وهذا ما اظن هو الاساس الذي يقوم عليه ما بعده في هذا السبيل ، والتوسعان اللزمان في ذلك أولهما استشعار العطف حق ولو لم يكن المصاب موضع محبة خاصة ،

وثانيهما استشعار العطف عند العلم بحدوث مصيبة وان كانت غير مشهودة .
ويتوقف هذا التوسع الثاني على الذكاء الى حد كبير ، فقد لا يذهب الى ابعاد
من العطف على مصاب يصور مصابه تصويراً واضحاً مؤثراً كما يقع في رواية
جيدة ، وقد يذهب من ناحية اخرى الى الحد الذي يجعل الانسان تحرك عواطفه
الاحصائيات . وهذه المقدرة على العطف المجرد هي في الندرة والاهمية سواء ،
فكل انسان تقريباً يتأثر تأثراً عميقاً حين يجد شخصاً يحبه يصيبه السرطان ،
ومعظم الناس يتأثرون عندما يبصرون في المستشفيات آلام مرضى لا يعرفونهم ،
ومع ذلك فانهم عندما يقرأون ان نسبة الوفيات من السرطان هي كذا وكذا
فانهم في العادة لا يتأثرون الا بخوف وقي شخصي ان يصابوا هم او من هو عزيز
لديهم بهذا المرض . ويصدق مثل هذا على الحرب ، فالتاس يرونها فظيعة حين
يصاب ابنهم او اخوهم بتقطيع اوصاله ، لكنهم لا يرونها افظع مليون مرة
حين تقطع اوصال مليون من الناس . والرجل الممتلئ عطفاً ورفقاً في معاملاته
الشخصية قد يكسب عيشه من الحضر على الحرب ، او من تعذيب الاطفال في
الامم (المتأخرة) . كل هذه الظواهر المألوفة راجعة الى ان العطف لا يثيره في
معظم الناس باعث فكري مجرد ، واذا امكن علاج هذه الحالة زالت نسبة
كبيرة من الشرور الموجودة في الدنيا الحديثة . وقد زاد العلم كثيراً في مقدرتنا
على التأثير في حياة الشعوب البعيدة عنا بغير ان يزيد في عطفنا عليهم . لنفرض
انك مسهم في شركة لصنع القطن في شنغهاي . قد تكون رجلاً مشغولاً لم يزد
على ان جرى في هذا الاستغلال وراء نصيحة مالية ، فلا شنغهاي ولا القطن
يهانك وإنما الذي يهيك هو أرباحك ، ومع ذلك فانك تصير جزءاً من القوة التي
تقود الى مذابح شعب بريء ، وستختفي ارباحك اذا لم يجبر الاطفال الصغار
الصينيون على الكد الشاذ الخطر . انك لا تبالي لأنك لم تر اولئك الاطفال قط ،
والباعث الفكري لا يستطيع ان يحرك منك . هذا هو السبب الرئيسي في ان
الاستثمار الصناعي الواسع هو على ما هو عليه من القسوة ، وان ظلم الاجناس

المغلوبة مستساغ . فتربية تفتج حساسية عن بواعث فكرية من شأنها ان تجعل مثل تلك الاشياء مستحيلة الوقوع .

والحساسية العرفانية التي ينبغي ان يشملها البحث هي تقريباً نفس عادة الملاحظة ، فبحثها مع الذكاء يكون اقرب وأوفق . اما حساسية الجمال فتثير عدة مسائل لا أبغي الخوض فيها في مرحلتنا هذه ، ولذلك سأنتقل الى رابعة الصفات الأربع التي عدتها ، وهي الذكاء .

من اعظم عيوب الأخلاق التقليدية انها لم تقدر الذكاء قدره . ولم يقع اليونان في هذا الخطأ ، لكن الكنيسة حملت الناس على الاعتقاد بأنه لا شيء يهم سوى الفضيلة ، والفضيلة عندها عبارة عن تجنب قائمة خاصة من الأفعال اطلق عليها اعتباراً لفظ (الاثم) . وما دامت هذه النظرية قائمة ، فمن المستحيل حمل الناس على ان يدركوا ان الذكاء أعود بالخير من فضيلة اصطناعية اصطلاحية . واذا ذكرت الذكاء فاني أدخل فيه المعرفة وقابليتها كليهما ، والاثنان بينهما صلة وثيقة في الواقع . ان جهلاء الكبار غير قابلين للتعلم ، فهم مثلاً عاجزون كل المعجز عن تقبل ما يقوله العلم في تدبير الصحة وفي التغذية ، وكلما كانت ما تعلمه المرء اكثر ، كانت الاستزادة من العلم عليه اسهل ، كل ذلك على فرض انه لم يتعلم بالروح التي تحمل على مجرد التصديق . والجهلاء من الناس لم يضطروا قط الى تغيير عاداتهم العقلية ، وقد جمدوا على نظرة ووجهة لا سبيل الى تغييرها . ولا يقتصر الامر على انهم يصدقون حيث ينبغي التشكك ، فذلك ليس شراً من انهم لا يصدقون حيث ينبغي التقبل . ولا شك في ان كلمة (الذكاء) أدل على قابلية تحصيل المعرفة منها على المعرفة التي حصلت بالفعل ، لكنني لا اعتقد ان هذا الاستعداد يكتسب الا بالتمرين ، شأنه في ذلك شأن قابلية ضارب البيانو والبهلوان . ومن الممكن بالطبع اعطاء المعلومات بطرق لا تربى الذكاء ، وهذا ليس ممكناً فقط بل سهل شائع . لكنني لا اعتقد ان من الممكن تربية الذكاء بغير اعطاء معلومات ، او على اي حال بغير تفسير تحصيل المعرفة . وبغير الذكاء لا

يمكن لدنيانا الحديثة المركبة ان تقوم ، ومن باب اولي ان تتقدم ، لذلك اعتبر تنمية الذكاء من اعظم اغراض التربية . وقد يبدو هذا كلاماً عادياً لكنه في الواقع غير ذلك ، فالرغبة في تلقين التلاميذ ما هو معتبر عقائد صحيحة قد جعلت المربين يسرفون في عدم الاهتمام بتربية الذكاء . ولتوضيح ذلك يلزم ان نعرف الذكاء تعريفاً أدق حتى نكشف عن العادات العقلية اللازمة له . ولهذا الغرض سأنظر فقط في قابلية تحصيل المعرفة دون المعرفة المحصلة فعلاً التي يصح ان تدمج بحق في تعريف الذكاء .

ان من اهم الأسس الغريزية للحياة العقلية هو الاستطلاع الذي يوجد في صورته البدائية بين الحيوانات . ويتطلب الذكاء حباً للاستطلاع متحفزاً لكنه يجب ان يكون من نوع معين . فالنوع الذي يحمل القرويين المتجاورين على محاولة النظر من خلال الستائر بعد ان يخيم الظلام ليس له قيمة يقيد بها ، وانتشار الغيبة ليس مبعثه حب المعرفة ولكن حب الأذى ، فانا لا نجد احداً يغتاب الناس بذكر فضائلهم الخفية ولكن بذكر رذائلهم المستترة ، ولذا كان معظم الغيبة باطلاً ، لكن الناس يحرصون على عدم الاستيثاق من صحته . أما الاستطلاع الذي يصدق عليه اسمه فمبعثه حب حقيقي للمعرفة ، وتستطيع ان ترى هذا الباعث في صورة شبه نقية في القطعة يؤتى بها الى غرفة غريبة فتأخذ في تشم كل ركن وكل قطعة من الاثاث ، وستراه أيضاً في الأطفال حين يفتح لهم درج أو ركن اعتادوا رؤيته مغلقاً فيهتمون بما فيه مستغرقين . والحيوانات والآلات وعواصف الرعد وكل انواع العمل اليدوي تشير الاستطلاع في الأطفال ، فان تعطشهم للمعرفة يوازي نظيره عند أذكى الكبار ، هذا الباعث يضمحل بتقدم العمر ، حتى نصل في نهاية الامر الى ألا يثير فينا غير المؤلف الا الاشمزاز بغير أدنى رغبة في التعرف به عن قرب . وهذه هي المرحلة التي فيها يتساءل الناس (أن شؤون المملكة سائرة الى الدمار) وان (الأمور ليست كما كانت في صباي) ، مع ان الأمر الذي ليس كما كان في ذلك العهد البعيد هو الاستطلاع والتشوف عند

المتكلم . وعندما يموت حب الاطلاع نستطيع ان نعد الذكاء الفعال قد مات أيضاً .

الا ان الاستطلاع وان تناقص بعد الطفولة في شدته وفي مداه قد يتحسن نوعه زمنياً طويلاً ، فالاستطلاع المتعلق بالقضايا العامة يكشف عن مستوى الذكاء أرفع مما يكشف عنه الاستطلاع المتعلق بالوقائع المعينة . وبوجه عام كلما ارتفعت رتبة التعميم ازداد مقدار الذكاء الذي تستلزمه ، (على ان هذه القاعدة لا يصح ان يتشدد فيها) ويدل الاستطلاع حين يتجرد من المنافع الشخصية على ترقى اكبر مما يدل عليه اذا اتصل بفرصة حصول على طعام مثلاً . فالقطة التي تتشم في غرفة جديدة ليست كباحث علمي خال تماماً من الغرض ، لكنها على الراجح تريد لتعرف ما اذا كان في المكان فيران . ولعله ليس من تمام الصواب أن يقال ان الاستطلاع يكون على أحسنه عندما يخلو من الهوى ، بل الأقرب ان يكون على أحسنه عندما تكون علاقته بالأهواء الأخرى غير واضحة ولا مباشرة ، وانما تحتاج للكشف عنها الى درجة معينة من الذكاء . على انه ليس من الضروري ان نصل في هذه النقطة الى قرار .

واذا اريد ان يكون الاستطلاع مثمرأ فلا بد من ان يقترن بأسلوب فني ما لتحصيل المعرفة ، لا بد مثلاً من عادات للملاحظة ، ومن اعتقاد في امكان المعرفة ومن صبر وجد . وتنمو هذه الأشياء من تلقاء نفسها متى وجد اصل من حب الاطلاع ووجدت التربية العقلية المناسبة ، لكن من حيث ان حياتنا الفكرية ليست الا جزءاً من نشاطنا وان حب الاطلاع يتصادم على الدوام بأهوائنا الشديدة الأخرى فنحن في حاجة الى فضائل فكرية معينة كانفتاح الذهن . ان العادة والشهوة كليهما تحولان دون تقبلنا للحقائق الجديدة ، فنجد من الصعب ان ننبد ما ظللنا نؤمن به عدة سنوات وما يعد لنا في احترام الذات أو غيره من الأهواء الشديدة الأساسية . فانفتاح الذهن من الصفات التي ينبغي ان ترمي التربية الى ايجادها ولا يتحقق هذا في الوقت الحاضر الا الى مدى محدود جداً .

ان الشجاعة ضرورية للنزاهة كما هي ضرورية للبطولة البدنية . ان الدنيا الحقيقية أغمض مما نحب ان نقر به ، ومن اول يوم في الحياة نقوم باستقرارات غير موثوق بها ، ونخلط بين عاداتنا العقلية وقوانين فطرة الاشياء وهناك حشد من النظم العقلية كالملسيحية ، الاشتراكية والوطنية مستعدة استعداد ملاجئ الأيتام لأن تهينا الأمن في نظير استرقاقنا . فالحياة العقلية الحرة لا يمكن ان ينعم الانسان في كنفها بالراحة والرضا والأنس كما ينعم بحياة هي في كنف مذهب يعتقد . فالعقيدة وحدها تستطيع ان تهينا شعور الجالس حول المدفأ الوثير وعواصف الشتاء نائرة مضطربة خارج البيت .

وهذا يجرنا الى مسألة على شيء من الصعوبة وهي : الى اي حد يجب ان تتحرر الحياة الطيبة من القطيع ... ؟

اني اتردد في استعمال عبارة (غريزة القطيع) لأن هناك جدليات قائمة حول صحتها ، لكن مهما كان تفسيرها فالظواهر التي تعبر عنها مألوفة . اننا نحب ان نكون على وفاق مع اولئك الذين نشعر انهم يكونون الجماعة التي نبتغي التعاون معها - اسرتنا ، أو جيراننا ، أو زملائنا ، أو حزبنا السياسي ، أو أمتنا - وهذا طبيعي لاننا لا نستطيع ان نظفر بشيء من مسرات الحياة بغير التعاون . وفضلاً عن ذلك فالعواطف معدية لا سيما حين يشعر بها كثير من الناس معاً ، فقليل جداً من الناس يستطيعون حضور اجتماع هائج من غير ان يشعروا بشيء من التهيج ، واذا كانوا معارضين فان معارضتهم تثور . ومعظم الناس لا تثور فيهم تلك المعارضة الا اذا استمدوا عوناً من شعورهم بأن هناك جمعاً آخر سيظفرون منه بالتأييد والاستحسان . وهذا هو السبب في ان الصلة بالتدسين قد امدت المضطهدين بما امدتهم به من طمأنينة وسكينة . فهل نجاري هذه الرغبة في التعاون مع جمع ، او نتطلب من التربية ان تحاول اضعافها ؟ هناك حجج لكل من الجانبين ، والجواب الصحيح يجب ان يكون في ايجاد نسبة بين الاثنين عادلة ، لا في الانحياز بكليتنا الى احد الجانبين .

اني ارى من خلال نفسي ان رغبة الانسان في ان يرضى ويتعاون ينبغي ان تكون قوية وطبيعية ، لكن يجب ان يكون في الامكان تغليب رغبات اخرى عليها في مناسبات معينة مهمة . وقد سبق لنا ان نظرنا في استحباب رغبة ارضاء الغير عندما كنا نتكلم عن الحساسية ، فبدونها نصير أفظاظاً اجلاً ، وتصبح كل الجماعات المدنية في الاسرة فصاعداً مستحيلة . وتربية الاطفال الصغار تصعب جداً اذا لم ينفشوا حسن رأي والديهم فيهم . وعدوى العواطف ايضاً لها منافعها عندما تكون العدوى من أحكم اثنين الى اجهلها ، لكن في حالات زعر الجمع او غضبه تكون العدوى بطبيعة الحال ضارة كل الضرر . فمسألة قابلية التأثر بالانفعالات العاطفية ليست بحال من المسائل السهلة ، ووجه الحكم فيها غامض حتى في الشؤون الفكرية البحتة . وقد اضطر المستكشفون العظماء الى مقاومة القطيع والاستهداف لعدائه باستقلالهم ، لكن آراء الرجل العادي أقل حقاً بكثير مما تكون عليه لو انه استقل بالتفكير لنفسه ، وفي العلم على الاقل نجد ان احترامه للعلماء الثقات مفيد في الجملة .

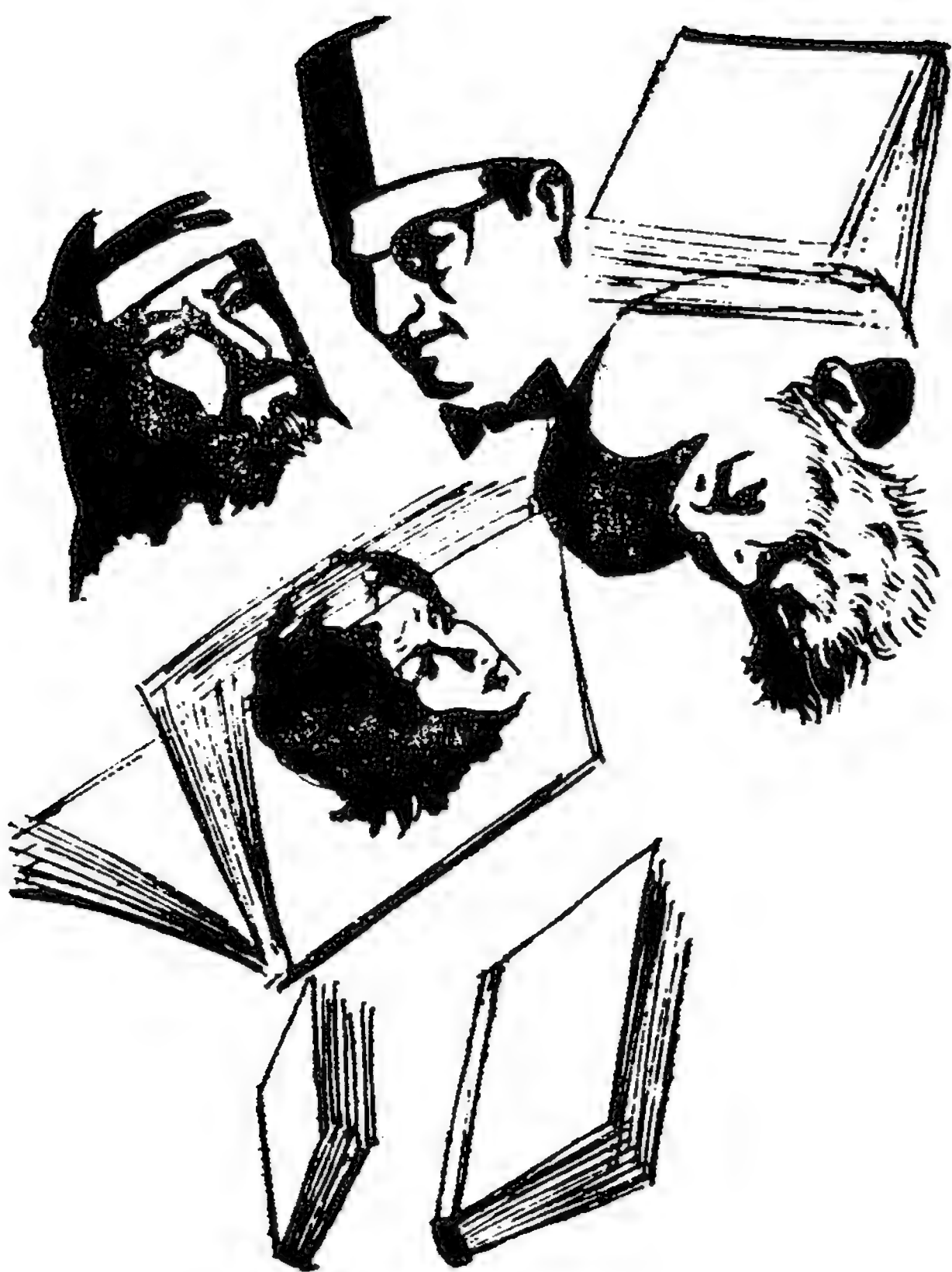
ورأيي الشخصي ان الرجل الذي ليس في ظروفه شذوذ خاص ينبغي ان تكون في حياته دائرة كبيرة يغلب عليها ما يطلق عليه الاسم المبهم (غريزة القطيع) ، ودائرة صغيرة لا تنفذ اليها تلك الغريزة . هذه الدائرة الصغيرة ينبغي ان تحوي منطقة ما تخصص فيه . فنحن نسيء الظن بالرجل الذي لا يستطيع ان يعجب بامرأة الا اذا أعجب بها كذلك كل من عداه ، ونرى انه عند اختيار الزوجة ينبغي ألا يهتدي الرجل الا بمشاعره الخاصة المستقلة ، لا بمشاعر الجماعة التي يعيش فيها يعكسها كالمراة . انه لا يهم ان تكون احكامه على الناس بوجه عام متفتة مع احكام جيرانه ، لكن عندما يقع في الحب ينبغي ان يهتدي بمشاعره هو الخاصة المستقلة . ومثل هذا ينطبق في النواحي الاخرى ، فالفلاح يجب ان يعمل بحكمه الشخصي على ما تصلح له الحقول التي يزرعها بنفسه ، وان كان ينبغي ان يكون حكمه بعد ان يلم بقدر صالح من الزراعة العلمية ،

والاقتصادي ينبغي ان يستقل في حكمه على مسائل العملة ، لكن خير الرجل العادي ان يتبع آراء الثقات . فحيثما توجد المقدرة الخاصة ينبغي ان يوجد استقلال الرأي ، لكن لا ينبغي للرجل ان يجعل من نفسه قنفاً كله شك يباعد بينه وبين الناس . ان معظم نشاطنا العادي يجب ان يكون تعاونياً ، والتعاون يجب ان يكون على اساس غريزي ، ومع ذلك ينبغي ان نتعلم كلنا كيف نفكر بأنفسنا في الشؤون التي نخطط بها علماً ، وينبغي ان نكون كلنا قد اكتسبنا الشجاعة التي تحملنا على الجهر بآرائنا المخالفة للجماعة عندما نعتقد انها آراء مهمة . وتطبيق هذه المبادئ العامة في حالات خاصة قد يكون بطبيعة الحال صعباً ، لكنه سيكون اقل صعوبة مما هو عليه الان في دنيا تشيع بين رجالها الفضائل التي كنا ننظر فيها في هذا الفصل . فالقديس المضطهد مثلاً لن يكون له وجود في دنيا كهذه ، والرجل الطيب لن يجد داعياً الى ان ينفس شوكه ويصير مرهف الاحساس بنفسه ، فطيبتته ستكون ناتجة عن اتباعه بواعثه هو ، وستقترن فيه بسمادة غريزية ، فجيرانه لن يكرهوه لأنهم لن يخافوه . ان كراهية الناس للرواد العقلين راجعة الى ما يلقون في الناس من فزع ، وهذا الفزع لن يكون له وجود بين اناس اكتسبوا صفة الشجاعة . فالرجل الذي يتسلط عليه الخوف هو وحده الذي ينضم الى جماعة كالفاشيست ، وفي دنيا الشجعان لا يمكن ان تقوم هيئات الاضطهاد هذه وتكون الحياة الطيبة فيها اقل مقاومة للغريزة مما هي عليه الان . ان الدنيا الصالحة لا يمكن ان تخلق ولا ان تربو الا على أيدي من لا يهابون ، لكنهم كلما ازدادوا نجاحاً في مهمتهم قلت الظروف التي تستدعي منهم استخدام شجاعتهم .

وان في المجتمع الذي يتألف من رجال ونساء فيهم حيوية وشجاعة وحساسية وذكاء على ارفع ما تستطيع التربية ان تنتجه يكون مختلفاً جداً الاختلاف عن كل ما وجد الى الآن . فيه يقل التعساء ، لان اسباب التعاسة الرئيسية في الحاضر هي : سوء الصحة والفقر وحياة جنسية غير مرضية ، وكل هذه ستصير نادرة

جداً في هذا المجتمع . فيه يمكن ان تصبح الصحة الجيدة شاملة ، بل ان الشيخوخة يكون في الامكان تأجيلها . ان الفقر منذ قامت الثورة الصناعية راجع الى غباوة الجماعة ، فستحمل الحساسية الناس على الرغبة في محوه ، وسيدلهم الذكاء على الطريق ، وستدفعهم الشجاعة الى سلوكه ، (ان الشخص الهيب يفضل ان يظل يائساً على ان يخرج على المألوف في شيء) . والحياة الجنسية لمعظم الناس في الوقت الحاضر غير مرضية على العموم ، وهذا يرجع من جهة الى سوء التربية ، ومن جهة اخرى الى اضطهاد ذوي السلطة . فلو ربي جيل من النساء بغير مخاوف جنسية غير معقولة فانهن سرعان ما يضعن حداً لهذا . كان يظن ان الخوف هو الطريق الوحيد لحمل النساء على الفضيحة ، فعلمن الجبن عن عمد من حيث الحس والعقل كليهما . ان النساء اللاتي لم ينم الحب فيهن يبدثن الوحشية والرياء في ازواجهن ويشوهن غرائز اطفالهن . فجيل واحد من نساء لا أثر للخوف فيهن يستطيع ان يغير الدنيا ، بأن يأتي فيها بجيل من الاطفال لا أثر للخوف فيهم ، ولم يلووا الى اشكال غير طبيعية ، بل يكونون ذوي استقامة وصراحة ، وكرم وود وحرية ، حماسهم تكتسح القسوة والالم اللذين نزرع تحتها لما فينا من كسل وجبن وغلظة وغباوة . ان التربية هي التي تمنحنا هذه الصفات الرديئة ، والتربية يجب ان تمنحنا اضدادها ، ان التربية هي مفتاح الدنيا الجديدة .

وها هو الوقت قد حان لأن ندع العموميات ونأتي الى التفاصيل المحسوسة التي يجب ان تتمثل فيها مرامينا العليا .



تَرْبِيَةُ الْخُلُقِ

السنة الأولى

كان الأقدمون يعتبرون السنة الأولى من الحياة خارج نطاق التربية . فكان الرضيع يترك الى ان يتكلم ، لعناية الامهات والمربيات بغير رقابة عليهن ، اذ كان المفروض فيهن انهن يعرفن بغيريزتهن ما يصلح له . والواقع انهن لم يكن يعرفن ما يصلح ، ففي السنة الأولى كان يموت من الاطفال نسبة كبيرة وتسوء صحة كثير من الباقين ، وفيها كن يصفن اساس الوبيل من عادات العقل عند الطفل بسوء تناولهن له . وهذا كله لم يدرك الا حديثاً . ان تدخل العلم في محضن الطفل يتلقاه الناس غالباً بالنفور لانه يقلق من العاطفة السائدة بين الام وطفلها . لكن الحب وغلبة العاطفة لا يمكن ان يوجد معاً ، فالوالد او الوالدة التي تحب طفلها ترغب ان يعيش ولو استدعى الامر استخدام الذكاء ومخالفة العاطفة ، لذلك نجد غلبة العاطفة اقوى ما يكون بين الناس الذين لا اطفال لهم ، وبين الذين يميلون مثل روسو الى ايداع اطفالهم ملاجئ اللقطاء . ومعظم الوالدات المتربيات متشوقات الى معرفة ما يصح به العلم اما غير المتربيات منهن فيتعلمن من مراكز رعاية الطفل . ونتيجة ذلك تتجلى في النقص البيّن في نسبة وفيات الاطفال

الرضع . ان هناك ما يحمل على الظن انه بالعناية والمهارة الكافيتين يقل جداً عدد الاطفال الذين يموتون في الرضاع ، ولا يقتصر الأمر على قلة من يموت ، بل الناجون يكونون اصح عقولاً وابداناً .

هذا وان المسائل الخاصة بالصحة البدنية خارجة عند التدقيق عن نطاق هذا الكتاب ، ويجب تركها للذين يمارسون الطب ، لذلك لن امسها الا حيثما تكون لها اهمية نفسانية . لكن التفريق بين البدني والعقلي في السنة الاولى من الحياة يتعذر ، وفضلاً عن ذلك فالمربي قد يجد نفسه فيما بعد مغلول اليد بسبب اخطاء فسيولوجية بحثة في تناول الرضيع ، لا نستطيع ان نتجنب كل الاجتناب التعرض لامور ليست في الحق من شأننا .

ومن المعلوم ان ليس للطفل الحديث الولادة عادات ولكن له انعكاسات وغرائز . فمهما يتعود في الرحم من عادة فانها لا تنفعه في وضعه الجديد بعد الولادة . حتى التنفس يحتاج احياناً الى تعليمه المولود ، وبعض الاطفال يموتون لانهم لا يتعلمونه بسرعة كافية . وهناك غريزة حسنة النمو فيه هي غريزة الرضاعة ، فالطفل حين يرضع يشعر في بيئته الجديدة انه حيث يألف . اما بقية اوقات استيقاظه فيقطعها في دهشة لا ينفسها عنه الا نومه معظم الأربع والعشرين ساعة . وفي نهاية اسبوعين يتغير كل هذا ، اذ يكون الطفل صار له توقعات يتوقعها اكتسبها من التجارب التي تكررت عليه بانتظام اثناء الاسبوعين . انه يصير بالفعل محافظاً ، بل لعله في محافظته اعظم واتم منه في اي وقت بعد ، فهو ينفر من كل تغيير فيما ألف ، ولو استطاع الكلام لقال : (هل تحسبون انني سأغير عادات عمر كامل في هذا الوقت من عمري ؟) والسرعة التي يكتسب بها الرضيع عاداته مدهشة حقاً ، وكل عادة يكسبها تكون عادة في سبيل اكتسابه بعد ذلك عادات خير منها . وتلك هي العلة في ان التكوين الاول للعادات في بواكير عهد الرضاعة له اهمية ، فاذا احسنت العادات الاولى كفتنا في المستقبل تعباً لا آخر له . وفضلاً عن هذا فالعادات المكتسبة في بواكير العمر

تكون فيما بعد كالفرائض تماماً ، لها مثل ما لها من السلطان ، ولا يمكن ان يبلغ قوتها ما يكتسب بعد من عادات جديدة تضادها . لهذا السبب ايضاً ينبغي ان تكون العادات الاولى موضوع الاهتمام الخطير منا .

وحين ننظر في تكوين العادات في عهد الرضاع سنلاقي اعتبارين خطيرين : الاول والأهم هو الصحة ، والثاني هو الخلق . اننا نبتغي في الطفل ان يصير انساناً يحبه الناس ، قادراً على مجاراة الحياة بنجاح . ومن حسن الحظ ان الصحة والخلق يشيران الى نفس الاتجاه ، يصلح لاحدهما ما يصلح للآخر . والخلق هو الذي يعنينا في هذا الكتاب ، لكن الصحة تحتاج الى ممارسة نفس ما يحتاج الخلق الى ممارسته فلننا اذاً في الموقف الصعب الذي يكون علينا ان نختار فيه بين الفاجر السليم او الصالح السقيم .

وقد اصبحت كل ام متربية في ايماننا هذه تعرف الحقائق البسيطة مثل اهمية التزام تغذية الرضيع على فترات منظمة ، لا كلما ضج بالبكاء . ومنشأ هذا الالتزام انه انفع للهضم عند الطفل ، وهو سبب كاف تماماً ، لكنه ايضاً مستحب من ناحية التربية الخلقية . ان الرضع امكر كثيراً مما يظن الكبار ، فاذا وجدوا ان البكاء يأتي بنتائج تريخهم فسيبكون ، واذا حدث في المستقبل ان تعودوا التشكي وجلب ذلك عليهم الكراهية بدلاً من التدليل شعروا بالدهشة والسخط وبدأت الدنيا لهم معرضة جافية . اما اذا شب الأنث منهم نساء فانتات فانهن يظلمن ينعمن بالتدليل اذا تبرمن ، وعندئذ يزداد ترتيبهن السيء الذي بدأ في الطفولة سوءاً على سوء ، ويصدق ذلك ايضاً على الاغنياء من الرجال . فلئن لم تتبع الطرق الصواب في عهد الرضاع فسيكون الناس في حياتهم بعد اما متبرمين واما جائرين ، تبعاً لما يكون لهم من قوة . فاللحظة الصائبة للبدء بالتربية الخلقية اللازمة هي لحظة الولادة ، اذ عندئذ يمكن ان تبدأ من غير توقعات قد يكون نصيبها الخيبة . اما اذا بدأت بعد ذلك فستضطر الى مجاهدة ما تكون من عادات مضادة ، وستلقى ممن يراد تربيته غيظاً ونفوراً . فنحن اذا نحتاج في معاملة الطفل الرضيع الى ان

نصيب القصد ونقيم الوزن بين الامل والتدليل . كل ما هو ضروري للصحة يجب ان يعمل ، فاذا تألم الطفل من المص وجب ان يحمل ، كما يجب ان يبقى جافاً دافئاً . اما اذا لجأ الى العويل لغير سبب محسوس لنتركه لعويله ، والا فسيتحول بسرعة الى حاكم بأمره . وينبغي عندما نغنى به ألا نبدي اهتماماً زائداً ، بل نعمل كل ما هو ضروري من غير افراط في التعبير عن عطفنا . ويجب ألا يعتبر الطفل في أية فترة من حياته ألعوبة مسلية نهتم بها اكثر قليلاً من اهتمامنا بكلب نربيهِ ، بل يجب ان ننظر اليه من اول الامر نظرة جد ملحوظاً فيها انه سيكون كبيراً غداً . والعادات التي تكون غير محتملة في الكبير قد تكون مستلطفة في الطفل . طبعاً لا يمكن للطفل ان يكون له عادات الكبير ، لكن ينبغي ان نتجنب كل ما يضع العراقيل في سبيل اكتساب تلك العادات ، كما ينبغي ان نتجنب قبل كل شيء اشعار الطفل بأهمية له ذاتية ستنقضها وتؤله بنقضها تجاربه المستقبلية ، ثم هي على اي حال ليست متفقة مع الواقع .

ويرجع أغلب الصعوبة في تربية الرضع الى الاتزان الدقيق المطلوب في الوالدة او الوالد . المراقبة الدائمة والجهد الكثير لازمان لتجنب الاضرار بالصحة ، وهما لا يكاد يتوفر منها القدر الضروري الا حيث يوجد الحنان الوالدي القوي ، لكن هذا حين يتوفر يغلب جداً ان يكون غير حكيم ، فالطفل عظيم الأهمية كبيرها عند الوالد المولع به او الوالدة ، ولئن لم يحترس فسيشعر الطفل بذلك ويحكم لنفسه بأهمية تكافى ما يشعر به والداه . ولن ننظر اليه بيئته الاجتماعية في حياته المستقبلية بمثل ذلك الشغف ، وعندئذ يعاني خيبة أمل مصدرها ما غرس فيه من عادات تفترض انه مركز الكون عند غيره من الناس . لذلك كان من الضروري ، لا في السنة الاولى وحدها ولكن فيما بعدها ايضاً ، ان يظهر الوالدان شيئاً من البشر وعدم الاكتراث تلقاء ما قد يشعر به الطفل من آلام . وقد كان الاطفال الرضع في العصور الماضية يضيق عليهم ويدلون في وقت واحد . كانت اطرافهم غير طليقة ، وملابسهم أدفاً من اللازم ، ونشاطهم الذاتي

مقيداً محدوداً ، لكنهم كانوا يلاطفون ويعززون ويغنى لهم ويؤرجحون . وقد كان هذا خطأ بالغاً ، اذ كان يحوّلهم الى طفيليات عاجزة تطعم ما تشتهي .

ان القاعدة الصحيحة هي : شجع انواع النشاط الذاتي في الطفل لكن ثبط مطالبه من الغير . وحذار ان يبصر الطفل كم تعمل من اجله وكم من العناء تتحمل . دعه كلما أمكن يتذوق فرح النجاح يحزره بجهوده الشخصية ، لا النجاح يفتصبه بالتحكم في الكبار . ان الغاية التي نتوخاها في التربية الحديثة ان ينجزل التأديب الخارجي الى حده الأدنى ، لكن ذلك يتطلب تأديباً نفسياً ذاتياً ، وهذا أسهل وأيسر تحقيقاً في السنة الاولى من حياة الطفل فلا تدفع به العربة ذاهباً آيماً ، ولا تحمله بين ذراعيك ، بل ولا تكن حيث يستطيع ان يراك . انك اذا فعلت ذلك مرة فسيتطلب الطفل منك ان تفعله اخرى . وفي وقت أقصر من ان يصدق يصبح تنويم الطفل من أشق الاعمال وأعسرها . وفر له الدفء والجفاف والراحة وضعه في فراشه بحزم ، وبعد ملاحظات قليلة توجهها اليه بهدوء كله لنفسه . وقد يصبح با كياً دقائق قليلة ، لكنه ان لم يكن مريضاً سيسكت سريعاً ، واذا ذهبت عندئذ لتنظره فستجده مستغرقاً في نومه . وسينام الطفل بهذه الطريقة اكثر وأطول مما اذا دلتته وأعطيته ما يشتهي .

وكما لاحظنا من قبل ليس للرضيع الحديث الولادة عادات بل فيه انعكاسيات وغرائز ، ومن ثم يفتسج أن دنياه ليست مكونة من (أشياء) فالتأثرات المتكررة ضرورية للتعرف ، والتعرف ضروري قبل ان ينشأ عنده تصور (شيء) . فملمس المهد وملمس الثدي ورائحته ، وصوت الام او المربية ، كل ذلك سرعان ما يصبح مألوفاً له . أما منظر الام او المهد فيأتي بعد ذلك قليلاً لأن الطفل الحديث الولادة لا يعرف كيف يضبط بصره ليرى الاشكال بوضوح . انما يحدث تدريجياً بتكون العادات عن طريق الاقتران ان يتجمع اللمس والبصر والشم والسمع وتتحد جميعاً لتؤلف الفكرة العادية عن (شيء ما) بحيث اذا بدا منه مظهر ادى الى توقع مظهر آخر . وحتى في هذه المرحلة يظل الطفل حيناً لا يكاد

يشعر بالفرق بين الاشخاص والاشياء . فالطفل الذي يرضع من الزجاجه أحياناً ومن امه أحياناً يشعر الى حين شعوراً متشابهاً نحو الام ونحو الزجاجه . وفي خلال هذه الفترة كلها لا بد ان تكون التربية بوسائل حسية بحتة ، فمسراتها حسية واهمها الطعام والدفع ، وآلامها حسية كذلك . وهادات السلوك تنشأ عن تطلب ما هو مقترن بالسرور وتجنب ما هو مقترن بالالم . وبكاء الطفل بعضه انعكاسي متصل بالالم وبعضه سعي وراء المسرة ، وهو بالطبع انعكاسي صرف في بادىء الامر . لكن لما كان من الواجب كلما امكن ازالة ما قد يشعر به الطفل من الم حقيقي فلا مناص من ان يقترن البكاء عند الطفل بعواقب سارة ، ولذلك سرعان ما يأخذ الطفل في البكاء بسبب رغبته في مسرة لا بسبب شعوره بالالم حسي ، وهذا احد انتصاراته الاولى بذكائه . لكن الطفل مهما حاول لا يمكن ان يصرخ عندئذ نفس الصرخة التي تنبعث عن الم حقيقي . والفرق تعرفه اذن الام المرحفة . واذا كانت فانها تتجاهل الصرخة التي لا تعبر عن الم حسي . اذ من السهل المستلطف ان نسلي الرضيع بالهز او بالفناء لكنه يتعلم بسرعة مدهشة ان يطالب بقدر اكثر فأكثر من مثل تلك المسليات ، وهذا يؤثر بسرعة على النوم الضروري له ، والنوم يجب ان يستغرق يومه كله فيما عدا اوقات الطعام . وقد تبدو بعض هذه النصائح قاسية لكن الخبرة دلت على انها تؤدي الى صحة الطفل وسعادته .

لكن ان كانت المسليات التي يقدمها الكبار للرضيع ينبغي ان تظل في حدود معينة فالمسليات التي يستطيع هو الاستمتاع بها بنفسه ينبغي ان تشجع الى اقصى حد . ينبغي من البداية ان يكون لدى الرضيع فرص للرفض ولتمرين عضلاته . ولا يكاد الانسان يتصور كيف ظل أجدادنا ذلك الأمد الطويل على عادة لف الطفل ! فهي تدل على ان الحنان الوالدي نفسه يصعب عليه مقاومة الكسل ، لان الطفل المطلق الاطراف يحتاج الى عناية اكثر ، وبمجرد استطاعة الطفل ان يضبط بصره يجد لذة في مراقبة الاشياء المتحركة لا سيما ما كان منها يتموج في

الريح . لكن عدد المسليات الممكنة يظل قليلاً الى ان يتعلم الطفل كيف يقبض على الاشياء التي يراها ، فعندما يتدفق عليه السرور ، ويظل مدة يكون فيها تمرنه على القبض كافياً لادخال السعادة عليه خلال كثير من ساعات يقظته ، والسرور بالجلال يأتي أيضاً في هذه المرحلة . وقبل ذلك يتسلط الرضيع على اصابع يديه ورجليه ، وتكون حركة اصابع الرجلين في اول الامر انعكاسية صرفة ، ثم يكتشف الرضيع ان من الممكن تحريكها حين يريد ، وهذا يفيض عليه من السرور كل ما يشعر به المستعمر حين يخضع قطراً اجنبياً ، وهناك تندمج اصابع الرجل في الذات بعد ان كانت اجنبية عنها . وعندئذ ينبغي ان يستطيع الطفل ان يجد لنفسه تسليات كثيرة اذا كان في متناوله اشياء ملائمة . وأغلب مسليات الطفل هي بالضبط ما تحتاجه تربيته ، بشرط ان يحال بطبيعة الحال بينه وبين السقوط او بلع الدبابيس او الاضرار بنفسه بطريقة ما .

ففي الثلاثة اشهر الاولى من حياة الرضيع تكون في الجملة مقفرة بالنسبة له الا في اللحظات التي يستمتع بها بالرضاعة . انه اذا كان مرتاحاً ينام ، واذا كان مستيقظاً يكون هناك في العادة شيء يقلقه . ان سعادة الآدمي تتوقف على قدراته العقلية ، لكن هذه لا تخرج لها عند الرضيع الذي دون ثلاثة اشهر ، اذ تعوزه الخبرة والسيطرة العضلية ، والحيوانات الصغار تستمتع بالحياة قبل ذلك بكثير لانها اكثر اعتماداً على الغريزة وأقل اعتماداً على الخبرة . لكن الاشياء التي يستطيعها الرضيع بالغريزة هي من القلة بحيث لا تمد بأكثر من الحد الأدنى من المسرة والاقبال . لذلك تشمل الثلاثة اشهر الاولى كثيراً من الملل والسأم في الجملة ، لكن الملل ضروري لينال الطفل حظاً وافياً من النوم ، فاذا أسرفنا في تسليته فانه لن ينام ما يكفيه .

وخلال فترة الشهرين والثلاثة من العمر يتعلم الطفل ان يبتسم وان يحس نحو الاشخاص غير ما يحس نحو الاشياء ، وفي هذا السن يصبح في الامكان قيام علاقة بين الطفل وأمه ، ففيها يستطيع بل ويبدي بالفعل سروراً عند رؤية

أمه ، ويستجيب استجابات ليست حيوانية صرفة . وسرعان ما تنمو عنده الرغبة في المدح والاستحسان . وقد ظهرت هذه عند ابني لأول مرة بصفة قاطعة في سن خمسة أشهر حين نجح بعد عدة محاولات في ان رفع من على المنضدة جرساً فيه بعض الثقل ، وجعل يدقه وهو يحيل النظر فيمن حوله وعليه ابتسامة الزهو . ومن هذه اللحظة يكسب المربي سلاحاً جديداً هو المدح واللوم . هذا السلاح له قوة خارقة خلال الطفولة كلها لكنه يجب ان يستخدم في حفز الطفل أكثر من اللازم . وليس هناك والد محتمل يستطيع ان يمتنع عن مدح طفله حين يمشي لأول مرة او حين يقول لأول مرة كلمة مفهومة . وعلى العموم فكما تغلب الطفل على صعوبة بعد جهود متصلة كان المدح مكافأة في محلها ، ومن الخير علاوة على ذلك أن تشعر الطفل بأنك تعطف على رغبته في التعلم .

الا ان رغبة الرضيع في التعلم تكون في الجملة من القوة بحيث لا يحتاج الآباء الا الى تهيئة الفرصة . أعط الطفل فرصة لينمو وستقوم جهوده الشخصية بالباقي . وليس من الضروري تعليم الطفل الحبو او المشي او اي عنصر آخر من عناصر التسلط العضلي اننا بالطبع نعلم الطفل الكلام بالتكلم اليه ، لكنني اشك فيما اذا كانت هناك فائدة من تعمد تعليمه الكلمات ، فالأطفال يتعلمون بالسرعة التي تناسبهم ، ومن الخطأ أن نحاول استعجالهم . وأعظم حافز لبذل الجهد طول الحياة هو تذوق النجاح بعد ملاقات الصعوبات الأولى . ويجب ألا تكون الصعوبات من العظم بحيث تؤدي الى القعود ، ولا من الصغر بحيث لا تحفز الى بذل الجهد . هذه قاعدة اساسية من المهد الى اللحد اننا نتعلم عن طريق ما نعمله بأنفسنا ، وعلى الكبار ان يقوموا أمام الطفل بفعل بسيط يود هو لو عمله كتحرريك جلجلة مثلاً ، ثم ليتركوه بعد ذلك ليستكشف كيف يفعله . ان ما يفعله غيره ليس الا حافزاً لطموحه ولا يمكن ان يكون في ذاته تربية له .

والانتظام والروتين أهميتها بالغة في بواكير الطفولة ولا سيما في السنة الأولى . ففما يتعلق بالنوم والأكل والتبرز ينبغي من البدء تكوين عادات منتظمة ، وفوق

هذا فمن المهم جداً من الناحية العقلية أن يألف الطفل ما يحيط به ، فذلك يعلم التعرف ويجنب التوتر ، ويوجه شعوراً بالأمن وطمأنينة . وقد كنت أرى في بعض الأحيان أن الاعتقاد في أطراد الفطرة الذي يقولون أنه من مسلمات العلم منشأه كله الرغبة في السلامة والأمن . أننا نستطيع أن نقاوم لما هو منتظر ، أما أن تغيرت قوانين الفطرة فجأة فأننا نهلك . والرضيع لضعفه يحتاج إلى ما يطمئنه ، ويكون أسعد إذا كان كل ما يحدث حوله يبدو كأنه يحدث طبقاً لقوانين ثابتة حتى يمكن التنبؤ به . ويظهر حب المغامرة في أواخر الطفولة . أما في السنة الأولى من الحياة فكل شيء غير عادي من شأنه أن يزعج . لا تدع الطفل يشعر بخوف ما وجدت إلى ذلك سبيلاً ، وإذا كان مريضاً وقلقت عليه فاحفظ قلقك بحذر وعناية ، لئلا يتسرب منك إليه بالإحباء . تجنب كل ما يمكن أن يهيج . ولا تذك أهمية الطفل عند نفسه بأن تدعه يلحظ عليك اهتماماً إذا لم ينم أو يأكل كما ينبغي أو لم يتبرز . وهذا ينطبق لا على السنة الأولى وحدها ولكن على السنوات التالية من باب أولى . لا تدع الطفل أبداً يظن أن عملاً طبيعياً ضرورياً كالأكل الذي ينبغي أن يكون لذة ومتعة هو أمر ترغب فيه أنت ، وإنك تريد منه أن يعمل ليسرك فإن فعلت فسرعان ما يحس الطفل أنه حصل على مصدر قوة له جديد ، وينتظر أن يستدرجه الناس إلى أعمال كان يجب أن يقوم بها من تلقاء نفسه . ولا تتوهم أن الطفل يعوزه الذكاء اللازم لسلوك هذا المسلك . أن قواه صغيرة ومعارفه محدودة لكن لديه من الذكاء قدر ما لدى الشخص الكبير بالضبط في المواطن التي لا يؤثر فيها صغر قوته أو قلة معرفته . أنه يتعلم في الاثني عشر شهراً الأولى أكثر ما سيتعلمه قط في مثلها من حياته ، وهذا يستحيل عليه أن لم يكن لديه ذكاء نشيط فعال .

وعلى العموم : عامل حق اصغر الاطفال باحترام كشخص سيتبوأ مكانه في الدنيا . لا تضح مستقبه في سبيل راحتك الحاضرة ، أو في سبيل سرورك بالحفاوة به ، فانهما في الضرر سواء . انه لا بد هنا مما لا بد منه بعد من الجمع بين الحب والمعرفة إذا كنا سنتبع الطريق الصواب .

النفوف

سأناول في الفصول التالية نواحي مختلفة من التربية الخلقية ، لا سيما في السنوات من الثانية الى السادسة . ان الطفل ينبغي ألا يبلغ السادسة حتى تكون تربيته الخلقية قد تمت تقريباً ، بمعنى أن الفضائل التي سيحتاجها في السنوات التالية ينبغي ان يكونها الولد او البنت من تلقاء نفسه كنتيجة للعادات الصالحة التي وجدت والمطامح التي استثيرت في نفسه بالفعل . اما اذا أهملت التربية الخلقية المبكرة او ساءت فعندئذ فقط يحتاج في الاطوار اللاحقة الى كثير .

وسأخمن ان الطفل قد بلغ من العمر اثني عشر شهراً وهو صحيح سعيد قد أحكم فيه تأسيس الخلق المؤدب بالطرق التي بحثناها في الفصل السابق . سيكون هناك بالطبع بعض اطفال صحتهم سيئة على الرغم من اتباع والديهم كل ما يشير به العلم الحاضر من الاحتياطات ، لكن لنا ان نأمل ان عدد هؤلاء سيتناقص الى حد كبير بمرور الزمن ، وينبغي حتى في يومنا هذا ان يكونوا من القلة بحيث لا يكون لعددهم أهمية اذا كنا قد أحسنا تطبيق ما لدينا من معرفة . ولست اريد البحث فيما ينبغي عمله حيال الاطفال الذين أسيئت تربيتهم المبكرة

فهذه مشكلة يعالجها المعلم لا الوالد، وللوالد على الأخص قد كتب هذا الكتاب .

ينبغي ان تكون السنة الثانية من حياة الطفل سنة سعادة كبرى ، فالمشي والتكلم فتجان جديداً يجلبان معها احساساً بالحرية والقوة . في كل يوم يتحسن الطفل فيهما^١ ، وعندئذ يصير في استطاعة الطفل ان يستقل في اللعب ويصبح احساسه برؤية الدنيا اشد وواضح من احساس اكثر الناس سياحة في الارض . فالطيور والزهور والانهار والبحار والسيارات والقطارات والبواخر كلها تدخل عليه الابتهاج وتثير فيه اهتماماً شديداً . فحبه الاطلاع لا حد له ، واكثر الجمل تردداً على لسان الطفل في هذه السن هي (اريد ان ارى) فالانطلاق في حديقة او حقل او على شاطئ البحر يحدث في نفسه نشوة فرح بتحرره بمد حبه في المهد والعربة . والهضم يكون عادة اقوى منه في السنة الاولى ، والطعام اكثر تنوعاً ، والمضغ فرحة جديدة . لهذه الاسباب كلها تكون الحياة مغامرة لذيدة اذا كان الطفل معتنى به صحيحاً .

على ان زيادة الاستقلال في المشي والجري عرضة لان يأتي بتهيب جديد . ان الرضيع الحديث الولادة من السهل إخافته ، وقد وجد الدكتور واتسن وزوجته ان الاشياء التي تزعجه اكثر من غيرها هي الضججات العالية ، واحساسه ان احداً يلقي به^٢ : ومع ذلك فهو محمي حماية تامة لا تدع له فرصة للتخوف المعقول ، ولو كان في خطر حقيقي لعجز عن دفعه ولما أجدها الخوف قليلاً . وفي خلال السنتين الثانية والثالثة تنشأ مخاوف جديدة . اما الى اي حد ترجع الى الالحاء ، والى

(١) قد يكون هذا القول غير دقيق كل الدقة . فمعظم الاطفال تمر عليهم فترات ركود في الظاهر يسبب قلقاً للآباء ، لكن من الراجح ان يكون هناك طوال تلك الفترات تقدم على صور ليس من السهل ادراكها .

(٢) (دراسات في نفسانية الطفولة) ، مجلة العلم الشهرية ، عدد كانون الاول سنة ١٩٢١ ص ٥٠٦ .

اي حد ترجع الى الغريزة ، ف نقطة خلافية . وانعدام المخاوف في السنة الاولى ليس قاطعاً في نفي غريزتها ، فان الغريزة يصح ان تنضج في اي سن . ولا يدعي حتى اعظم اتباع فرويد تطرفاً ان الغريزة الجنسية ناضجة عند الولادة . وواضح ان الاطفال الذين يستطيعون الجري في كل مكان احوج الى الخوف من الاطفال الذين لا يستطيعون المشي ، فلن يكون غريباً اذن ان تنشأ غريزة الخوف مع الحاجة اليه . ولهذا المسألة اهمية عظيمة من ناحية التربية . اذا كانت كل المخاوف منشأها الايحاء فان من الممكن منعها باجراء بسيط هو الامتناع عن اظهار الخوف او الكراهة امام الطفل . اما اذا كان بعضها غريزياً فالامر يحتاج الى طرق اعقد .

ويورد الدكتور شلرز ميتشل في كتابه (طفولة الحيوانات) كثيراً من الملاحظات والتجارب لبيان انه لا يوجد عادة غريزة للخوف موروثة عند صغار الحيوانات^١ ، ففيما عدا القروود وبعض الطيور لا ينظر صغار الحيوانات بأقل انزعاج الى اعداء نوعها من القدم كالحيات مثلاً الا اذا كان الآباء قد علموهم الخوف منها . والاطفال الذين يقل عمرهم عن عام لا يظهر عليهم ابداً اي خوف من الحيوانات . وقد علم الدكتور واتسن احد الاطفال في هذه السن الخوف من الفئران بتكرار دق ناقوس خلف رأسه في اللحظة التي كان يريه فيها فأراً ، وكان الصوت مرعباً ، فصار الفأر مثل الصوت عند الطفل عن طريق الاقتران . لكن يظهر أن الخوف الغريزي من الحيوانات لا أثر له مطلقاً في الشهور الاولى ، كما يظهر ان الخوف من الظلام لا يوجد قط في الاطفال الذين لم يلق في روعهم ان الظلام مرعب . ومن المؤكد أن هناك أسباباً قوية جداً تؤيد الرأي الذي يقول بأن معظم المخاوف التي اعتدنا ان نعودها غريزية هي في الواقع مكتسبة وانها لم تكن لتنشأ عند الصغار لو لم يخلقها الكبار فيهم .

(١) علمت بهذا من فقرة نقلها الدكتور بول بوزفيلد في كتابه (الجنس والحضارة) الذي يدافع فيه بجرادة عن نفس وجهة النظر هذه .

وللحصول على ضوء جديد في هذا الموضوع راقبت أولادي أنا بعناية ، لكن نظراً لأنني لم أستطع على الدوام معرفة ما قد يكون المربيّات والخدمات قد ذكرنه لهم ، فإن تفسير الوقائع كان في كثير من الأحيان موضع شك . وبقدر ما استطعت أن أحكم اتفقت الوقائع مع آراء الدكتور واتسن فيما يتعلق بالخوف في السنة الأولى من الحياة . وفي السنة الثانية لم يظهر طفلاي أي خوف من الحيوانات ، إلا البنت كانت تخاف من الخيل إلى حين ، ومع هذا فالظاهر أن خوفها كان يرجع إلى أن حصاناً ركض فجأة بجانبها محدثاً ضجة عالية . وهي الآن لا تزال في سنتها الثانية ، فما سأذكره عما وراء هذه السن مستمد من ملاحظاتي على أخيها . وقد حدث آخر عامه الثاني أن جاءته مربية جديدة فيها تهيب وإحجام ، وكانت تخاف الظلام بوجه خاص ، فسرعان ما اكتسب مخاوفها (وكنا نجعلها فيها في الأول) فكان يفر من الكلاب والقطط ، وينكش خوفاً ورعباً أمام الخزانة المظلمة ، ويطلب الأنوار في كل جزء من أجزاء الحجرة عندما يخيم الظلام ، بل كان خائفاً من اخته الصغيرة عندما رآها أول مرة ظناً منه على ما يظهر أنها حيوان غريب من نوع مجهول^١ . فكل هذه المخاوف يجوز أن يكون اكتسبها من المربية الهيوب ، وقد تلاشت هذه المخاوف في الواقع بالتدريج بعد ذهاب المربية . على أنه كانت هناك مخاوف أخرى لم استطع تعليلها بنفس الطريقة لأنها بدأت قبل مجيء المربية ، وكانت متعلقة بأشياء لا ينزعج منها أي شخص كبير . وكان رأس هذه المخاوف خوفه من كل شيء يتحرك بطريقة غريبة ، وعلى الأخص الخيالات واللعب الآلية . وبعد أن لاحظت هذا علمت أن المخاوف التي من هذا النوع طبيعية في الطفولة ، وأن هناك أسباباً قوية تحمل على اعتبارها غريزية . وقد ناقش هذا الموضوع ولیم اشترن في كتابه (نفسانية بواكير الطفولة) في صفحة ٤٩٤ وما يليها تحت عنوان (الخوف من الغامض) واليك ما يقوله :

(١) اعتقد أن هذا الخوف مثل الخوف من اللعب الآلية (انظر ما بعد) فقد رآها أولاً نائمة فظنها لعبة (عروسة) فلما تحركت انزعج .

هناك دلالة خاصة لهذا النوع من الخوف لا سيما بواكير الطفولة قد غابت عن الطبقة القديمة من المشتغلين بنفسانية الطفولة وقد تبينت حديثاً على يدنا ويد غروز اذ يقول في صفحة ٢٨٤ (يظهر ان الخوف من غير المعتاد أرسخ في الفطرة البدائية من الخوف من خطر معروف) واذا التقى الطفل بأي شيء لا يتفق مع المؤلف لتصوره كان هناك ثلاثة احتمالات: اما ان يكون الاثر هو من بجانب المؤلف بحيث ينبذ ببساطة كأنه جسم غريب فلا يعيره الوعي ادنى التفات ، واما ان يقطع مجرى التصور العادي قطعاً يسترعي الانتباه من غير أن يبلغ من القوة والعنف مبلغاً يحدث الاضطراب ، فهذا أقرب الى ان يكون استغراباً ورغبة في المعرفة التي هي مبدأ كل تفكير أو حكم أو بحث ، واما أن يبيت الجديد القديم بشدة وعنف فيحدث في الافكار المألوفة اختلالاً غير منتظر، من غير احتمال وقوع توازن عاجل ، وعندئذ يعقب رجة يشوبها لون قوي من الاشياء ، وهذا هو الخوف من المجهول الغامض . وقد لاحظ غروز بثاقب نظره ان خوف المجهول يقوم بوضوح على الخوف الغريزي ، فهو يناظر ضرورة بيولوجية تفعل فعلها من جيل الى جيل .

ويورد اشترن أمثلة عديدة لخوف الطفل من الغامض فيها الخوف من مظلة تفتح فجأة و (الخوف الذائع من اللعب الآلية) . وبهذه المناسبة نذكر أن اول هذين قوي جداً في الخيل والبقر ، فبه يستطيع الانسان ان يدفع قطعاً كبيراً الى الهرب لا يلوي على شيء ، كما حققت ذلك بنفسي . ومخاوف ابني التي من هذا النوع كانت تماماً كما يصفها اشترن ، فالخيالات التي أخافته كانت خيالات مبهمة سريعة الحركة تطرحها في الغرفة اشياء غير مرئية مارة في الطريق ، كالعربات . وقد شفيتها منها بإحداث خيالات بأصابعي على الحائط وعلى الأرض ، وجعلته يقلدني فيها ، فلم يمض وقت طويل حتى شعر بأنه قد فهم الخيالات وأخذ يجد فيها متعة . كذلك كان الأمر في اللعب الآلية ، لما رأى تركيبها لم يعد يخشاه ، لكن العلاج كان بطيئاً لما كان التركيب الآلي خفياً . وقد أعطاه أحد

الناس وسادة ينبعث منها انين طويل عند الجلوس او الضغط عليها ، فأخافته هذه زمناً طويلاً . ولم نعمل في حالة من الحالات الى ابعاد الشيء المخيف ابعاداً ، بل كنا نضعه على مسافة يصير الازعاج عندها ضئيلاً ، وبذلك استألفناه اليه بالتدريج ، وثابرونا حتى زال الخوف تماماً . والصفة الغامضة التي سببت الخوف في اول الامر كانت هي نفسها تحدث على العموم الابتهاج عندما يتم تغلبه على الخوف . وفي رأبي ان الخوف غير المعقول ينبغي ألا يترك ابداً من غير علاج ، بل ينبغي ان يتغلب عليه تدريجياً بالتأليف بين الطفل وبين الصور الضعيفة من ذلك الخوف .

وقد اتخذنا عملية مضادة تماماً لهذه (ولعلنا كنا نخطئين) لمعالجة خوفين معقولين لم يكن لهما وجود . اني أسكن نصف العام على شاطئ صخري تكثر فيه المهاوي ، ولم يكن الولد يدرك شيئاً من خطر المرتفعات ، ولو تركناه لجرى قدماً فوق الجرف هاوياً الى الهشيم .

ففي ذات يوم حين كنا نجلس على منحدر شديد ينتهي بحرف رأسي يهوي الى مائة قدم شرحنا له بهدوء حقيقة علمية بحتة انه ان جاوز الحافة يسقط وينكسر كما ينكسر الطبق (وكان قد رأى حديثاً طبقاً سقط فتشم) فجلس ساكناً فترة يقول لنفسه (يسقط ، ينكسر) ثم طالب منا ان نبعده عن الجرف . كان ذلك في سن سنتين ونصف ، ولا يزال عنده منذئذ خوف من المرتفعات يعصمه منها مع مراقبة منا ، لكنه لا يؤمن تهوره لو ترك لنفسه . وهو الان في سن الثالثة وتسعة أشهر يقفز من علو ست اقدام بلا تردد ، ولو تركناه يقفز من علو عشرين لفعل ، ومن هذا يتبين بالتأكيد ان تعليمنا اياه الحذر لم يحدث نتائج بالغة ، واني اعزو هذا الى ان كلامنا كان تعليمياً لا إيحاء ، فلم يكن يشعر بالخوف اثناء التعليم . واني أعد هذا على جانب عظيم من الاهمية في التربية . فالحذر من المخاطر ضروري ، اما الخوف فلا . نعم ان الطفل لا يستطيع ان يحذر المخاطر بدون ان يكون هناك عنصر من الخوف ، لكن هذا العنصر يقل كثيراً حين لا يكون للخوف اثر عند المعلم . فالشخص الكبير الذي يتعهد طفلاً ينبغي ألا

يشعر قط بالخوف، وهذا أحد الأسباب التي من أجلها ينبغي ان تغرس الشجاعة في النساء كما تغرس في الرجال .

والنموذج التوضيحي الثاني وقع عفواً . في ذات يوم عندما كنت امشي مع الولد (وهو في سن الثالثة وأربعة اشهر) وجدنا ثعباناً في الطريق وكان قد رأى صوراً للأفاعي ، لكنه لم يكن رأى قط أفعى ، ولم يكن يعرف ان الأفاعي تلدغ . لذلك ابتهج حين رأى الثعبان وجرى وراءه لما انساب هارباً ، ولم أمنعه اذ كنت اعرف انه لا يمكن ان يدركه . ولم أقل له ان الافاعي خطيرة ، لكن مربيته كانت من ذلك الحين تمنعه من الجري على العشب بحجة انه قد يكون فيه افاعي . وقد نتج عن ذلك ان دب في الطفل خوف طفيف ، لكنه لم يزد عن القدر الذي كنا نراه مستحباً .

والخوف الذي كان التغلب عليه أصعب هو الخوف من البحر . كانت محاولتنا الاولى لحمل الولد على النزول في البحر لما كان عمره سنتين ونصف سنة ، فوجدنا ذلك في اول الامر مستحيلاً . كان يكره برودة الماء ، ويخاف من هدير الامواج التي كانت تبدو له على الدوام آتية غير متراجعة . وكان يرفض حتى الاقتراب من البحر عندما تكون الامواج كبيرة . وتلك كانت فترة من فترات تهيب واحجام . وكانت تزعجه الحيوانات والاصوات الغريبة وأشياء اخرى مختلفة . وقد عاجلنا خوف البحر على خطوات . فبدأنا بوضع الولد في غدران ضحلة بعيدة عن البحر حتى صار لا يرتجف من برودة الماء . وفي نهاية الاربعة الاشهر الدافئة كان يجد متعة في التبطيش في الماء الضحل بعيداً عن الموج ، لكنه كان يصيح اذا وضعناه في غدران يصل فيها الماء الى وسطه . وقد عودناه على هدير الأمواج ولفتنا نظره الى ان الامواج بعد ان تقبل تعود فتدبر ، ولم يكن من اثر هذا كله ، وأثر ما كان يراه من ابويه ومن الأطفال الآخرين ، الا ان صار اذا اقترب من الأمواج لا يخاف . واني مقتنع بأن هذا الخوف كان غريزياً، وأكاد أوقن انه لم يتسبب عن ايجاء . وفي الصيف التالي عندما كان في سن الثالثة ونصف

استأنفنا المحاولة . كان لا يزال يرهب الدخول في الموج ولم ينفع معه اغراء ولا حض على الاستحمام كما كان الناس جميعاً حوله يستحمون ، فلجأنا الى الطرق العتيقة . كنا اذا جبن نشعره بأنه عار علينا ، واذا تشجع مدحناه وأثنينا عليه . وظللنا اسبوعين نغطسه كل يوم في البحر الى الرقبة على الرغم من مقاومته وصياحه^١ . وكل يوم كانت مقاومته وكان صياحه يتناقضان ، ثم بدأ يطلب وضعه في البحر ، حتى اذا مضى الأسبوعان تحققت غايتنا فلم يعد يخاف البحر . ومن تلك اللحظة تركناه حراً طليقاً ، فكان يستحم من تلقاء نفسه كلما كان الجو مناسباً ، بغبطة وحبور واضحين . ولم يكن خوف البحر قد زال عنه تماماً . وكان للالفة دخل في كبح خوفه . على ان الالفة جعلت الخوف يتناقص بسرعة وقد انقطع الآن تماماً . اما اخته وسنهما عشرون شهراً فلم تبد قط اي خوف من البحر ، وهي تجري لتنغمس فيه بدون أدنى تردد .

رويت هذا الامر بشيء من التفصيل لأنه الى حد ما يتعارض مع النظريات الحديثة التي أكن لها احتراماً كبيراً . ان استخدام العنف في التربية ينبغي ان يكون نادراً جداً ، لكن استخدامه للتغلب على الخوف هو في رأيي مفيد احياناً . فعندما يكون الخوف قوياً غير معقول فان الطفل اذا ترك لنفسه ان يحصل على التجارب التي يتبين له ان اخفاقه لا اساس له . ومتى جرب الوقوف في الموقف الخفيف مراراً من غير ضرر يناله ، فانه يألفه ، والالفة تقتل الخوف . وأكبر الظن ان لا فائدة من جعله يجرب الموقف المخوف مرة واحدة ، اذ لا بد ان يجربه مرات تكفي لأن يألفه . واذا كان من الممكن تحقيق الضروري من التجربة بدون استعمال القوة كان ذلك خيراً ، والا فان استعمال القوة قد يكون افضل من بقاء خوف غير مقهور .

وهناك نقطة اخرى . ففي حالة ابني انا ولعله في حالة أبناء غيري ايضاً كان

(١) هذه الطريقة هي نفسها التي اتبعت معي عندما كنت في نفس السن ، هي ان بعضهم كان يسكنني من قدمي ويجعل رأسي تحت الماء فترة من الزمن . ومن الغريب ان هذه الطريقة نجحت في تحبيب الماء الي ، ومع ذلك فاني لا انصح باتباعها .

وقع التغلب على الخوف لذيذاً مفرحاً . ان من السهل ايقاظ كبرياء الولد، وحين يفوز بالمدح لشجاعة فيه يظل يشع سعادة سائر اليوم ، وستأتي مرحلة يعاني فيها الولد الهيوب آلاماً مبرحة من احتقار أقرانه له، وعند ذاك يكون اصعب عليه جداً تغيير عاداته . لذلك أرى ان التبكير في كسب ضبط النفس عند الخوف وفي تعليم الطفل الاقدام له من الأهمية ما يكفي لتبرير استخدام طرق فيها شيء من العنف .

والوالدان يتعلمان من أخطائهما ، ولا يكشف الانسان كيف كان ينبغي أن يربي الاولاد الا بعد أن يشبوا ، لذلك سأروي حادثة توضح مخاطر الاسراف في الجري مع هوى الطفل . كان ولدي وهو في الثانية والنصف يترك لينام في غرفة وحده ، وكان معتزاً فخوراً بترقيته هذه من منامته في المحضن ، وقد استمر في اول الأمر ينام نوماً هادئاً طول الليل حتى قامت ذات ليلة زوبعة مخيفة اقتلعت حاجزاً وطوّحت به بصوت يصم الآذان ، فاستيقظ الولد فزعاً وصاح، فذهبت اليه في الحال فوجدته على ما يظهر كأنما قد استيقظ من حلم مروع ، فتعلق بي وقلبه شديد الخفقان ، وسرعان ما زال عنه الفزع ، لكنه شكاً من الظلام ، وكانت عادته في مثل ذلك الوقت من السنة ان ينام خلال ساعات الظلام كلها . وبعد ان تركته عاوده الفزع فيما يظهر بصورة مخففة ، فأضأت له مصباحاً ضعيفاً، وكان بعد ذلك يقوم كل ليلة تقريباً صائحاً الى ان تبين آخر الأمر انه انما يفعل ذلك ليستمتع بقيام الكبار اليه يحدبون عليه ، وعندئذ كلمناه بعناية وحيطة ان الظلام لا خطر منه ، وأخبرناه انه اذا استيقظ فما عليه الا ان ينقلب على جنبه ويستأنف النوم ، لأننا لن نأتي اليه الا لأمر ذي بال . فأصغى بانتباه ، ولم يصح بعدها قط الا نادراً لسبب خطير ، وأطفأنا النور ، بالطبع ، ولو جارينا لتسببنا على الأرجح في اضطراب نومه فترة طويلة ان لم يكن بقية حياته . ولنكتف بهذا القدر من التجارب الشخصية لننتقل الى بحث أعم في طرق ازالة الخوف .

ان اقرب الناس لتعليم الأطفال الشجاعة الحسية بعد السنوات الاولى هم أقرانهم من الاطفال ، فاذا كان للطفل اخوة أو أخوات اكبر منه فسيحفزونه اليها بالمثل وباللسان ، وسيحاول هو فعل كل ما يستطيعون فعله . وفي المدرسة يكون الجبن الظاهر محققراً فلا يكون بالمعلمين الكبار حاجة لتوكيد الأمر . هذا هو الحال بين الاولاد على الأقل ، وينبغي ان يكون هو الحال أيضاً بين البنات ، اذ ينبغي ان تكون معايير الشجاعة بينهن عينا كما بين البنين ^١ .

وعندما أقول عن الشجاعة انها مستحبة فاني أقصد الشجاعة بتعريفها السلوكي المحض : يكون الرجل شجاعاً اذا عمل أعمالاً قد لا يتسنى لآخرين ان يعملوها من الخوف ، فاذا لم يشعر بخوف فيها نعمة . اني لا اعتبر التغلب على الخوف بواسطة الارادة هو وحده الشجاعة الحقيقية ، بل ولا هو خير انواع الشجاعة . ان سر التربية الخلقية الحديثة هو الوصول عن طريق العادات الصالحة الى نتائج كان الوصول (أو محاولة الوصول) اليها فيما مضى هو عن طريق ضبط النفس وقوة الارادة . ان الشجاعة عن ارادة تسبب اضطرابات عصبية كشفت (الصدمة القنبلية) منها عن امثلة كثيرة ، فيها وجدت المخاوف التي كانت مكبوتة سبيلاً الى الظهور بأساليب لا يدركها الانسان بالتأمل الباطني . ولست اعني أن ضبط النفس يمكن الاستغناء عنه بتاتا ، بل أرى على العكس ان الانسان لا يستطيع ان يعيش عيشة متسقة بدونها الذي أعنيه أن ضبط النفس ينبغي أن يدخر للمواقف غير المنتظرة التي لم تعد التربية لها من قبل . فلو كان من الممكن ان يدرب الناس كلهم ليكون لهم عفواً تلك الشجاعة التي احتيج اليها في الحرب لكان ذلك حمقاً ، لأن الحاجة اليها كانت عند ذاك بلغت من مخالفة المألوف حدّاً لو أردنا معه أن نشرب الشباب العادات اللازمة للمحاربين في الخنادق لكان علينا ان نشل من كل نوع آخر من التربية .

(١) انظر كتاب بوزفيلد (الجنس والحضارة) في كثير من اجزائه .

يورد المرحوم الدكتور رفرز في كتابه عن (الغريزة والعقل الباطن) خير تحليل نفسي عرفته للخوف ، فهو يشير الى ان احدى طرق مواجهة الخطر في موقف هي التصرف العملي باليد والجسم ، وأن الذين يستطيعون استخدام هذه الطريقة استخداماً وافياً لا يجيش في صدورهم خوف محسوس ، وانها لخبرة قيمة ، تثير فينا احترام النفس وبذل الجهد معاً ، أن ننتقل بالتدريج من خوف في البدء الى مهارة في النهاية . وأمر بسيط مثل ركوب الدراجة يهيء لنا تجربة هذا الانتقال في صورة مخففة . وفي العالم الحديث يزداد هذا النوع من المهارة في الاهمية شيئاً فشيئاً تبعاً لازدياد استخدام الآلات فيه ، وأرى أن التدريب على الشجاعة الحسية ينبغي ان يتم بقدر الامكان عن طريق تعليم المهارة في التصرف في المادة والتسلط عليها ، لا عن طريق المباريات بين بعض الناس والآخرين . فنوع الشجاعة اللازم لتسلق الجبال أو لقيادة طائرة أو لتسيير سفينة صغيرة في زوبعة يبدو لي أجدر كثيراً بالاعجاب من نوع الشجاعة اللازمة في القتال . لذلك أؤثر ان يدرب تلاميذ المدارس بقدر الامكان على أنواع من المهارة فيها كثير او قليل من الخطر على ان يدربوا على مثل كرة القدم ، فاذا كان لا بد من التغلب على عدو فليكن هذا العدو هو المادة لا بني البشر . اني لا أقصد ان نجمد في تطبيق هذه القاعدة ، وانما أقصد ان يكون لها من الوزن في التدريب الرياضي ما ليس لها الآن .

ويوجد بطبيعة الحال ما أكثر سلبية من نواحي الشجاعة الدينية كتحمل الاضرار بغير جلبة ، وهذه يمكن تعليمها للأطفال عن طريق عدم اظهار عطف عليهم أكثر مما ينبغي عندما يحدث لهم بعض الحوادث البسيطة . ان كثيراً من الهلع للحوادث في الكبر يتسبب في صميمه عن تعطش زائد الى عطف الغير ، وفي الناس من يتصنع الأمراض على أمل ان يحذب عليهم غيرهم ويشفق . ويمكن الحيلولة دون نمو هذا الميل في الاطفال أو تلافي نموه بعدم تشجيعهم على الصياح والبكاء كلما أصابهم خدش او رض . ولا تزال تربية المربيات أسوأ كثيراً من هذه

الناحية للبنات منها للبنين ، فضرر اللين مع البنات مثل ضرره مع البنين ، واذا اريد للنساء أن يكن مساويات للرجال وجب ألا يكن أدنى منهم في الاشد من الفضائل .

لننتقل الآن الى ما ليس حسياً صرفاً من صور الشجاعة وهو أهمها ، لكن من الصعب أن ينمى تنمية كافية الا على أساس من صورها الأبسط .

لقد سبق لنا ان مسسنا موضوع الخوف من الغامض بمناسبة الكلام عن زعر الأطفال . اني أعتقد أن هذا الخوف غريزي وان له أهمية تاريخية عظيمة ، اليه يرجع معظم الخرافات . فالكسوف والخسوف والزلازل والطاعون ومثيلاتها من الحوادث تثير هذا النوع من الخوف الى مدى كبير بين الناس غير العلميين . وهو نوع خطر جداً من الناحيتين الشخصية والاجتماعية ، ولذلك يستحب جداً اقتلعه في الصبا ، والترياق الناجع له هو التفسير العلمي . وليس من الضروري أن يفسر كل شيء يبدو غامضاً عند أول نظرة ، فان الطفل بعد عدد معين من التفسيرات سيفترض أن الحالات الاخرى لها تفسير أيضاً . وعندئذ يصير من الممكن أن نقول له فيما لا يمكن تفسيره ان التفسير لم يحسن ذكره بعد . والامر المهم ان نوجد فيه بأسرع ما يمكن الاحساس بأن الشعور بالغموض لا يرجع الا الى الجهل الذي يمكنه ان ينفذه عن نفسه بالصبر والجهد الفكري . وانها حقيقة تلفت النظر ان الاشياء التي تفرع الاطفال في أول الأمر بنحواصها الغامضة هي نفسها التي تملؤهم ابتهاجاً بمجرد زوال الخوف ، فالغموض يصبح حافزاً الى الدرس بمجرد ان تزول اثارته للخرافة في النفس . وقد قضى ابني الصغير في سن الثالثة والنصف ساعات كثيرة مستغرقاً على انفراد في دراسة لمضخة الحديقة حتى فهم كيف يدخل الماء ويخرج الهواء وكيف يدخل العكس . والكسوف والخسوف يمكن تفسيرهما بصورة مفهومة حتى للأطفال الصغار جداً . فكل ما يخيف الطفل أو يثير اهتمامه ينبغي ان يفسر له ما كان الى ذلك سبيل ، فان هذا يحول

الخوف الى اهتمام علمي تحويلاً يتفق تماماً مع الاتجاهات الغريزية ، ويعيد في الفرد ما حدث للجنس البشري في تاريخه .

وهناك بعض المسائل التي تنشأ في هذا الصدد صعبة وتحتاج الى كثير من اللباقة ، واصعبها هو الموت . فالطفل سرعان ما يكتشف ان النباتات والحيوانات تموت ، وسيحدث في الغالب قبل ان يصير عمره ست سنوات ان يموت شخص يعرفه ، وسيخطر بباله اذا كان نشيط العقل ان والديه سيموتان ، بل انه هو سيموت (وهذا اصعب في التصور) . وستؤدي هذه الافكار الى طائفة من الاسئلة يتحتم ان يجاب عليها بحذر ، وستكون الاجابة اقل صعوبة على الشخص الذي تتفق اعتقاداته والدين منها على الشخص الذي لا يؤمن بأن هناك حياة بعد الموت .

ويجب ان يلقي الجواب بغير اي احتفال كما لو كان الموت شيئاً عادياً طبيعياً ، واذا بدا على الطفل احتقار الزهاد للموت . لا تثر انت الموضوع ، لكن اذا أثاره الطفل فلا تتجنبه وابذل كل ما في وسعك لكي تجعل الطفل يشعر ان الامر لا يحيط به سر وغموض ، واذا كان الطفل طبيعياً سليماً فستكفي هذه الأساليب لمنع انشغال فكره . كن في جميع المراحل على استعداد لأن تقول بصراحة كل ما تعتقده بصورة تشع . لطفل ان الموضوع غير جذاب ، فليس في مصلحة الصغار ان يصرفوا وقتاً طويلاً في التفكير في الموت

والاطفال بقطع النظر عن المخاوف الخاصة عرضة لقلق غير محصور ، وهذا يرجع في الجملة الى اسراف الكبار في قمعهم ، ولذا فهو الآن اصغر وأقل شيوعاً مما كان عليه من قبل . فالتأنيب المستمر ومنع الضوضاء واعطاء تعليمات لا تنقطع في آداب السلوك كانت تجعل الطفولة فترة بؤس وشقاء . اني لأذكر قولهم لي وانا في سن الخامسة ان الطفولة أهنأ ادوار الحياة وأسعدها (كذب في تلك الايام) فكنت أبكي ولا مواسي لي ، وكنت أتمنى الموت واعجب كيف سيتمنى

لي ان أتحمل السنوات المقبلة وثقلها . اما اليوم فلا يكاد يتصور في ايامنا هذه ان يقول اي شخص شيئاً كهذا ، فحياة الطفل بطبيعتها تتطلع للمستقبل ، فهي متجهة دائماً الى الامور التي ستصير ممكنة له فيما بعد ، وهذا بعض ما يحفز الطفل الى بذل الجهد . فالذي يتلفت الى الوراء ويمثل له المستقبل أسوأ من الماضي انما يعمل على ان تغيض حياة الطفل من منبعها . ومع ذلك فهذا هو ما كان يفعله الذين لا قلب لهم من الجارين مع العاطفة بتحدثهم الى الطفل عن افراح الطفولة ، ومن حسن الحظ ان أثر كلماتهم لم يدم معي طويلاً ، ففي معظم الاوقات كنت اعتقد ان الكبار لا بد ان يكونوا سعداء تماماً لأنه ليس عندهم دروس ، ولأنهم يستطيعون ان يأكلوا ما يشتهون ، وهذا الاعتقاد كان مقوياً ومشجعاً لي .

والخجل نوع من التهيب يثقل ويضائق ، وهو شائع في انجلترا والصين لكنه نادر فيما عداهما . وهو ينشأ من عدم الاختلاط بالاغراب من جهة ، ومن التشديد في مراعاة آداب السلوك من جهة اخرى . ينبغي بقدر ما تسمح به الظروف ان يعتاد الاطفال بعد السنة الاولى رؤية الغرباء وحمّل الغرباء لهم ، اما من حيث آداب السلوك فينبغي في اول الامر ان يلقنوا منها الحد الأدنى الذي لا بد منه لكي لا يصيروا مصدر مضايقة لا تحتمل ، فلأن يسمح لهم برؤية الغرباء بضع دقائق من غير قيد ثم يخرجوا خير من ان يسمح لهم بالبقاء في الحجرة مع توقع التزام الهدوء منهم . لكن من حسن التدبير بعد السنتين الاوليين ان يعلموا كيف يسلون انفسهم بهدوء جزءاً من النهار باللعب بالصور او الصلصال او أجهزة منتسوري او ما شاكل ذلك . وينبغي ان يكون لكل مطالبة لهم بالهدوء سبب يستطيعون فهمه . وألا يعلموا آداب السلوك بصورة مجردة الا عندما يمكن ذلك كلعبة مسلية . لكن ينبغي ان يدرك الطفل بمجرد استطاعته الفهم ان للوالدين ايضاً حقوقها ، يجب عليه ان يترك الحرية لغيره وان يكسب الحرية لنفسه الى اقصى حد مستطاع . ان الاطفال يقدرون العدل بسهولة ، وسيدعون لغيرهم بانشرح ما يدع غيرهم لهم . وهذا هو لب آداب السلوك .

وإذا أردت ان تزيل الخوف من طفلك وجب قبل كل شيء ألا يكون عندك انت خوف . فاذا داخلك الخوف من الرعد الشديد فستنتقل عدوى الخوف منك اليه في اول مرة يسمع فيها الرعد بمحضر منك ، واذا أعربت عن خوفك من الثورة الاجتماعية فسيداخل الطفل خوف أشد لأنه لا يعرف ما تحدث عنه . واذا كنت تخشى المرض وتوقعه فكذلك يكون طفلك . ان الحياة مليئة بالاطار لكن العاقل يتجاهل منها ما لا مفر منه ، ويتصرف بحكمة لكن بغير تهيج عواطف ازاء ما يمكن تجنبه منها . انك لا تستطيع ان تتجنب الموت ، لكنك تستطيع تجنب الموت بغير وصية ، فاكتب وصيتك وانس انك فان . واتخاذ العدة المعقولة ضد النكبات امر يختلف تماماً عن الخوف . انه جزء من الحكمة بينا الخوف كله نوع من العبودية . فاذا لم تكن تستطيع تجنب الخوف فاجتهد في منع طفلك من ان يظن ذلك بك ويملحه فيك . وفوق كل شيء اجعل عنده تلك النظرة الواسعة وذلك التعدد في نواحي الاهتمام الساطع اللذين سيصرفانه في مستقبل حياته عن ان يحمل هم ما يحتمل ان يناله من نكبات ، بهذه الطريقة وحدها تستطيع ان تجعل منه مواطناً حراً في هذا العالم .



اللعب والتخيّل

يكاد حب اللعب يكون أظهر علامة مميزة لصغار الحيوان ، من البشر او من غيرهم ، وهو في اطفال البشر مصحوب بسرور لا ينفذ يحدونه في التوهم . واللعب والتوهم حاجة حيوية للطفولة ويجب ان تهيأ الفرصة لها اذا أريد ان يصح الطفل ويسعد بغض النظر تماماً عما فيها من منفعة . وهناك مسألتان متصلتان بالتربية في هذا الصدد . الاولى : ماذا ينبغي ان يفعل الآباء والمدارس في سبيل تهيئة تلك الفرصة ؟ والثانية : هل يجب ان يفعلوا اكثر من ذلك ليزيدوا في الفائدة التربوية للألعاب ؟

ولتكن البداية بكلمات قليلة عن نفسانية الالعاب . لقد استوعب غروز علاجها وأورد شترن بحثاً مختصراً في كتابه الذي ذكرناه في الفصل السابق . وفي هذا الموضوع مسألتان منفصلتان : الاولى عن الدوافع الى اللعب ، والثانية عن فائدته الحيوية وهذه أسهلها . وليس هناك فيما يبدو ما يحمل على الشك في أوسع نظريات اللعب قبولاً ، ألا وهي ان الصغار من اي نوع يتدربون في لعبهم ويتمرنون

على وجوه النشاط التي سيكون عليهم ان يضطلعوا بها فيما بعد ، فلعب الجراء يشبه بالضبط تهارش الكلاب الا انها لا تعض بعضها بعضاً بالفعل ، ولعب القطط يشبه فعل القطط بالفيران ، والاطفال يحبون تقليد اي عمل كانوا يراقبونه كالبناء او الحفر ، وكلما زادت اهمية العمل في نظرهم ازداد ميلهم للعبة ، ويلذ لهم عمل كل جديد يمرن عضلاتهم كالقفز والتسلق والمشي على لوح ممدود ، بشرط ألا يكون شيء من ذلك أصعب مما ينبغي ، على ان هذا وان علل بصفة عامة فائدة نزعة اللعب ، الا انه لا يحيط بكل مظاهرها ولا يصح اعتباره تحليلاً نفسانياً لها .

وقد حاول بعض المحللين النفسيين ان يلمحوا في لعب الاطفال رموزاً جنسية ، واني مقتنع بأن هذا مجرد وهم وخيال . فالحافز الغريزي الأساسي في الطفولة ليس الجنس ولكن رغبة الطفل في ان يصير يافعاً ، او بالاحرى الرغبة في القوة^١ . ان الطفل يلفته ما يرى في نفسه من ضعف بالنسبة الى الكبار ويود ان يساويهم ، واني أتذكر ابتهاج ابني وسروره عندما أدرك انه سيكون رجلاً يوماً ما ، واني كنت يوماً ما طفلاً ، حتى ليبدو لمن يراه كيف يحفزه لبذل الجهد ادراكه ان النجاح ممكن . والطفل يود وهو صغير جداً ان يفعل ما يفعل الكبار كما يتضح من تقليده لهم ، والاخوة والأخوات الأكبر قليلاً منه تافعون من هذه الناحية لأن اغراضهم يسهل عليه فهمها ومقدورهم أقرب الى مقدوره . والشعور بالنقص قوي جداً عند الاطفال ، وهو يحفزهم لبذل الجهد اذا كانوا طبيعيين وكانت تربيتهم كما ينبغي . لكنه قد يصير مصدر شقاء اذا كبتوا او قمعوا . في اللعب شكلان من ارادة الطفل للقوة : الشكل الذي يتألف من تعلم عمل الاشياء ، والشكل الذي يتألف من التخيل . فكما ان الكبير المحروم تستهويه الاحلام والأمان التي لها دلالة جنسية ، كذلك الطفل الطبيعي يستهويه ان يتخيل في

(١) راجع كتاب (الطفل العصبي) لمؤلفه الدكتور كامرون . الطبعة الثالثة ، اكسفورد سنة ١٩٢٤ ص ٣٢ وما يليها .

نفسه ما يدل على القوة ، فهو يحب ان يكون عملاقاً او أسداً او قطاراً ، ويجب في تزييه ان يدخل على غيره الرعب . ولما قصصت على ابني قصة جاك قاتل العملاقة حاولت ان احملة على ان يكون جاك لكنه أبى الا ان يكون العملاق ، ولما قصصت عليه امه قصة ذي اللحية الزرقاء أصر على أن يكونه ، واعتبر أن معاقبته زوجته على ترددها كان عدلاً ، وأصبح يكثر في لعبه من قطع رؤوس السيدات . سيقول اتباع فرويد جنون القسوة على النساء ، لكن ابني كان يجد نفس اللذة في ان يكون عملاقاً يأكل الأولاد الصغار ، أو قاطرة تجر الأحمال الثقيل . فالقوة لا الجنس كانت العنصر المشترك في هذه التخيلات . في ذات يوم عندما كنا عائدين من مشية قلت له على سبيل المزاح الظاهر اننا ربما وجدنا المستر تد ليونكس قد استحوذ على بيتنا وربما رفض السماح لنا بالدخول ، فظل بعد ذلك مدة طويلة يقف على مدخل البيت مدعيًا أنه المستر تد ليونكس ويأمرني أن أذهب الى بيت آخر ، وكان ابتهاجه بهذه اللعبة لا حد له . ومن الواضح ان مصدر ابتهاجه كان تخيله القوة في نفسه .

ومع ذلك فمن المبالغة في التبسيط ان نفترض ان ارادة القوة هي المصدر الوحيد للعب الاطفال ، فانهم يلذ لهم تصنع الرعب ، وربما كان ذلك راجعاً الى ان علمهم بأن لعبهم وهمي يزيد في شعورهم بالأمن والسلامة . اني أحياناً أزعم لابني انني تمساح جثت لا كله فيصبح صيحة منكرة تحملني على التوقف ظناً مني انه قد خاف فعلاً ، لكنه في اللحظة التي أتوقف فيها يقول : (يا أبت ارجع تمساحاً) . وجزء كبير من سرور التوهم تلذذهم وفرحهم بتمثيل الاخطار ، وهو نفس ما يجعل الكبار يحبون القصص والمسرح . واني اعتقد ان التشوف ، والاستطلاع له دخل في كل هذا ، فان الطفل عندما يلعب «الدببة» يشعر كأنه يتعلم شيئاً عنها . وعندي ان كل دافع قوي في حياة الطفل يبدو في لعبه ، فالقوة لا تغلب على لعبه الا بمقدار ما تغلب على رغباته .

واجمع الكل فيما يتعلق بالقيمة التربوية للعب على امتداح اللعب الذي يكسب

استعدادات ويمنح نزعات . اما لعب التصنع والتوهم فكثير من المحدثين يرتابون فيه ، وهم يعتبرون احاديث النفس والاماني في حياة الكبار شيئاً يشبه المرض ، وبديلاً من الجهود التي عليهم بذلها في عالم الواقع . وبعض سوء الظن بأحاديث النفس وامانيها عند الكبار قد تعدى الى تخيلات الاطفال ، وهذا في رأيي خطأ محض . ان المعلمين المنتسوريين يكرهون ان يحيل الاطفال اجهزتهم الى قطارات او بواخر او ما الى ذلك ، ويسمى هذا عندهم خيالاً مضطرباً ، وهم على حق تماماً لان ما يفعله الاولاد من هذا ليس في الحقيقة لعباً ، وان كان عندهم لا يختلف عن اللعب في شيء . ان الطفل يرى في الجهاز تسلية ، لكن القصد منه هو التعليم ، وما التسلية هنا الا وسيلة ، اما في اللعب الحقيقي فالتسلية هي القصد المسيطر ، فاذا ما صرف الاعتراض على (الخيال المضطرب) الى اللعب الحقيقي كان ذلك في رأيي غلوّاً وتجاوزاً . ومثل هذا الكلام يقال في الاعتراض على التحدث الى الاولاد على الجنيات والعمالقة والساحرات والبساط السحري وما الى ذلك . اني لا استطيع ان اعطف على المتزمتين الزاهدين الا في الحق ، اكثر مما اعطف على غيرهم من المتزمتين الزاهدين . ومن القول الشائع ان الاطفال لا يميزون بين التخيلي والحقيقي ، لكنني لا ارى سبباً يحمل على اعتقاد هذا . اننا لا نعتقد ان هملت كان له وجود ، لكن لو ان رجلاً استمر يذكرنا بذلك ونحن نستمتع بالرواية لضايقنا وأحفظنا . كذلك الاطفال يضايقهم ان يذكرهم بالحقيقة مذكر لا ذوق عنده اثناء لعبهم التخيلي ، لكنهم لا ينخدعون به اقل انخداع .

الحق مهم ، والخيال مهم ، لكن الخيال اشد تبكيراً في النمو التاريخي سواء في ذلك تاريخ الفرد او تاريخ الجنس . والطفل ما دامت حاجته البدنية مكفية فانه يجد اللعب احسن وادعى الى اهتمامه من الحقيقة . وهو في اللعب ملك يحكم في ارضه بقوة تفوق حقاً قوة اي ملك في الارض . اما في الحقيقة فان عليه ان يذهب للفراش في وقت معين ، وان يطيع طائفة من التعليمات المضايقة . وهو يغتاظ عندما يحمل عدم التفكير من لا خيال له من الكبار على التدخل في تنظيم

روايته ، فاذا ما بنى حائطاً لا يستطيع ان يرقاه حتى اكبر العماقة وجئت انت
تخطاه في استهتار ، استاء منك . ولما كان نقصه عن غيره من الناس طبيعياً
وليس مرضياً كان التعويض عن هذا النقص في الوهم طبيعياً ايضاً وليس مرضياً .
ان أعباه لا تشغل من وقته ما يصح ان يستخدمه فيما هو اجدى ، فلو ان كل
ساعاته صرفت في الجد لصار سريعاً كتلة اعصاب محطمة . ان الكبير الذي
يغرق في الاحلام والاماني يصح ان ينصح بأن يجاهد في سبيل تحقيقها ، لكن
الطفل لا يستطيع تحقيق احلام من حقه ان يحملها ، ثم هو لا يعتبر خيالاته
واوهامه بديلاً دائماً من الواقع . انه على عكس ذلك يؤمل ويرجو ان يحولها
الى واقع في الوقت المناسب .

ان من الخطأ الخطير ان يخلط الانسان بين الحق والواقع . ان حياتنا لا تسيطر عليها
الحقائق وحدها بل تسيطر عليها الآمال ايضاً . فالصدق الذي لا يرى سوى الواقع
هو سجن للروح البشرية . ان الاحلام لا تسترذل الا اذا جعلها الكسل بديلاً عن
جهد لازم لتغيير الواقع ، اما اذا كانت حافزاً الى بذل الجهد فانها تؤدي غرضاً حيوياً
حين تجسد للانسان مثله الفلما ومطامحه . فقتل التخيل في الطفل هو بمثابة جعله عبداً
للوواقع الموجود ، هو بمثابة جعله كائناً مشدوداً الى الارض عاجزاً عن التسامي الى
السماء . ولعلك تقول : هذا كله حسن جميل ، ولكن ما علاقته بالعماقة يا كلون
الاطفال او بذوي اللحية الزرقاء يقطع رؤوس زوجاته ؟ هل سيكون لمثل هذه
الاشياء وجود في سمائك ؟ ألا يجب ان يظهر الخيال ويسمو قبل ان يعين على اي
غرض صالح ؟ كيف تستطيع وانت من محبي السلم ان تسمح لولدك البريء ان
يتلذذ ويتمتع بفكرة ازهاق الارواح البشرية ؟ ام كيف تستطيع ان تبرر سروراً
مستمداً من غرائز وحشية يجب على الجنس البشري ان يشب عنها ؟ كل هذا
أتخيله قد جال بخاطر القاريء . ولأهمية المسألة سأحاول ان ابسط الاسباب التي
تحملي على ان اتخذ وجهة نظر اخرى .

ان التربية عبارة عن زرع الغرائز وتنميتها لا قمعها . والغرائز البشرية مبهمه

جداً ، ويمكن ارضاؤها بطرق شتى ، ومعظمها يحتاج في سده الى مهارة ما ،
فالكريكت^١ وكرة السلة يرضيان غرائز واحدة ، لكن الولد يلعب منهما ما
تعلمه . ومن ثم كان السر في التعليم فيما يتعلق بالاخلاق ان يعطى الرجل من انواع
المهارة المختلفة ما يؤدي الى استخدام غرائزه استخداماً فاعلاً . فغريزة القوة ،
التي يرضيها في الطفل ارضاء فطيراً ان يجعل من نفسه ذا اللحية الزرقاء ، يمكن
في مستقبل حياته ان تجد ارضاء مهنياً في الاكتشاف العلمي او الاختراع الفني او
تنشئة اطفال يفخر بهم او في اي نوع من انواع النشاط النافعة الكثيرة . واذا
كان كل ما يعرفه الرجل هو كيف يحارب ، فان ارادته القوية ستجعله يبتهج
بالمعارك ، لكن اذا برع في اعمال اخرى فسيجد رضا نفسه فيها . اما اذا كانت
ارادته القوية قد قتلت في مهدها حين كان طفلاً ، فسينشأ كسولاً لا ينفع ولا
يضر . وهذا النوع من الصلاح الخائر ليس الذي تحتاجه الدنيا او الذي ينبغي
ان نوجده في اطفالنا . ومن الطبيعي لهم من الوجهة الحيوية حين يكونون صغاراً
الا يملكون ضراً ان يعيشوا في خيالهم عيشة اجدادهم الاقدمين المتوحشين ، ولا
تحش ان يبقوا في هذا المستوى ما دمت تسهل لهم سبل المعرفة والمهارة اللازمتين
لما هو أرقى من اوجه الرضا .

لقد كنت احب وانا طفل ان انقلب رأساً على عقب ، ولست افعل ذلك
قط الآن وان كنت لا اعد ذلك إثماً لو فعلته . كذلك الطفل الذي يلذ له ان
يكون ذا اللحية الزرقاء سيشب عن هذا وسيتعلم ان يلتمس القوة في سبيل
اخرى . واذا كان خياله قد حفظ حياً نشيطاً في الطفولة بالمؤثرات المناسبة لتلك
المرحلة ، فالراجح الغالب ان يظل حياً نشيطاً في السنوات المقبلة التي يستطيع
فيها ان يتخذ من الاساليب ما يناسب الرجولة . ان من العبث ان نقحم الافكار
الخلقية في سن لا يمكن ان تلقى فيها استجابة ، ولا تكون فيها لازمة لتوجيه

(١) الكريكت : لعبة رياضية بكرة ومضرب خاص . المترجم

السلوك وضبطه . ان الاثر الوحيد لهذا الاقحام هو السأم وعدم التأثر بنفس الافكار حين تأتي السن التي يمكن ان يكون للافكار الخلقية فيها اثر فعال . وهذا سبب من الاسباب التي تجعل دراسة نفسانية الطفولة ذات اهمية حيوية في التربية .

ان الالعاب التي تأتي ما بعد الطفولة تختلف عن ألعاب بواكير الطفولة بما يدخلها من عنصر المنافسة الذي يتزايد بتقدم السن . ففي الاول يكون لعب الطفل انفرادياً اذ من الصعب على رضيع ان يشترك مع اخوته وأخواته الكبار في ألعابهم ، لكن اللعب في جماعة حين يصبح ممكناً يكون ألد وألطف بحيث لا يبقى لسرور اللعب الانفرادي موضع . وقد علقت التربية الانجليزية لأبناء الطبقات العليا ولا تزال تعلق أهمية خلقية عظيمة على الألعاب المدرسية ، وفي رأي ان هناك بعض المبالغة في وجهة النظر البريطانية المتواضع عليها ، وان كنت اسلم بأن للالعاب مزايا معينة هامة . انها مفيدة للصحة بشرط ألا تدق اكثر من اللازم ، فان المهارة الشاذة اذا بولغ في تقديرها اسرف خيرة اللاعبين فيها وتراخى الآخرون حتى يوشكوا ان ينقلبوا متفرجين . والالعاب تعلم الاولاد والبنات ان يتحملوا الاصابات بغير جلبة ويتعرضوا للتعب الشديد في بشر . لكن المزايا الاخرى التي تعزى اليها تبدو لي وهمية الى حد كبير . فهي فيما يقال تعلم التعاون لكنها في الواقع لا تعلمه الا في شكله التنافسي ، وهذا هو الشكل الذي يحتاج اليه في الحرب ، لا في الصناعة ولا في النوع الصحيح من العلاقات الاجتماعية . وقد جعل العلم من الممكن ان يحل التعاون الفني محل التنافس في الاقتصاديات وفي السياسة الدولية كليهما ، كما جعل التنافس (في شكل حرب) أخطر بكثير مما كان عليه . لهذه الاسباب كانت الانسانية في الوقت الحاضر أحوج منها في الماضي الى بث فكرة المغامرات التعاونية التي يكون فيها (العدو) هو الطبيعة المادية ، بدلاً من المغامرات التنافسية التي يكون فيها من البشر غالبون ومغلوبون . ولست أريد ان أوكد هذه الوجهة اكثر مما ينبغي لأن التنافس

طبيعي في الانسان ولا بد له من مخرج ، وليس مخرج افضل ولا أبرأ من الالعب والمباريات الرياضية ، وهذا سبب صحيح لعدم منع الالعب ، لكنه ليس سبباً صحيحاً لرفعها الى مكان رئيسي في المنهج المدرسي .

لقد تناولت بالكثير في فصل سابق عن اهمية التغلب على الخوف وإيجاد الشجاعة ، لكن الشجاعة يجب ألا تلبس بالوحشية فالوحشية هي السرور بفرض ارادة الانسان على غيره من الناس ، والشجاعة هي عدم المبالاة بالنكبات الشخصية . ووددت لو علمت الاولاد والبنات كلما سنحت الفرصة ، كيف يسرون السفن الصغيرة في بحر مضطرب بالزوابع وكيف يغطسون في الماء من علو وكيف يقودون السيارة بل والطائرة . ووددت لو علمتهم ابتناء الآلات والتعرض للخطر في التجارب العلمية . ووددت لو جعلت الطبيعة الجمادية هي الخصم في اللعب ما كان الى ذلك سبيل ، فان ارادة القوة تستطيع ان تجد في هذا النضال من الرضا ما تجده في منافسة الأناس . والمهارة المكتسبة بهذه الطريقة أنفع من المهارة في الكريكت او كرة القدم ، والخلق الذي ينشأ عنها أكثر موافقة لقواعد الاخلاق الاجتماعية . والمذهب القائل بالالعب الرياضية يتضمن قليلاً من شأن الذكاء بغض النظر عن الناحية الخلقية . ان بريطانيًا العظمى آخذة في فقدان مركزها الصناعي بل قد تفقد امبراطوريتها بسبب غباوتها وعدم تقدير أولى الامور فيها للذكاء وعدم تشجيع اهله . كل هذا متصل بالتعصب للالعب والمبالغة في اكبار أهميتها ، ودلالته أعمق من هذا بالطبع ، فالاعتقاد بأن مقياس قيمة الفرد هو سجله الرياضي علامة من علامات فشلنا العام في ادراك حاجتنا الى المعرفة والتفكير للاحاطة بالعالم المعقد الحديث .

وتوجد ناحية اخرى من نواحي الالعب المدرسية تعتبر في العادة حسنة ولكنني أراها في الجملة سيئة ، أعني كفايتها في تقوية (روح الجماعة) . فأولو الامر يحبون (روح الجماعة) لأنها تعينهم على استخدام بواعث سيئة للقيام بأعمال يعدونها حسنة ، ان من السهل اذا احتيج الى جهود جماعة ان يحفزوا الى بذلها

بانماء الرغبة في التفوق على جماعة اخرى . فانك اذا رغبت في حمل حي من احياء مدينة على تحسين الوسائل العامة للعناية بالاطفال كان عليك ان تبين ان نسبة وفيات الاطفال في حي مجاور قد انخفضت ، واذا أردت ان تغري صاحب مصنع باستخدام عملية جديدة ظاهر انها احسن من القديمة كان عليك ان تؤكد له خطر المنافسة ، واذا أردت ان تقنع وزارة الحربية بأن قدرأ متوسطاً من المعلومات الحربية مستعجب في القواد ذوي الرتب العالية ، ولكن لا ، فليس الى ذلك سبيل حتى ولا بإثارة الخوف من الهزيمة لتأصل تقاليد (الآسياد) المترفين^١ . فنحن لا نعمل شيئاً لتشجيع روح الانشاء والبناء لذاتها او لحمل الناس على الاهتمام باجادة عملهم ولو لم يكن في ذلك ضرر بأحد . ولنظامنا الاقتصادي دخل في هذا اكثر من الالعب المدرسية ، لكن الالعب المدرسية كما هي الآن تقوم على روح المنافسة ، فاذا أريد ان تحمل محلها روح التعاون كان من الضروري احداث تغيير في الالعب المدرسية . لكن ايفاء هذا الموضوع حقه يخرجنا بعيداً عن نطاق بحثنا . فاني لا أنظر الآن في بناء الدولة الصالحة ولكن في بناء الفرد الصالح بقدر ما تسمح به الحال في الدولة القائمة بالفعل ، نعم ان تحسين الفرد وتحسين الجماعة يجب ان يسيرا يداً في يد ، لكن الفرد هو الذي يعنى به بوجه خاص من يكتب في التربية .



(١) انظر (الكتيبة السرية) بقلم الكابتن فرديناند توهي (موري ، ١٩٢٠) الفصل السادس .

- ٦ -

خاصية التنشئة

سبق لنا ان نظرنا في موضوع هذا الفصل عرضاً فيما يتعلق باللعب ، ونريد الآن ان ننظر فيه لذاته .

ان رغبات الاطفال الغريزية كما رأينا مبهمة ، وتستطيع التربية والفرص أن تصرفها الى سبل شتى ، فلا الاعتقاد القديم في الخطيئة الاصلية ولا ايمان روسو بالفضيلة الفطرية بالذي يتفق مع الواقع ، ان مادة الغريزة الخام ليس لها صفة خلقية ويمكن تشكيلها اما للخير واما للشر بتأثير البيئة . وهناك ما يدعو الى تفاؤل معتدل في ان معظم غرائز الناس ، بصرف النظر عن المرضى منهم ، تكون في اول الامر قابلة للتشكل اشكالاً صالحة ، ولو اعطيت الحالات المرضية ما ينبغي لها من التقويم العقلي والبدني في سنواتها الاولى لقل عددها جداً . وفي مقدور التربية الصحيحة أن تجعل العيش طبق الغريزة ميسوراً ، لكنها ستكون عندئذ غريزة مدربة مهذبة ، لا تلك النزعة الفطرية غير المشكلة التي هي كل ما تمدنا به الطبيعة . والمهذب العظيم للغريزة هو المهارة : المهارة التي تمدنا بأنواع من

الرضا دون انواع. أعط الانسان الانواع الصالحة من المهارة يصر فاضلاً، وأعطه الأنواع الخاطئة أو لا تعطه مهارة ما يصبح فاجراً .

هذه الاعتبارات العامة تنطبق بصفة خاصة على ارادة القوة ، فنحن جميعاً نحب ان نعمل شيئاً ما ، ولكننا فيما يتعلق بحب القوة لا يهمنا ماذا نعمل . وعلى العموم فكلما صعب الممول زاد سرورنا به ، فالناس يحبون الصعب من الصيد ويعرضون عن صيد الطائر الجاثم لسهولته . وقد اخترت هذا المثل لأن الانسان ليس له فيه غاية السرور بهذا الوجه من النشاط لكن المبدأ نفسه ينطبق في كل موضع . لقد احببت الحساب حتى تعلمت اقليدس ، واحببت اقليدس حتى تعلمت الهندسة التحليلية ، وهلم جراً . والطفل يبتهج في أول الامر بالمشي ثم بالجري ثم بالقفز والتسلق . فما نستطيع ان نعمله بسهولة يصير عادياً لا يثير فينا الاحساس بالقوة ، انما الذي يذيقنا نشوة النجاح هو المهارة الحديثة الاكتساب ، او المهارة التي لم نتمكن منها بعد ، وهذا هو السبب في ان ارادة القوة لا نهاية لتكيفها تبعاً لنوع المهارة التي يعلمها الانسان .

والبناء والهدم كلاهما يرضي ارادة القوة ، لكن البناء عادة أصعبها ولذا فهو ارضى للشخص الذي يستطيعه . ولن احاول ان أعرف البناء والهدم تعريف المتحذلقين ، لكنني سأفترض على وجه التقريب اننا نبغي عندما نزيد في الطاقة الامكانية للمجموعة التي هي موضع اهتمامنا ، ونهدم عندما ننقص تلك الطاقة . وبتعبير اقرب الى لغة علم النفس : نحن نبني عندما ننتج بنية طبق تصميم سابق ، ونهدم عندما نطلق القوى الطبيعية لتغير من بنية موجودة ، غير مهتمين بما تكون عليه البنية الجديدة . ومهما يكن الرأي في هذه التعاريف فاثنا كلنا نعرف في عملنا متى يعتبر النشاط بنائياً ، اللهم الا في حالات قليلة يزعم فيها الشخص انه يهدم لبني من جديد ، ولسنا على ثقة من اخلاصه فيما يدعي .

واذ كان الهدم اسهل فان العاب الأطفال تبدأ به عادة ولا تنتقل الى البناء الا

في مرحلة تالية ، فالطفل الذي يلعب على الرمل مجردل يحب من الكبار ان يصنعوا له فطائر رملية ليهدمها بمجرافه ، لكنه بمجرد استطاعته عمل الفطائر الرملية بنفسه يبتهج بصنعها ولا يسمح لأحد بهدمها . والطفل عندما يحصل على لبن اللعب للمرة الاولى يحب ان يهدم ما يبنيه الكبار من ابراج ، لكنه بعد ان يتعلم البناء بنفسه يصبح فخوراً معجباً بما يبني ، ولا يحتمل ان يرى جهوده المعمارية قد استحالت الى اكوام . فالواقع الذي يجعل الطفل يتلذذ باللعب واحد تماماً في المرحلتين ، لكن ما استحدثه من مهارة مكتسبة غير النشاط الناتج عن هذا الدافع .

وتنشأ البدايات الاولى لكثير من الفضائل من تذوق سرور القدرة على البناء ، وعندما يرجوك الطفل ان تدع بناياته سليمة تستطيع بسهولة ان تفهمه ان عليه ألا يهدم بنايات غيره ، وبهذه الطريقة تستطيع ان تخلق فيه احتراماً لعمل الغير ، اي لمصدر الملكية الخاصة الوحيد الذي لا ضرر فيه من الوجهة الاجتماعية ، وبذلك تمد الطفل ايضاً بما يحفزه الى الصبر والمثابرة والملاحظة ، وهي الصفات التي بدونها لن ينجح في بناء برج الى العلو الذي تتوق اليه نفسه . وينبغي في اللعب مع الاطفال ألا تبني بنفسك الا ما يكفي لاثارة الطموح فيهم ولبيان طريقة البناء ، فاذا بلغت هذا فاترك البناء لجهودهم انفسهم .

واذا كان في استطاعة الطفل ان يصل الى حديقة ، فمن السهل ان ترقى مملكته البنائية الى شكل أدق وأعقد . ان اول ما ينزع اليه الطفل في الحديقة ان يقطع كل زهرة تجذبه ، ومن السهل ان نكفه عن هذا بالمنع ، لكن مجرد المنع لا يكفي للتربية ، فان المطلوب ان نوجد في الطفل نفس الاحترام للحديقة الذي يحول بين الكبار وبين قطف الزهور جزافاً ، واحترام الكبار لها راجع الى ادراكهم مقدار العمل والجهد اللازمين لانتاج ما سرهم منها . ومن الممكن عندما يبلغ الطفل الثالثة من عمره ان يعطى ركناً من الحديقة يشجع على البذر فيه ، فعندما تنبت بذوره وتزهر تبدو له الازهار ثمينة معجبة ، وعندئذ

يستطيع ان يدرك ان ازهار امه ايضاً يجب ان تلقى منه عناية وحفظاً .

وأسهل طريقة تؤدي الى اجتناب القسوة العمياء هي ايجاد الاهتمام بالنساء والنماء . ان كل طفل تقريباً يرغب في قتل الذباب وغيره من الحشرات بمجرد وصوله الى السن المناسبة ، وهذا يؤدي به الى قتل حيوانات اكبر وفي النهاية الى قتل البشر . ففي الاسرة الانجليزية من الطبقة العالية يعتبر قتل الطيور موضع تقدير وثناء ، كما يعتبر قتل الرجال في الحرب اشرف الحرف . ووجهة النظر هذه تماشي الغريزة التي لم تهذب ، غريزة الذين ليسوا على شيء من المهارة البنائية ، فمجزوا عن ان يجدوا اي عمل بريء تتمثل فيه ارادتهم للقوة . انهم يستطيعون ان يمتدوا طيور الغاب ويضيقوا على المستأجرين الخناق ، ويستطيعون اذا سنحت فرصة ان يرموا بالرصاص كركدن أو المانيا . اما الفنون الأنفع فليسوا منها على شيء ، لأن آباءهم ومعلميهم ظنوا انه يكفي ان يجعلوا منهم انجليزاً سادة . اني لا اعتقد انهم يولدون أغبي من غيرهم من المواليد ، وانما ترجع نقائصهم فيما بعد الى سوء التربية وحدها . فلو انهم من اول العمر أرشدوا الى تقدير الحياة بمراقبتهم ترعرعها مراقبة المالك العطوف ، او انهم اكتسبوا من المهارة البنائية اشكالا ، او انهم حملوا على ان يدركوا في تخوف كيف يسهل تحطيم ما بني في الزمن الطويل بالخطر الكثير - لو ان هذا كله كان جزءاً من تربيتهم الخلقية الاولى لما كانوا على مثل هذا الاستعداد لهدم ما بناه الآخرون ورعوه بالكد والجهد . والمربي العظيم من هذه الناحية في الحياة المقبلة هو الأبوة بشرط ان تنبه غريزتها تنبيهاً كافياً ، لكن تنبيهها يندر بين الاغنياء لأنهم يتركون رعاية اطفالهم لمحترفين مأجورين ، ولذلك لا نستطيع ان ننتظر حتى يصيروا آباء قبل ان نبدأ في استئصال ميولهم الهدمية .

ان كل مؤلف استخدم خادمت جاهلات يعرف ان من الصعب (وقد يود الجمهور لو كان مستحيلاً) ان يكبح شغفهم بإيقاد النار بأصول مؤلفاته ، وما كان ليخطر على بال زميل في التأليف ان يفعل مثل هذا ولو كان عدواً حسوذاً

لأنه تعلم بالخبرة قيمة مثل تلك الأصول . كذلك الولد الذي له حديقة لن يطاء
بقدميه أحواض زهور الناس ، والولد الذي له حيوانات أليفة يعزها يمكن تعليمه
احترام الحياة الحيوانية ، واحترام الحياة البشرية قريب من قلب كل من عني
بأولاده . ان ما نقاسيه في العناية بأولادنا من نصب هو الذي يفجر في نفوسنا
الحنان الوالدي الأقوى ، اما الذين يتجنبون هذا النصب فيصيب غريزة الأبوة
فيهم من الضمور ما يجعلها مجرد احساس بالتبعة ، على ان الوالدين يكونون
أجدر وأقرب ان يعنوا بأطفالهم اذا كانت نزعاتهم البنائية قد نمت فيهم الى
تمامها ، فلهذا السبب ايضاً يستحب جداً الالتفات الى هذه الناحية من التربية .

اني عندما اتكلم عن ملكة البناء لا اقصد البناء المادي وحده فان اعمالاً
كالتمثيل والغناء الجوقي تستلزم بناء تعاونياً غير مادي ، وهي تروق كثيرين من
الاطفال والاحداث وينبغي تشجيعها (لا فرضها) . ومن المستطاع حتى في
الامور الذهنية البحتة ان يكون للانسان ميل الى البناء او الهدم . وتعليم
الآداب القديمة يكاد كله يقوم على النقد ، فيه يتعلم الصبي ان يتجنب الاخطاء .
وان يحتقر من يقعون فيها ، وهذا من شأنه ان يوجد نوعاً من الحرص على
الصواب يحل فيه احترام رأى الثقات محل الابتكار ، فاللاتينية الصحيحة قد
حددت وانتهى الامر ، فهي لغة فرجيل وشيشرون . اما العلم الصحيح ففي تغير
مستمر ، وللشباب القدير ان يتطلع الى المساهمة في هذا التغير ، فوجهة النظر التي
توجدتها التربية العلمية اقرب ان تكون الى البناء أميل من تلك التي توجدتها
دراسة اللغات الميتة . فحينما كان تجنب الخطأ هو رأس ما يرمى اليه في التربية
مالت الى ايجاد طراز من العقلية لا يجري فيه دم ، لذلك ينبغي ان نضع امام
جميع القديرين والقديرات من الفتيان والفتيات ان يتطلعن الى استخدام معارفهم
في عمل فيه بعض المغامرة . وما اكثر ما ينظر الى التربية العالية كأنها وظيفتها
منح ما يشبه السلوك الحسن ، أي منح مجرد عرف سلبى نتجنب به أخطاء
السلوك . ففي مثل هذه التربية تنسى ملكة البناء ، ويكون الطراز الذي تخرجه

من الناس في العادة ، كما قد ينتظر ، طراز يحرص على السفساف غير مغامر ولا كريم . وكل هذا يتجنب اذا جعل العمل الايجابي هدف التربية .

وينبغي في أواخر سنوات التربية ان تنبه ملكة البناء الاجتماعي ، وأقصد بذلك ان الذين فيهم كفاية من ذكاء ينبغي ان يشجعوا على استخدام خيالهم في استنباط اساليب اجدى وانفع في استغلال القوى الاجتماعية الموجودة بالفعل او في خلق قوى جديدة . ان الناس يقرأون جمهورية افلاطون لكنهم لا يصلون بينها وبين السياسة الجارية بصورة ما . ولما قلت ان الحكومة الروسية في سنة ١٩٢٠ كان لها مثل عليا تكاد تكون عين مثل جمهورية افلاطون دهش الافلاطونيون والبلاشفة معاً وامتعضوا . وصور النظام الاجتماعي يمكن ان تضرب لها امثال كثيرة أكثرها شيوعاً القالب والآلة والشجرة ، فالأول يمثل التصورات الجامدة للمجتمع كتلك التي كانت في سبارطة والصين القديمة ، والتي تقتضي ان تصب الطبيعة البشرية في قالب معد لتجمد على شكل مرسوم من قبل . فالرجل الذي يظفي على نظرتة هذا التشبيه تكون له نظرة سياسية من نوع معين جامد لا يلين ، وصارم لا يعفو . والرجل الذي يشبه المجتمع بالآلة أقرب الى العصر الحديث ، اليه ينتسب كل من رجل الصناعة ورجل الشيوعية ، فكلاهما لا تعنيه الطبيعة البشرية ، واغراض الحياة عندهما بسيطة تتلخص عادة في زيادة الانتاج الى اقصى حد ، وتحقيق هذه الاغراض البسيطة هو المقصود عندهما من التنظيم الاجتماعي ، والعقبة في سبيلهما ان الآدميين كما هم لا يرغبون في تلك الاغراض ، ويصرون على صنوف شتى من أشياء فوضى لا قيمة لها في نظر العقل المنظم المرتب . وهذا يحمل المنظم على الرجوع الى القالب ليخرج آدميين يرغبون فيما يراه هو حسناً . وهذا بدوره يؤدي الى الثورة .

والرجل الذي يشبه النظام الاجتماعي بشجرة ستختلف نظرتة السياسية عن هذا . ان الآلة الرديئة يمكن استهلاكها والاستعاضة عنها بأخرى ، لكن الشجرة اذا قطعت لا يمكن لشجرة جديدة ان تبلغ مثل قوتها وحجمها الا بعد مضي

زمن طويل . ثم ان الآلة او القالب هما ما يختارهما صانعهما ، اما الشجرة فلها طبيعتها الخاصة ولا سبيل الى تغيير نوعها ، وكل ما يمكن هو ان تجعل منها فقط مثلاً أحسن او مثلاً اسوأ . والملكة البنائية حين تطبق على الاشياء الحية تختلف تماماً عنها حين تطبق على الآلات . فعملها في الاشياء الحية اكثر تواضعاً ويحتاج الى نوع من العطف . لهذا ينبغي حين تنميتها في الصغار ان نهد لهم فرص التدريب عليها في النباتات والحيوانات ، لا في قوالب اللبن والآلات فحسب . ان علم الطبيعة قد سيطر على الفكر منذ ايام نيوتن ، وعلى الاعمال منذ الثورة الصناعية ، وهذا قد جر معه تصوراً للمجتمع اقرب الى الآلية . وجاء التطور الذي قال به علم الحياة بمجموعة جديدة من الافكار اظهرها الانتخاب الطبيعي ، وهو ما ينبغي ان نرمي الى تخلص الشؤون البشرية منه عن طريق التربية وعلم اصلاح النسل وضبطه . فتصور المجتمع كشجرة أفضل من تصوره كقالب أو آلة ، لكن لا يزال فيه نقص ، علينا لسد النقص أن نتطلع الى علم النفس . وملكة البناء المعتمدة على علم النفس نوع جديد لم يفهمه الناس الا قليلاً ، وهو ضروري لتكوين نظرية صحيحة للتربية والسياسة وكل امر انساني بحث . وينبغي ان تكون له السيطرة على أخيلة اهل الوطن الواحد اذا أريد الا تضللهم التشبيهات الكاذبة . ويوجس بعض الناس خيفة من ملكة البناء في الشؤون الانسانية لأنهم يخشون ان تكون آلية حتماً ، ومن ثم يؤمنون بالفوضى و (بالعودة الى الطبيعة) . وفي هذا الكتاب احاول ان أبين بالأمثلة المحسوسة كيف ان البناء النفساني يختلف عن بناء الآلة . والجانب الخيالي منه ينبغي ان يجعله التعليم العالي مألوفاً للجميع ، فلو كان كذلك لزال من السياسة فيما اعتقد ما فيها من ضيق الفكر والحدة والنزوع الى الهدم ، فتصبح مطاوعة علمية حقاً ، ويصبح هدفها تنشئة رجال ونساء أمجاد .

* * *

حب النفس والحياة

سأتناول الآن مسألة شبيهة بمسألة الخوف من حيث أننا نتصدى فيها لدافع قوي بعضه غريزي واكثره غير مستعجب . وفي مثل هذه الحالات جميعها ينبغي ان نحذر فلا نقاوم طبيعة الطفل . ان من العبث ان نغض العين عن طبيعتها او ان نتمنى لو انها خالفت ما هي عليه ، بل يجب ان نتقبل المادة الخام الموجودة ، فلا نحاول معالجتها بأساليب لا تنطبق الا على مادة تخالفها .

وحب النفس ليس مدر كاً محدوداً في علم الاخلاق ، فكلما زدناه تحليلاً ازداد غموضاً ، لكنه محدد تماماً كما يبدو في المحضن ، وعنه تنشأ مشاكل لا بد من مغالبتها . ان اكبر طفلين اذا ترك وشأنه يفتصب لعب اصفرهما ويطالب بأكثر من نصيبه من عناية الكبار ويسعى على العموم وراء رغباته غير حافل بابتئاس الاصفر . فالنفس البشرية كالغاز يتمدد على الدوام ما لم يكفه ضغط خارجي . وهدف التربية من هذه الناحية ان تجعل الضغط الخارجي هو العادات والافكار والميول العاطفية في عقل الطفل نفسه ، لا الضرب واللكم والعقاب . والفكرة

اللازمة في هذا الباب هي العدل لا تضحية النفس . ان كل انسان له حق حيز معين في هذه الدنيا ، وينبغي ألا يشعره احد بأنه شرير اذا قام يطالب بما هو حق له . والناس حين يعلمون تضحية النفس يعلمونها فيما يبدو لا على انهم سيعملون بها تماماً ، ولكن على رجاء انهم سيأخذون منها بالقدر القريب من الصواب . لكن الواقع ان الناس اما ان يفشلوا في تعلم هذا الدرس ، واما ان يشعروا انهم آثمون حين يطالبون بالعدل المجرد ، واما ان يصلوا في تضحية النفس الى حد غير معقول ، وعندئذ لا تخلو نفوسهم من حقد على الذين آثروهم على انفسهم ، واكبر الظن انهم يسمحون لحب النفس ان يرتد اليهم متنكراً في صورة المطالبة بالشكر . وعلى كل حال فتضحية النفس لا يمكن ان تكون مذهباً صحيحاً لأنها غير قابلة للتعميم . ومن المكروه البغيض ان تعلم الباطل كوسيلة الى الفضيلة لأنه اذا انكشف الباطل تلاشت الفضيلة ، اما العدل فعلى عكس ذلك يمكن تعميمه ، واذا فالعدل هو المعنى الذي ينبغي ان نحاول ان نبثه في افكار الطفل وعاداته .

ومن الصعب ان لم يكن من المستحيل تعليم العدل لطفل منفرد عن أقرانه . ان حقوق الكبار من الناس ورغباتهم تختلف عن نظائرها في الاطفال الى حد انها لا تجد في خيالهم أدنى استجابة ، ولا يكاد يوجد تنافس مباشر بين الكبار والاطفال في سرور من باب واحد . ولما كان الكبار في مركز يمكنهم من فرض الطاعة لأوامرهم لم يكن بد من ان يكونوا هم القضاة في قضيتهم ، فلا يحدثون في الطفل الأثر الذي تحدثه محكمة محايدة . ان في وسعهم بالطبع ان يصدروا تعليمات توصي بهذا النوع من السلوك المناسب او ذاك ، مثل الا يقطعوا على أهمهم عذباً قطع الفسيل ، وألا يرفعوا اصواتهم حين يكون والدهم مشغولاً ، وألا يقحموا مسائلهم الخاصة عند وجود زوار . لكن هذه مطالب لا تفسر لها عند الطفل . صحيح ان الطفل يخضع لها عن طيب خاطر اذا كانت يلقى عطفاً فيما عداها ، لكنها لا تقع من نفسه موقع القبول عنده .

ومن الصواب حمل الطفل على اطاعة مثل هذه القواعد ، لأن من الواجب

ألا نسمح له بأن يطفئ ، ولأن من الواجب ان يفهم ان الناس لهم مشاغل يهمهم التفرغ لها وان بدت له هو غريبة . لكن مثل هذه الطرق لا تؤدي الى اكثر من السلوك الحسن في الظاهر . اما التربية الصحيحة على العدل فلا تتأتى الا حيث يوجد مع الطفل اطفال غيره ، وهذا واحد من اسباب عديدة يتمتع من اجلها ألا يترك الطفل فريداً مدة طويلة . وعلى الوالدين اللذين قضى سوء الحظ ألا يكون لهما سوى طفل واحد ان يبذلا كل ما في وسعها ليظفرا له بأصحاب ولو استدعى ذلك ابعاده عن البيت فترات كبيرة اذا لم تيسر وسيلة اخرى . ان الطفل المنفرد ينشأ مكبوتاً او محباً لنفسه ، وربما كانها معاً بالدور . ان الطفل الوحيد المؤدب يرثى له ، وغير المؤدب يكون بلاء ونصباً ، وهذا الامر أدعى للتعب والاهتمام في هذه الايام التي صغرت فيها الأسر عنها في الايام التي قبلها . وهو من اسباب الدعوة الى مدارس الحضانة ، تلك التي سأقول عنها اكثر من هذا في فصل قادم . لكنني سأفترض الآن ان الاسرة تحوي طفلين على الأقل غير مختلفين كثيراً في السن حتى تكون أذواقها واحدة الى حد كبير . وحين تنافس الاطفال في مسرة لا يتسنى لهم الاستمتاع بها الا على التناوب ، مثل ركوب عربة يد ، فسنجد انهم سرعان ما يفهمون العدل . نعم ان كلا منهم ينزع الى ان يستأثر بالمسرة دون الباقين ، لكن من المدهش سرعة تغلبهم على هذه النزعة حين يقضي الكبار بينهم بأن لكل واحد منهم دوراً في الاستمتاع . اني لا اعتقد ان الاحساس بالعدل طبيعي ، لكن ما رأيت من سرعة امكان ايجاده فيهم يحملني على العجب . طبعاً لا بد ان يكون عدلاً حقيقياً وألا يكون هناك تمييز خفي لطفل على طفل . فاذا كنت أشغف ببعض الاطفال منك ببعض وجب ان تكون على حذر من ان تجعل لعواطفك أثراً في قسمتك المسرات بينهم . ومن المسلم به طبعاً ان اللعب يجب ان يتساوى للجميع .

ومن العبث ان تحاول ان تلقي رغبة الاطفال في العدل بأي نوع من التدريب الخلقى ، لا تعط اكثر مما يقتضيه العدل لكن لا تنتظر من الطفل ان يقنع بما

دونه . وفي كتاب اسرة فيرتشايلد فصل عن (آثام القلب المستترة) يوضح الطرق التي يجب تجنبها . لوسي ترى نفسها انها احسنت السلوك ، فتقول لها أمها انها وان كان سلوكها حسناً فان افكارها خاطئة ، وتروي لها مستشهادة (ان القلب خداع قبل كل شيء وانه جد شرير) - (أرميا ١٧ و ٩) . ثم تعطي السيدة فيرتشايلد لوسي دفترأ صغيراً لتدون فيه الاشياء (الجد الشريرة) التي في قلبها حين تكون طيبة المسلك في الظاهر . وفي الفطور يعطي والدها لأختها شريطة ولأخيها كرزاً ولا يعطيها شيئاً ، فتكتب في دفترها انها في تلك اللحظة خطر لها خاطر شرير جداً وهو ان والديها يحبان أختها وأخاها اكثر مما يحبانها . وقد علموها فاعتقدت انه ينبغي عليها ان تغالب هذا الخاطر بقوة الخلق ، لكن هذه الطريقة لا ينتج عنها سوى دفن هذا الخاطر في زوايا نفسها ليحدث في السنوات الآتية آثاراً غريبة ملتوية . وكان المسلك الواجب بالنسبة لها ان تعبر عن شعورها ، وبالنسبة لوالديها ان يزيلا ما علق بنفسها اما باعطائها ايضاً هدية او بافهامها انه يجب عليها الانتظار الى مرة قادمة ، اذ ليس هناك هدية حاضرة يهديانها اليها . ان الصدق والصراحة يببدان الصعاب ، لكن محاولة التأديب عن طريق الكبت انما تزيد في وطأتها .

ويتصل بالعدل اتصالاً وثيقاً حاسة الملكية ، وهي امر صعب يحتاج في معالجته الى لباقة تتكيف حسب الظروف ، لا الى أية مجموعة من القواعد الجامدة . وهناك في الواقع اعتبارات متضاربة يصعب معها اتباع خطة واضحة . فحجب التملك ينتج من جهة شروراً كثيرة مروعة في مستقبل السنين ، اذ الخوف من فقدان ما باليد من ممتلكات مادية قيمة هو مصدر رئيسي للقسوة السياسية والاقتصادية . فمن المستحب ان يجد الرجال والنساء سعادتهم قدر الامكان في سبيل لا تخضع للملكية الخاصة ، اي في اوجه للنشاط انشائية لا دفاعية . لهذا السبب ليس من الحكمة ان تزرع في الاطفال حاسة الملكية ما وجدنا عنها مندوحة ، لكن هناك حججاً قوية لدى الجانب الآخر من الخطر اغفالها قبل

ان نـشـرـع في العـمـل بـهـذا الرأـي . واول هـذه الحـجـج ان حـاسـة المـلـكـيـة قـويـة جـداً في الاطـفـال ، وانهـا تـظـهـر بـمـجـرـد اسـتـطـاعـتـهـم القـبـض عـلـى الاشـيـاء الـتي يـرونها (توافـق الـيـد والـعـيـن) فـما يـمـسـكـونـه يشـعـرون انه مـلـكـهـم ، واذا اخـذ مـنـهـم ثـارت ثـائـرتـهـم . والـطـفـل الـذي لا يـمـلـك لـعـباً خـاصـة به يـلـتـقـط مـن الـارـض عـصـياً او قـطـع الـآجـر ، او اي اشـيـاء تـافـهـة يـعـثـر عـلـيـها فيـحـفـظـها ويـكـنـزها لـنـفـسـه هو وـحـده . فالـرـغـبـة في المـلـك مـتـأصـلة في النـفـوس تـأصـلاً مـن الخـطـر مـقاوـمـته . زد عـلـى ذلـك ان المـلـكـيـة تـحـمـل عـلـى العـنـايـة ، وتـكـف عـن نـزـعـة الـهـدم . وأنـفـع ما تـكـون المـلـكـيـة اذا كـانـت لـشـيء صـنـعه الـطـفـل بـنـفـسـه ، فاذا نـحـن أبـيـنـاها عـلـيـه ، عـطـلـنا وصـدـدنا نـزـعـاته البـنـائـيـة .

وتضارب الحـجـج هـكـذا يـحـول دـون اتـخـاذ سـيـاسـة مـحـددة ، ويضـطـرنا أن نـسـتـرشد الى حد كـبـير بالظـروف وبطـبـيـعة الـطـفـل . عـلـى انـنا نـسـتـطـيع ان نـقـول بـضـع كـلمات عـلـى سـبـيل التـوفـيـق العـمـلي بـيـن هـذه الأضـداد

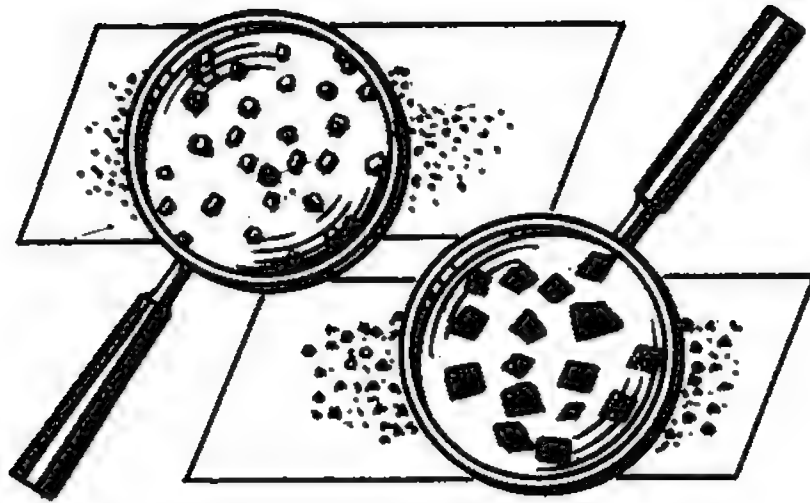
يـنـبـغي ان يـكـون مـن بـيـن اللـعـب ما هو خـاص وما هو مـشـاع . فالـحـصـان الـهـزاز مـثـلاً يـكـون بطـبـيـعة الحال مـشـاعاً دائماً ، وهـذا يـوحـي بـقـاعـدة : اذا كـانـت اللـعـب مـما يـمـكـن ان يـسـتـمـتـع به الـجـمـيـع عـلـى السـواء ، ولـكـن عـلـى التـناوـب فـقـط ، وـجـب ان تـكـون مـشـاعـة ان لم يـمـكـن تـعـددها لكـبـرها أو لـغـلوها . وعـلـى عـكـس ذلـك اللـعـب الـتي تـنـاسـب طـفلاً أكـثـر مـن طـفـل (بسـبـب اخـتـلاف السـن مـثـلاً) فهـذه أـولى بـها الـطـفـل الـذي هـي أـمـتـع له وأـسـر ، واذا كـانـت اللـعـبـة تـحـتـاج في اللـعـب بـها لـعـنـايـة تـعـلمها اكـبر طـفـلـين ، فـمـن العـدل الا يـسـمـح لأصـغـرهما بـإمـساكها وافـسـادها ، لـكـن يـنـبـغي ان يـعـوض عـنـها بـتـمـلـيـكـه لـعـبـة تـنـاسـب عـمره . وبعـد سـن الثـانـيـة يـنـبـغي اذا تـسـبـب الـطـفـل في كـسـر لـعـبـة باهـماله ألا نـسـارع الى اعـطـائه بـدلاً مـنـها ، فـمـن المـصـلـحـة ان يشـعـر الـطـفـل بالخـسـارة زـمناً ما . ولا تـدع الـطـفـل يـرـفـض دائماً أن يـلـعـب غـيـره بـلـعـبه الخـاصـة ، فـكـلـما كان الـذي عـنـده مـنـها أكـثـر مـا يـسـتـطـيع اسـتـعـماله فعلاً وـجـب ألا يـسـمـح له بالـاجـتـبـاج عـنـدما يـلـعـب طـفـل آخـر ببـعـض ما لـيـس يـسـتـعـمله مـنـها ، اللـهـم الا اذا كـانـت اللـعـب مـما يـحـتمـل ان يـكـسـرها الـطـفـل الآخـر ، أو كان هو قد

ركب منها تركيبة هي موضع زهوه . فالى ان ينسى الطفل ما ركبته ينبغي ان يظل ما ابتناه قائماً ان أمكن مكافأة له على مجهوده . وفيما عدا ذلك لا تسمح للطفل ان يصير من لعبه كالكلب في المذود ، بل يجب ألا يسمح له قط بأن يحول دون سرور طفل آخر من غير داع . وليس من العسير ان نعلم الطفل قدراً صالحاً من ادب المعاملة في مثل هذه الاحوال ، وهذا القدر من تأديبه يستأهل ما يتطلبه من حزم . لا تسمح لطفل ان يخطف من طفل آخر شيئاً ولو كان الشيء له ، واذا قسا أكبر طفلين على الآخر فأظهر نحو الكبير مثل قسوته على الصغير ، وفسر له في الحال سبب ذلك . وبمثل هذه الوسائل لا يصعب ان تؤسس في الاطفال ذلك القدر من التعاطف اللازم لمنع عواصف الغضب الدائم وذرف الدموع . وقد يلزم من حين لآخر استخدام شيء من الشدة ولو بلغت مبلغ العقوبة الخفيفة ، لكن يجب ألا يسمح بأية حال ان يعتاد الطفل الطغيان على من هو أضعف منه من الاطفال .

ومع السماح للطفل بعدد معين من اشياء محببة اليه يمتلكها ، يحسن تشجيع عادة اللعب بالألعاب مثل اللبن يكون للطفل وحده الحق المطلق فيها اثناء استعمالها . فجهاز منتسوري مشاع لجميع الاطفال ، لكن ما دام أحدهم يستخدم قطعة منه فليس لغيره من الاطفال ان يتدخل فيها ، وهذا ينمي حاسة الاحتكار المؤقت المبني على العمل . ومثل هذه الحاسة لا تتعارض مع أي شيء مرغوب فيه في المستقبل . وهذه الطريقة لا تكاد تصلح للأطفال الصغار جداً لأنهم لم يبلغوا بعد المبلغ الكافي من حب البناء ، لكن كلما ازدادت مهارتهم ازداد امكان ترغيبهم في عملية البناء . وما داموا يعرفون ان في استطاعتهم الحصول على مادة البناء كلما ارادوا ، فلن يهتموا كثيراً بحصول غيرهم ايضاً عليها . ونفورهم في المشاركة في أول الأمر سيزول سريعاً بالتعود ، ومع ذلك فينبغي في رأبي أن يسمح للطفل باقتناء الكتب عندما يصل الى السن المناسبة ، لأن هذا يزيد في حبه لها ، وبذلك يحفزه الى المطالعة . وينبغي ان تكون الكتب التي يمتلكها

كتباً جيدة بقدر الامكان ، لا من سقط الكتب ، فاذا رغب الاطفال في السقط
وجب ان يكون مملوكاً مشاعاً .

ان المبادئ الاجمالية المتضمنة فيما سبق هي : اولا - لا تجعل الطفل يشعر
انه محروم لعدم كفاية ما يمتلكه والا جعلت منه بخيلاً . وثانياً - اسمح للطفل
بالملكية الخاصة اذا نبه ذلك منه نشاطاً مستحباً ، وبخاصة اذا علمه تناول
الاشياء بعناية ، وفيما وراء ذلك حوّل اهتمامه ما استطعت الى المسرات التي لا
تستلزم ملكية خاصة . وحتى حين يكون للطفل ملكية خاصة لا تسمح له بأن
يكون دنيئاً او بخيلاً حين يرغب غيره من الاطفال ان يأخذوا بحظ من اللعب
بأشياءه . ولتذكر ان الغرض من هذا هو ان تغري الطفل بالاعارة عن رغبة
واختيار ، ولن تكون حققت هذا الغرض ما دمت تحتاج فيه الى استخدام
سلطتك . والطفل السعيد يسهل تحريكه الى الكرم ، اما اذا كان محروماً من
المسرات فسيبعض طبعاً بالنواجذ على ما تيسر له منها . ان الاطفال لا يتعلمون
الفضيلة عن طريق تحمل الآلام ، ولكن عن طريق السعادة والصحة .



الصِّدْق

من مهام اهداف التربية الخلقية تكوين عادة الصدق ، ولا أقصد الصدق في الكلام وحده ، ولكن في الفكر ايضاً ، بل يبدو لي ان ثانيها أهمها . اني أفضل من يكذب وهو يشعر أنه يكذب على من يخدع نفسه أولاً من حيث لا يشعر ثم يتوهم انه فاضل وصادق . والواقع ان الشخص الصادق في تفكيره لا يمكن ان يعتقد ان من الخطأ دائماً أن يقول ما ليس بحق . ان الذين يرون أن الكذبة اثم دائماً يضطرون الى تكميل هذا الرأي بقدر كبير من السفسطة ومن التمرن على الاتهام في القول يخدعون به الناس من غير ان يعترفوا لأنفسهم بأنهم يكذبون . ومع ذلك فاني ارى ان الظروف التي تبرر الكذب قليلة — أقل كثيراً مما تدل عليه فعال ذوي العقول الراجحة . والكثرة الكاثرة من الظروف التي تبرر الكذب ظروف تغطي فيها القوة أو يكون الناس فيها مشغولين ببعض الأعمال الضارة كالحرب ، ولذا فان من شأنها في المجتمع الصالح ان تكون أندر حتى مما هي عليه الآن .

والعمل بغير الصدق يرجع في الكثير الغالب الى الخوف . فالطفل المنشأ في غير خوف يكون صادقاً لا بفضل جهد أخلاقي يبذله ولكن لأنه لن يخطر له ان يكون غير صادق . وللطفل المعامل بحكمة عينان فيها الصراحة ، وسجية ليس فيها خوف حتى مع الغرباء ، في حين يكون الطفل المنهور المقهور في فزع دائم من الاستهداف للتوبيخ ، يخشى كلما اتبع سليقته أن يكون قد خالف بعض القواعد . وليس يخطر للطفل الصغير في أول الامر ان الكذب ممكن . وامكان الكذب يكون بالنسبة له اكتشافاً يرجع الى ما يشاهده من الكبار ، ويستحثه اليه الفزع . فالطفل يكتشف ان الكبار يكذبون عليه ، وان من الخطر عليه ان يخبرهم الصدق ، وبتأثير هذه الظروف يأخذ في الكذب . تجنب هذه البواعث فلا يخطر الكذب للطفل على بال .

لكن لا بد من حذر في الحكم على الاطفال هل هم صادقون ، ذلك ان ذكريات الاطفال كثيراً ما تخطيء ، وهم في الغالب لا يعرفون جواب سؤال حين يظن الكبار انهم يعرفونه ، وحاسة تقدير الزمن عندهم مضطربة مبهمه فلن يستطيع الطفل الذي دون الرابعة ان يميز بين أمس وبين اسبوع مضى ، او بين أمس وست ساعات خلت ، وهم يميلون عندما يجهلون جواب سؤال الى ان يجيبوا بنعم او بلا حسبما توحى به نبرات صوتك . ثم انهم كثيراً ما يتكلمون بلسان شخصية تمثيلية يتخيلونها في انفسهم ، وليس يلتبس عليك هذا عندما ينبئونك جادين ان في الحديقة الخلفية أسداً ، لكن ما اسهل ان يحسب الانسان لعبهم جداً في كثير من الحالات . لهذه الاسباب كلها يغلب ان تكون اقوال الطفل الصغير غير صحيحة في ذاتها ، لكن من غير أدنى قصد منه الى الخداع ، بل ان الاطفال ينزعون في أول الامر الى اعتبار الكبار ملهمين بكل شيء ، وانهم اذا لا يمكن ان يخدعوا . ويسألني ابني (وسنه ٣/٣ سنة) ان أقص عليه (من باب الحكاية) ما حدث له في ظرف معين يهمه لم أكن حاضره ، وعبثاً احاول اقناعه بأنني لا أعرف ما حدث . ان الطفل يرى الكبار يحيطون بكثير من الاشياء

بطرق لا يفهمها فلا يستطيع ان يضع حداً لمقدرتهم . وفي عيد الفصح الماضي أعطى ابني عدداً من بيض عيد الفصح المصنوع من الشوكولاته فأخبرناه انه سيمرض اذا أكل منه اكثر مما ينبغي ثم تركناه وشأنه ، فأكل اكثر من اللازم ومرض ، وبمجرد ان مرت أزمة المرض جاءني يتהלل وجهه ويقول بصوت فيه رنة الفوز : (لقد مرضت يا أبت - أبي اخبرني اني امرض ان فعلت) . وقد أدهشني ما بدا عليه من سرور بتحقيق قانون علمي طبقته . ومن ذلك الحين كان من المستطاع ان نأمنه على الشوكولاته على الرغم من ندرة حصوله عليها ، وفوق هذا فهو يثق بكل شيء نقوله له عن الصالح من الطعام وغير الصالح ، ولم نجح في بلوغ هذه النتيجة الى وعظ او عقاب او تخويف ، ولكن احتجنا في المراحل قبل ذلك الى صبر وحزم . وهو الآن مشرف على السن التي فيها يسرق الاولاد الحلوى عادة ويكذبون اذا سئلوا عنها ، واعتقد انه سيسرق احياناً ، ولكنني سأندهش ان كذب . واذا كذب طفل بالفعل فان على الوالدين ان يرجعا باللائمة على نفسيهما لا عليه ، وعليهما ان يعالجا الامر بازالة اسبابه ، وبأن يبينوا له في هدوء وتعقل لماذا كان عدم الكذب خيراً ، وعليهما ان يتجنبنا علاج الامر بالعقاب فان ذلك انما يزيد في الخوف اي في الباعث على الكذب .

وبالطبع لا مناص مطلقاً من توخي الكبار الصدق الدقيق مع الاطفال اذا أريد الا يتعلموا الكذب . فالوالدان يفقدان بطبيعة الحال كل سلطان ادبي على اطفالهما اذا كانا يعلمانهم ان الكذب إثم ، بينما يعرف الاطفال على الرغم من ذلك انهما يكذبان . وفكرة التحدث الى الاطفال بالصدق جديدة كل الجدة ، فما كان احد لياخذ بها قبل جيلنا هذا ، فقد كان من دأب الوالدين ان يصوروا انفسهم اطهاراً معصومين من الاهواء الشديدة ، يسيرهم على الدوام العقل والمنطق ، واذا أنبوا الاطفال أنبؤهم عن اسف لا عن غضب ، ومهما وبخوا لم يحنقوا ، ولكن يكلمون الاطفال لمصلحتهم . ولم يكن الآباء يدركون ان للاطفال بصيرة صافية الى حد مدهش ، فهم وان لم يفقهوا الاسباب الداعية الى التهويش والاحتيسال ،

يحتفرونه في صراحة وبساطة . فبواعث الغيرة والحسد التي لا تشعر بها انت ، تتجلى لطفلك ، فتجعله يضرب صفحاً عن كل ما تنمقه له من حديث اخلاقي عن خبث اولئك الذين كانوا موضع تلك الغيرة وذلك الحسد . لا تدع ابداً انك معصوم من الخطأ ومن زلات البشر ، فان الطفل لن يصدقك ، وان صدقك فلن يزداد بذلك حباً لك . اني لأذكر الان بوضوح كيف نفذ بصري وانا في اوائل عمري الى النفاق والتهويش اللذين كانا يحيطان بي في العهد الفكتوري ، وكيف اقسمت اذا قدر وكان لي اطفال الا اكرر الاخطاء التي ارتكبت معي . وهأنذا أبر بالقسم ما استطعت .

ونوع آخر من الكذب سيء جداً للنشء : ان تهدد بعقوبات ليس في نيتك توقيعها . وقد صاغ الدكتور بلارد هذا المبدأ في عبارة قوية في كتابه الممتع عن (المدرسة المتغيرة)^١ اذ يقول في ص ١١٢ : (لا تهدد ، لكن اذا هددت فلا تدع شيئاً يحول دون تنفيذ ما هددت به . اذا قلت لصبي : « افعل ذلك مرة اخرى وانا اضربك » وفعله مرة اخرى ، تحتم عليك عندها ان تضربه ، فان لم تفعل ذهب كل احترام لك عنده) . والعقوبات التي يهدد بها المربيات وجهالة الآباء والأمهات صفار الاطفال اقل تطرفاً من هذا ، ولكن تدخل في نفس القاعدة . تجنب الاصرار الا لسبب قوي ، لكن اذا بدأت تصر بالفعل فامض فيه مهما أحسست بالندم على بدئك المعركة . واذا اردت ان تهدد بعقوبة فلتكن عقوبة انت مستعد لتوقيعها . واياك ان تتكل على البخت في ستر تهويشك ان ينفذ . ومن عجب ان هذه القاعدة يصعب افهامها لغير المتعلمين من الناس . ومن أبغض ما يفعلونه التهديد بشيء يرعب كتسليم الطفل الى الشرطة ليحبسه ، او الى العفريت ليذهب به ، فمثل هذا يحدث في اول الامر فزعاً عصبياً خطراً ثم شكاً تاماً في جميع الاقوال والتهديدات التي يفوه بها الكبار . واذا كنت لا

(١) هودير وستوغتون ١٩٢٥ .

تصر على شيء الا امضيته ، فسرعان ما يتعلم الطفل ان المقاومة عبث في مثل تلك الظروف ، ويطيع الكلمة منك من غير متعبة ، لكن من الضروري لنجاح هذه الطريقة ، ألا تصر الا اذا كانت لديك اسباب قوية تدعو الى الاصرار .

ونوع آخر من الخداع غير المستحب معاملة الجماد كأنه حي ، فقد يحدث احياناً ان بعض المربيات اذا رأين الطفل قد آذى نفسه بالاصطدام بكرسي او منضدة ، أن يعلمنه ضرب هذا الجماد ومخاطبته بقول : (كرسي وحش) و (منضدة وحشة) ، وهذا يحرم الطفل من مصدر للتأديب الطبيعي مفيد ، فلو ترك الطفل وشأنه لادرك بسرعة ان الجمادات لا يجدي في تناولها الا المهارة لا الغضب ولا الملق ، فيحفزه هذا الى كسب المهارة ويعينه على ادراك حدود مقدرة الانسان الشخصية .

يسأل الاطفال غير المكبوتين أسئلة لا حصر لها ، بعضها مهم وبعضها غير مهم . وكثيراً ما تكون هذه الاسئلة مملة وأحياناً مربكة ، لكن عليك ان تجيب عنها جميعاً بالصدق ما استطعت . اذا سألك الطفل سؤالاً يتصل بالدين فقل ما تعتقده بالضبط ، ولو ناقضت غيرك من الكبار . واذا سألك عن الموت فأجبه ، واذا سألك اسئلة يقصد منها التدليل على انك شرير او احمق فأجبه ، واذا سألك عن الحرب او عن عقوبة الاعدام فأجبه . لا تدفعه عنك بقولك : (انك لا تستطيع الآن فهم ذلك) الا في الشؤون العلمية الصعبة مثل كيف يصنع النور الكهربائي ، وحتى في مثل هذا بيّن له ان الجواب مسرة مدخرة له الى أن يتعلم اكثر مما يعرفه الان ، واخبره بأكثر قليلاً مما يستطيع فهمه لا بأقل . فان الجزء الذي يعجز عن فهمه سينبه فيه الاستطلاع والطموح الذهني .

ان الذين يصدقون الطفل دائماً يحنون ثمة ذلك زيادة ثقة فيهم ، فعند الطفل نزعة طبيعية أن يصدق ما تقوله له الا اذا تعارض مع رغبة قوية عنده ، كما في حالة بيض عيد الفصح التي ذكرتها لك ، فمتى جرب الطفل صدق ملاحظاتك

ولو في مثل تلك المسائل ، استطعت بسهولة ان تفوز باعتقاده ما تقول من غير حاجة الى تأكيد . لكنك اذا اعتدت تهديده بعواقب لا تتحقق فلن تجد بداً من ان تزداد معه اصراراً وله ارباباً ، ثم في النهاية لا توجد فيه الا شكاً وقلقاً . استأذني ابني ذات يوم ان يلعب في جدول ماء فقلت له لا تفعل لأنني اظن ان فيه بعض زجاج قد يخرج قدميك ، وكانت رغبته شديدة فتشكك في أمر الزجاج ، لكنه اقتنع وسكن بعد ان وجدت قطعة وأريته حرقها الحاد . ولو انني كنت اخترعت فكرة الزجاج لأمنعه بها لفقدت ثقته ، ولو انني لم أجد شيئاً منها لكان عليّ ان آذن له بالنزول الى الماء . وقد كان من نتائج تجارب متكررة من هذا النوع ان انقطع تقريباً عن التشكك فيما أبدية له من اسباب .

اننا نحيا في دنيا خداع ورياء ، واذا نشأ الطفل خالياً منها فانه يحتقر الكثير مما تواضع الناس على احترامه ، وهذا مما يؤسف له ، لأن الاحتقار عاطفة سيئة ، ولا أرى ان ابنه الطفل الى مثل تلك الامور ، وان كنت لا أخرج كلما اتجه اليها من ان ارضي حب الاطلاع عنده . والصدق عقبة في سبيل صاحبه في مجتمع يسوده النفاق ، لكن هذه العقبة يرجحها ويفوقها فوائد عدم التهيّب الذي بدونه لا يتأتى للانسان ان يكون صادقاً . اننا نحب لأبنائنا ان يكونوا مستقيمين صرحاء يحترمون انفسهم ، واني شخصياً أوثر ان يفشل اولادي لاتصافهم بهذه الصفات على ان ينجحوا بأساليب العبيد . فالآدمي الماجد لا بد له من قدر من العزة الذاتية والاستقامة ، وحيثما وجد هذا استحال الكذب ، الا عندما يمليه وازع خير . واني لأوثر ان يتصف اطفالي بالصدق في تفكيرهم وفي اقوالهم ولو جر ذلك عليهم سوء الحظ في الدنيا ، لأن الامر هنا أهم من الغنى والجاه .



العقاب

كان عقاب الاطفال والاولاد والبنات في العصور الخالية والى عهد قريب جداً معتبراً أمراً عادياً ، وكان الاجماع منعقداً على أنه لا غنى عنه في التربية . وقد عرفنا من فصل سابق رأي الدكتور ارنولد في الضرب ، وكانت آراؤه هذه رحيمة جداً في ايامه . وروسو معروف بنظرية ترك الامور للطبيعة ، ومع ذلك فهو في اميل يدافع من آن لآخر عن عقوبات فيها شدة وصرامة الصورة التقليدية ، ومنذ مئات السنين كانت النظرة المألوفة خارجة من واحدة من القصص التحذيرية : بنت صغيرة تجلب الضوضاء لأنهم ألبسوها وشاحها الابيض بينما كانت تريد وشاحها القرنفلي .

بابا ، في غرفة الجلوس اسمع
يأتي ضوضاء وشغب
في لحظة ذهب الى كارولين
لضربها ، هناك دون ريب

وكان المستر فيرتشايلد اذا وجد اطفاله يتشاجرون ضربهم بالعصا، وكما يقال في الشعر (دع الكلاب تفرح لنباحها وأماها) كان يسوقهم بعد ذلك لرؤية جثة معلقة بسلاسل من مشنقة، وكان من بينهم ولد صغير ارتاع من خشخشة السلاسل في الريح وتضرع اليهم ان يذهبوا به الى البيت، لكن المستر فيرتشايلد أجبره على النظر زمنـاً طويلاً قائلاً ان هذا المنظر يوضح مصير اوائك الذين تنطوي قلوبهم على الكراهية، وكان ينوي ان يجعل من الطفل قسيساً فكأنه أراد ان يعلمه كيف يصور الالهوال التي تفتنظر من حقت عليهم اللعنة تصوير من شاهدها ومارسها .

اما في ايامنا هذه فيندر ان تجد من الناس من يدافع عن مثل تلك الأساليب حتى «تنسي»، لكن هناك خلافاً مذكوراً بين الناس فيما ينبغي ان يحل محل تلك الأساليب، فبعض الناس لا يزال يدافع عن قدر مذكور من العقوبات بينما يرى غيرهم ان في الامكان الاستغناء عنها بتاتا، وبين هذين الطرفين مجال لألوان كثيرة من الرأي .

اني شخصياً اعتقد ان للعقاب مكاناً معيناً ثانوياً جداً في التربية، لكنني أشك في هل من حاجة قط الى الشدة فيه، واني أعد من العقوبات الحدة او الاغلاظ في القول، واعتقد ان اقصى عقوبة يمكن ان تدعو الحاجة اليها التعبير الطبيعي عن السخط توأ، وقد حدث في احيان قليلة كان فيها ابني خشناً مع اخته الصغيرة ان أظهرت امه غضبها منه بصرخة انطلقت منها كان تأثيرها على الولد بالغاً. اذ انفجر باكياً، ولم يهدأ الا بعد ان لاطفته امه كثيراً، وكان الأثر بعدها عميقاً كما تجلى في سلوكه الحسن مع اخته. وقد لجأنا الى عقوبات خفيفة في احيان قليلة أصر في بعضها على طلب اشياء كنا قد منعناه إياها، وفي بعضها على التدخل في لعب اخته، وفي مثل هذه الاحوال كنا اذا اخفق التعقيل والنصح نأخذها الى حجرة نخلفه فيها وحيداً ونترك الباب مفتوحاً ونقول : لك ان تعود الينا متى صلحت. فكان بعد ان يقضي دقائق معدودة في بكاء شديد

يجيء الينا ويظل بعد ذلك حسن السلوك ، اذ يدرك تماماً ان عودته الينا تتضمن تعهداً منه ان يستقيم ، ولم نجد الى الآن اية حاجة تدعو الى عقوبات اشد . واذا كان لنا ان نحكم مما نقرأ في كتب المؤدبين الأقدمين وجدنا الاطفال الذين تربوا بالأساليب العتيقة اكثر خروجاً واقل امتثالاً من الاطفال الحديثين ، فلو ان طفلي بلغ من سوء السلوك نصف ما بلغه اطفال اسرة فيرتشايلد هـالياني الامر حقاً ، لكن العيب في ظني يرجع الى الوالدين اكثر مما يرجع الى الاطفال ، فالوالدان المعقولان يأتیان في اعتقادي بأطفال معقولين . ان الاطفال يجب ان يحسوا من والديهم بالمحبة ، يحسوا لا بالواجب والمسؤولية اللذين لا يشعر اي طفل بامتنان من اجلهما - ولكن بالحب الصادق الذي ينبهج بالطفل وأساليبه . وكل منع للطفل وحظر عليه يجب ان يفسر له تفسيراً واضحاً صادقاً ، اللهم الا اذا استحال ذلك تماماً . ومن الخير ان نؤثر احياناً ان يصاب الطفل برضوض او جروح بسيطة على ان نحول بينه وبين الالعب التي تعرضه لها ، فخبرة قليلة من هذا النوع تجعل الاطفال أميل الى تصديق ان الخطر قد يكون من الحكمة ، فاذا توفرت هذه الشروط في اول الامر فسيندر في اعتقادي ان يقترف الاطفال ما يستحق العقاب الشديد .

وعندما يتدخل الطفل باصرار في اعمال غيره من الاطفال او يفسد عليهم مسراتهم فالعقوبة البديهة نفيه ، ولا بد على اي حال من اتخاذ خطوات ما ، اذ من الظلم تركه يؤذي بتدخله الاطفال الآخرين . لكن لا فائدة ترجى من جعل الطفل المعاند يشعر انه مجرم ، فأولى من ذلك واقرب الى المقصود ان تجعله يشعر بأنه يحرم نفسه من مسرات يتمتع بها غيره من الاطفال . وفيما يلي وصف مدام منتسوري لطريقتها في ذلك :

« بخصوص العقوبات فقد صادفنا مراراً اطفالاً يضايقون غيرهم غير عابئين بنصائحنا ، فمثل هؤلاء كان يفحصهم الطبيب في الحال اذا ما تبين ان الطفل طبيعي عزلناه في ركن من اركان

الحجرة نضع له فيه منضدة صغيرة وكرسيًا صغيراً مريحاً بحيث يستطيع وهو جالس عليه ان يرى زملاءه يعملون وامتدنا باللعب والألعاب الأحب اليه ، فكان هذا العزل يفلح في الغالب الكثير في تهدئة الطفل . كان الطفل من حيث يجلس يرى الجمع كله يشتغل . وكانت الطريقة التي يقوم بها رفقاؤه بأعمالهم درساً عملياً له سحر أكثر من اي كلمات يمكن لمعلم ان يقولها ، وشيئاً فشيئاً كان الطفل يدرك ميزة كونه فرداً من افراد جماعة تعمل يجد واقبال امام عينيه ، وكان يتمنى حقيقة ان يعود فينضم اليهم ويفعل كما يفعلون . فبهذه الطريقة استطعنا ان نعيد الى النظام جميع الاطفال الذين كان يبدو في اول الامر انهم خارجون عليه . وكان الطفل المعزول دائماً موضع عناية خاصة كما لو كان مريضاً تقريباً ، واني نفسي عندما كنت ادخل الغرفة كنت اذهب اليه مباشرة كما لو كان طفلاً صغيراً جداً ، ثم أحول عنايتي الى الآخرين مبدية اهتمامي بأشغالهم وسائلة اياهم عنها كما لو كانوا رجالاً صغاراً . ولست أدري ما كان يحدث في نفوس هؤلاء الاطفال الذين كنا نضطر هكذا الى تأديبهم ، لكن تحولهم كان دائماً تحولاً تاماً باقياً ، فكانوا يظهرون فخراً وزهواً بتعلمهم كيف يعملون وكيف يسلكون ، وكانوا يبدون على الدوام تعلقاً كبيراً بالمعلم او المعلمة وبي .

ونجاح هذه الطريقة قام على عدة عوامل لم تتوفر في المدارس التي من الطراز القديم . فهناك كان اولاً التخلص من الاطفال الذين يرجع سوء سلوكهم الى نقص صحي ، كان هناك كياسة وبراعة في تطبيق الطريقة ، لكن النقطة الحيوية

(١) (طريقة منتسوري) هاينان سنة ١٩١٢ ص ١٠٣ .

كانت في الحقيقة حسن سلوك جمهرة الفصل ، فقد كان الطفل يشعر بأنه معارض للرأي العام الذي يحترمه بفطرته ، وهذا بالطبع موقف مخالف تماماً لموقف المعلم الذي يجد نفسه امام فصل مصر كله على (التهريج) . وليس في نيتي ان ابحث الطرق التي ينبغي للمعلم استخدامها لأن الحاجة اليها لم تكن لتنشأ لو ان التربية سارت كما ينبغي من مبدأ الامر . ان الاطفال يحبون ان يتعلموا الاشياء بشرط ان تكون اشياء مناسبة تعلم بالطريقة المثلى . وفي اعطاء المعلومات يرتكب نفس الخطأ الذي ارتكب في مرحلة سابقة فيما يتعلق بالطعام والنوم ، ذلك ان ما هو مفيد للطفل في الواقع يطلب منه كما لو كان معروفاً يسديه . فمن السهل ان يظن صغار الاطفال ان السبب الوحيد للأكل والنوم هو أن الكبار يرغبون في ذلك ، وهذا يجعل منهم مرضى أرق سببه سوء الهضم ، فما لم يكن الطفل مريضاً فدعه يترك طعامه ويقوم جائعاً ان شاء . كان ابني قد اعتاد ان تستدرجه المربية الى الاكل ، وازداد على الزمن تأبياً ، وفي ذات يوم حين كان يتناول الغذاء معنا رفض (الحلو) حين قدم وصرفنا الخادم به ، وبعد قليل طلبه فتبين ان الطاهية قد أكلته ، فأسقط في يده ولم يتظاهر بمثلها مرة اخرى . هذه الطريقة نفسها ينبغي ان تطبق بالضبط على التعليم ، فالذين لا يرغبون فيه ينبغي ان يسمح لهم بتركه على ان يضمن وقوع الملالة بهم اذا غابوا وقت الدرس ، حتى اذا ما رأوا غيرهم يتعلمون فسيجأرون في الحال مطالبين بأن يعلموا ، وعندئذ يستطيع المعلم ان يظهر بمظهر المحسن اليهم اذا اجابهم الى ما طلبوا ، وهذا هو الوضع الصحيح . وينبغي في نظري ان يكون بكل مدرسة غرفة فسيحة عارية يستطيع التلاميذ الذين لا يرغبون في الدرس ان يذهبوا اليها ، فاذا ما دخلوها لم يؤذن لهم في العودة الى الدروس ذلك اليوم ، وينبغي ان يرسلوا الى هذه الغرفة على سبيل العقاب اذا ساء سلوكهم وقت الدرس . فالقاعدة فيما يبدو بسيطة ، هي ان العقاب ينبغي ان يكون شيئاً تريد ان

يكرهه المسيء ، لا شيئاً تريد ان يحبه ، وعلى الرغم من ذلك ترانا نعاقب الطفل احياناً بتكرار كتابة قطعة ادبية في الوقت الذي ندعي فيه اننا نريد تحبيب الآداب اليه .

والعقوبات الخفيفة لها موضعها في معالجة المخالفات الخفيفة لا سيما ما يتصل منها بالسلوك . والثناء واللوم شكلان مهمان من اشكال الجزاء والعقاب للأطفال الصغار ولئن هم اكبر منهم من البنين والبنات ، اذا صدرا من شخص محترم عندهم . وليس من الممكن في اعتقادي القيام بالتربية بغير الثناء واللوم ، لكن لا بد من شيء من الحذر فيها كليهما . فينبغي اولاً الا ينطوي ايها على مقارنة ما . ينبغي الا يقال للطفل انه فعل خيراً من فلان او ان فلاناً لا يتشيطان ابداً ، فالاول يولد الكراهية . وينبغي ثانياً ان يكون استخدام اللوم اقل كثيراً من استخدام الثناء ، ينبغي ان يكون اللوم عقوبة محددة تنزل بالطفل من اجل انحراف غير منتظر عن السلوك الحسن ، ولا يجوز ابداً ان تستمر بعد ان تحدث اثرها . وينبغي ثالثاً الا يكون الثناء من اجل شيء حقه ان يكون عادياً مألوفاً ، انما يمنح الثناء من اجل مظهر جديد للشجاعة او البراعة ، او من اجل نكران للذات يتصل بما يملكه الطفل ان اقتضى ذلك مجاهدة منه لنفسه . ففي مراحل التربية كلها ينبغي الثناء على كل عمل صعب قام به ، والرغبة في هذا السرور لا غبار عليها كعافز اضافي ، لكن لا يصح ان تكون هي الدافع الاساسي ، اذ الدافع الاساسي ينبغي دائماً ان يكون الاهتمام بالامر من حيث هو ، ايا كان ذلك الامر .

والعيوب الخلقية الخطيرة كالقسوة يندر ان يمكن معالجتها بالعقاب ، او بالاحرى ينبغي ان يكون العقاب جزءاً صغيراً من المعالجة . والقسوة على الحيوانات طبيعية في الاولاد الى حد ما ونحتاج لمنعها الى تربية يقصد بها الى هذا ، فمن اسوأ التدبير ان تنتظر حتى تعثر على ولدك يعذب حيواناً فتأخذ انت في تعذيب الولد ، فهذا لا يعدو ان يجعله يتمنى ان لم يكن كشف أمره .

ان الواجب ان نرقب البدايات الاولى لما يمكن ان يتطور فيما بعد الى قسوة .
علّم الولد احترام الحياة ولا تدعه يراك تقتل حيواناً ولو كان زنبوراً أو
أفعى ، فان لم تستطع فعليك ان تبين له بعناية تامة لماذا تفعل ذلك حين تفعله .
واذا فعل شيئاً فيه قليل من الغلظة الى طفل صغير ، فافعل نفس الشيء اليه في
الحال ، فسيحتج وعندئذ تستطيع ان تبين له انه اذا شاء ألا يفعل هذا به
وجب ألا يفعله بغيره ، وبهذه الطريقة ينتبه بقوة الى ان لغيره مشاعر كمشاعره .

وواضح أن من مستلزمات هذه الطريقة ان يبكر بها وان تطبق في الصغير
من هفوات الغلظة ، اذ الاصرار البسيطة التي يلحقها الطفل بغيره هي وحدها
التي تستطيع ان تنزل به مثلها ، واذا استطعت اتباع هذه الخطة فلا تجعلها
تبدو وكأن المقصود منها العقوبة لا التعليم ، فقل مثلاً : (انظر ، فهذا هو الذي
فعلته بأختك الصغيرة) ، فاذا ما احتج على عملك فقل له : (اذا كان هذا ما
ضايقك فيجب الا تفعله بأختك) وما دامت العملية كلها بسيطة وفي الحال
فسيفهم الطفل وسيتعلم وجوب مراعاة شعور الغير ، واذا روعي هذا فلن تقع
ابداً قسوة ذات بال .

ويجب ان يكون الارشاد الخلقي على التو وبالتخصيص ، يجب ان ينشأ من
موقف جاء بطبيعته بحيث لا يتعدى ما ينبغي عمله في ذلك الموقف . وسترى
ان الطفل يطبق بنفسه المغزى المستنبط من حالة على شبيهاتها ، فادراك المثل
المحدد ، وتطبيق المشابه من الاعتبارات على المشابه من الحالات ، اسهل بكثير
على الطفل من فهم قاعدة عامة وتطبيقها عن طريق الاستنباط . لا تقل له بصورة
عامة (كن شجاعاً) . (كن شفوفاً) ولكن حرضه على عمل معين فيه جرأة
حتى اذا اتاه قل له : (مرحى لقد كنت ولداً شجاعاً) . اجعله يترك اخته
الصغيرة تلعب بقطاره ، وعندما يرى وجهها اشرق ابتهاجاً قل له : (أحسنت
لقد كنت ولداً شفوفاً) . واتبع نفس القاعدة في معالجة القسوة . ترقب ظهور
أوائلها الواهنة وامنعها من النمو .

واذا حدث على الرغم من جميع جهودك ان نجحت فيه قسوة خطيرة في سن متأخرة وجب ان تعير الامر اكبر اهتمام وتعالجه باعتباره مرضاً . ينبغي ان يعاقب الولد ، بمعنى ان يقع به ما لا يستسيغه كما يقع له اذا مرض بالحصبة ، لا بمعنى اشعاره بأنه شرير . ينبغي ان يعزل زمناً عن غيره من الاولاد وعن الحيوانات ويبين له ان السماح له بالاختلاط بهم غير مأمون العاقبة ، وينبغي ان نجعله يدرك قدر المستطاع ماذا كان يصيبه من الالم لو انه عومل بمثل قسوته . وينبغي ان نجعله يشعر بأن مصاباً عظيماً حل به ، الا وهو نزوعه الى القسوة وان من هم اكبر منه يحاولون حمايته من وقوع مثل ذلك المصاب في المستقبل ، واني اعتقد ان مثل هذه الطرق تنجح نجاحاً تاماً في جميع الاحوال ، الا حالات مرضية قليلة .

والعقوبة البدنية في اعتقادي لا تكون أبداً صواباً ، فالحفيف منها يحدث قليلاً من الضرر من غير ان ينفع ، واني مقتنع بأن الشديد منها يولد القسوة والوحشية . صحيح أنها لا تسبب في الغالب حقداً على موقعها ، فان الاولاد عندما تجري بها العادة يتكيفون بها ويتوقعونها كأمر تقضي به طبيعة الاشياء ، ولكنها تقرر في أذهانهم ان توقيع العقوبة البدنية لتوطيد السلطة قد يكون محموداً وهو درس له ضرره وخطره ، لا سيما اذا علمناه أولئك الذين ينتظر أن يتبوأوا مراكز ذات سلطان ، وهو يهدم علاقة الثقة الصريحة التي ينبغي ان توجد بين الوالدين والاطفال وكذلك بين المعلمين والتلاميذ . ان الوالد الحديث يريد ان يكون أطفاله في حضوره من البعد عن التخرج كما يكونون في غيابه ، يريد أن يستشعروا السرور حين يرونه قادماً . انه لا يريد هدوءاً مصطنعاً وهو يرقبهم ، حتى اذا ولاهم ظهره انقلب هدوؤهم عاصفة هوجاء . ان في كسب محبة الأطفال خاصة فرحاً يعدل اي فرح تأتي به الحياة . وأجدادنا لم يعرفوا عن هذا الفرح شيئاً ولذا لم يعرفوا أنه يفوتهم . كانوا يعلمون الاطفال ان (واجبهم) محبة والديهم ، ثم كانوا يتصرفون بحيث يجعلون القيام بهذا الواجب

شبه مستحيل . والناس لم يحاولوا الفوز بعاطفة الحب الحقيقية من أبنائهم مما استحوذت عليهم فكرة ان الحب واجب يمكن أدائه بالأمر ، لذلك ظلمت العلاقات البشرية مجردة جافية قاسية ، وكان العقاب جزءاً من هذا التصور الكلي ، ومن عجب ان رجالاً لم يكن ليخطر ببالهم ان يرفعوا يدهم على امرأة كانوا على أتم استعداد لانزال العذاب بطفل أعزل . ومن لطف الله ان غلب وذاع بالتدريج في خلال القرن الاخير تصور خير من ذاك للعلاقات بين الوالدين والأطفال فتبدلت بظهوره نظرية العقاب كلها . واني آمل ان الافكار المستنيرة التي بدأت تسود عالم التربية ستمتد بالتدريج الى العلاقات البشرية الاخرى ايضاً ، لان الحاجة اليها هناك لا تقل شيئاً عن الحاجة اليها في معاملتنا أطفالنا .



أهمية أقران الطفل

كنا فيما مضى ننظر فيما يستطيع الوالدان والعلمون ان يعلموه بأنفسهم في سبيل تكوين النوع الصحيح من الخلق في الطفل ، لكن هناك أموراً كثيرة لا سبيل اليها الا بمساعدة اقرانه من الاطفال ، ويزداد هذا القول صفاً كلما تقدم الطفل في السن حتى اذا ما وصل الى الجامعة صارت أهمية الاقران بالنسبة له اعظم منها في اي وقت آخر . ان اتراب الطفل ليس لهم ادنى أهمية في الاشهر الاولى من السنة الاولى من حياة الطفل ، ونفعهم في الاشهر الثلاثة الاخيرة منها ضئيل ، وفي تلك المرحلة لا يستفيد الطفل الا من الاطفال الذين يكبرونه بقليل . ان الطفل البكر في اسرة يكون عادة ابطاً من اخوته في تعلم المشي والكلام ، اذ يصعب عليه فيها تقليد الكبار الذين يتقنونها كل الاتقان . ان طفلاً في الثالثة من عمره انموذج انسب لطفل في السنة الاولى من عمره ، لأن اعماله اقرب الى ما يود الطفل الأصغر ان يعمل ، ولأن مقدوره لا يبدو كأنه فوق طاقة البشر . والاطفال يحسون ان غيرهم من الاطفال اشبه بهم من الكبار ، فطموحهم اذاً

اكثر تنبها بما يفعله الاطفال منه بما يفعله الكبار . والاسرة وحدها هي التي تهيم
فرصة هذه التربية عن طريق تأثير الاطفال الاكبر من الطفل الاصغر سناً . ومعظم
الاطفال حين يخبرون يؤثرون اللعب مع الاطفال الاكبر منهم لانهم يحسون
عندئذ انهم (عظام) لكن هؤلاء الاطفال الاكبر يؤثرون بدورهم ان يلعبوا مع
اطفال يكبرونهم ، وهم جراً ؛ ونتيجة ذلك ان الاطفال في المدرسة او في
شوارع احياء الفقراء المدقع ، او في اي مكان آخر يكثرون فيه وتكثر بذلك
فرصة الاختيار من بينهم ، يلعبون في الكثير الغالب مع اترابهم لان الاكبر من
بينهم يأبى اللعب مع الاصغر ، وبذا يؤول الامر الى ان ما يتعلمه الاصغر عن
الاكبر لا يمكن تعلم معظمه الا في البيت . وموطن الضعف من هذا ان الولد
الاكبر في كل اسرة يكون محروماً من فوائد هذه الطريقة ، وكلما صغرت
الاسر زادت فيها نسبة الاطفال الاكبر ، فموطن الضعف هذا اذاً في ازدياد .
فالاسر الصغيرة في غير مصلحة الاطفال من بعض الوجوه الا اذا تمتها مدارس
الحضانة . لكن الكلام عن مدارس الحضانة سيكون موضوع فصل آت .

ان الاطفال الاكبر والاطفال الاصغر والاتراب كل له فوائده ، لكن فوائد
الاطفال الاكبر والاصغر محصورة في الغالب في الاسرة للأسباب التي ذكرناها
آنفاً . والفائدة العظمى للأطفال الاكبر هي ان اعمالهم للاصغر بمثابة مطامح في
مقدورهم ان يبلغوها . والطفل يبذل جهوداً عظيمة كي يرى اهلاً للعب مع طفل
اكبر منه . والطفل الاكبر يسلك بطبيعته مسلك غير المكتثر ، فلا يحتاط
ولا يتصنع كما يفعل الكبار حتماً في ألعابهم مع الاطفال ، ولو صدر عدم الاهتمام
نفسه من كبير نحو طفل لآله ، لان الكبير له قوة وسيطرة ، ولانه يلعب ليسر
الطفل لا ليسر نفسه ، فالطفل ينقاد في بشر الى أخ اكبر او اخت انقياداً
يستحيل ان ينقاده الى بالغ الا عن اسراف في التأديب . فخير من يعلم الطفل
التعاون مع الانقياد هم غيره من الاطفال ، وهو درس اذا ما حاول الكبار تعليمه
الصغار استهدفوا لخطرين متضادين ، الغلظة والتصنع - الغلظة اذا تطلبوا

التعاون الحقيقي ، والمتصنع اذا قنعوا بمظهر التعاون . ولست اقصد انه يجب على الدوام تجنب التعاون الحقيقي او المتصنع ، لكنني اقصد ان التعاون في اللعب بين الطفل والبالغين يعوزه الاقبال الممكن ان يكون بين طفلين اكبر واصغر ، واذا فلا يمكن ان يقترن عند الطرفين بالسرور المتصل ساعات متواليات .

في خلال الشباب كله يظل لمن هم اكبر بقليل نفع خاص في التعليم ، لا في التعليم الرسمي ، ولكن في ذلك التعليم الذي يقع خارج اوقات الدرس ، فالولد الاكبر قليلاً او البنت يظل دائماً ذا اثر فعال في الحفز الى الطموح وفي استطاعته اذا كان فيه رفق ان يفسر الصعوبات خيراً من شخص بالغ لحداثة عهده . بالتغلب عليها . وقد تعلمت حتى في الجامعة ممن يكبرونني بسنوات قليلة كثيراً مما لم أكن لأستطيع تعلمه من السادة الوقورين المحترمين ، واعتقد ان هذا الذي وجدته عام في كل جامعة لا تكون الحياة الاجتماعية فيها قد قسمتها الفرق الدراسية الى طبقات منفصلة . لكنه بطبيعة الحال يكون مستحيلاً حين يحسب الطلبة الأكبر - وكثيراً ما يحسبون - ان كرامتهم يحط منها اتصالهم بمن هم دونهم في أي شأن من الشؤون .

والاطفال الاصغر لهم فوائدهم كذلك لا سيما فيما بين الثالثة والسادسة ، وفوائدهم هذه تظهر بنوع خاص فيما يتعلق بالتربية الخلقية ، فما دام الطفل مع البالغين فلا فرصة لديه لممارسة عدد من الفضائل ذات الشأن ، وأعني تلك التي يحتاجها القوي في معاملة الضعيف . فالطفل عليه ان يتعلم الا يغتصب الاشياء من اخيه الاصغر او اخته ، والا يبالغ في الغضب عندما ينهدم البرج الذي شيده من الطوب باصطدام الطفل الاصغر به عن غير قصد ، وألا يكنز اللعب التي لا يستعملها هو ويشتهيها غيره . والطفل عليه ان يتعلم ان من السهل ايذاء من هو اصغر منه بالمعاملة الجافة ، وان يحس بالندم اذا تسبب في إسالة دموع غيره من غير داع . وفي حماية الطفل الاصغر يستطيع ان يكلم الاكبر بحدة ومفاجأة لا

يبررها الا ظروف كهذه ، اكنهما لهما فوائدهما التي ترجع الى ما يتركان من أثر راجع الى عدم توقعهما .

كل هذه دروس نافعة لا يكاد يتسنى اعطاؤها عنفواً بأية وسيلة اخرى . ان من الحق وتضييع الوقت ان نعطي الطفل تعليمات خلقية مجردة . كل شيء يجب ان يكون محسوساً ملموساً يقتضيه الظرف الواقع . فكثيراً مما يعده الكبار تربية خلقية يبدو للطفل الصغير كأنه تعليم كتعليم استعمال المنشار ، فالطفل يشعر عندئذ أنه يعلم كيف يعمل الشيء المراد عمله ، وهذا احد الاسباب التي تجعل للمثال اهمية كبيرة . ان الطفل الذي يرقب النجار في عمله يحاول ان يقلد حركاته ، كذلك الطفل الذي يرى والديه يسلكان دائماً مسلك الرفق والرعاية يحاول ان يقلدهما في هذه الناحية ، وفي كل من الحالتين يكتسب الطفل اكباراً لما يريد تقليده . فلو انك اعطيت طفلك درساً جدياً في استعمال المنشار وكنت انت على الدوام تستخدمه ساطوراً لم تستطع ابداً ان تجعل من طفلك هذا نجاراً ، كذلك اذا كنت تحثه على الرفق بأخته الصغيرة ولم تكن انت بها رقيقاً ، ذهبت تعاليمك كلها عبثاً . من اجل هذا اضطررت الى ان تفعل شيئاً يسبب بكاء طفل صغير كتنظيف أنفه مثلاً ، كان عليك ان تشرح للطفل الاكبر السبب الذي يضطرك لذلك ، والا فمن المحتمل جداً ان يقوم مدافعاً عن الصغير ، فيقاتلك لتكف عن قسوتك . انك اذا تركته يظن بك القسوة ، فقدت المقدرة على كف نزعاته هو الى الظلم والطغيان .

على انه اذا كان للأكبر والاصغر من الاطفال اهمية ، فان اهمية الاطفال المتقاربي الاتراب اعظم ، لا سيما من الرابعة فما بعدها . ان السلوك ازاء الأنداد هو ألزم ما يتعلم المتعلم . ان اكثر الفروق في الدنيا الحاضرة متكلفة مصطنعة ، ومن الخير ان نتجاهلها في سلوكنا . يتوهم الاغنياء انفسهم ارفع من طبائخهم ويسلكون معهم مسلكاً يختلف عن مسلكهم في المجتمع ، لكنهم يشعرون انهم أحط من الامير ويعاملونه معاملة تتم عن احتقارهم انفسهم ، وهم في كلتا

الحالتين مخطئون ، اذ الطباخ والامير ينبغي ان يكونا في الشعور نحوهما وفي معاملتهما سواء . وفي الصبا يوجد التفاوت في السن تفاوتاً في المقام غير مصطنع لكن لهذا السبب نفسه تكون معاشرة الاتراب افضل وسيلة لتعلم العادات الاجتماعية المستحبة فيما بعد ! والالعب بأنواعها احسن بين الانداد ، وكذلك المنافسة المدرسية . فللولد من الاهمية بين رفاقه في المدرسة ذلك القدر الذي يوحى به حكمهم عليه . قد يعجبون به وقد يحتقرونه ، لكن ذلك يكون تبعاً لخلقهم هو واقدامه . ان الوالدين العطوفين يجعلان بيئة الطفل مسرفة في جريها على هواه ، والذين لا عطف عندهما يجعلانها بيئة كبت للذات والاتراب وحدهم هم الذين يخلون بين المرء ونفسه يجري على سجيته في التنافس الحر والتعاون على قدم المساواة . فاحترام النفس من غير طغيان وتبجيل الغير من غير ذلة خير وسائل تعلمها معاملة الانداد . وهذه الاسباب لا يتأتى للعناية الوالدية مهما عظمت ان توفر للولد او للبنت في المنزل نفس المزايا التي يتمتعان بها في المدرسة الجيدة .

وهناك اعتبار غير هذه الاعتبارات لعله اهم منها على اهميتها . ذلك ان عقل الطفل وبدنه يتطلبان قدراً كبيراً من اللعب ، واللعب لا يتيسر على وجه مرضٍ بعد السنوات الاولى الا مع الاولاد والبنات الآخرين ، وبدون اللعب يعتبر الطفل مرهقاً عصيباً ، لا يجد للحياة فرصة ، وتتوالد في نفسه المخاوف والهموم . ومن الممكن طبعاً ان ينشأ الطفل كما نشأ جون ستيوارت مل ، فيعلم اليونانية في سن الثالثة ، ولا يعرف شيئاً قط من مزاح الاطفال ومرحهم . وقد تكون نتائج هذا حسنة من ناحية تحصيل المعلومات ، لكنني لا استطيع الاعجاب بها بوجه عام . ويروي مل في ترجمته الذاتية انه في دور المراهقة كاد يقتعر اشفاقاً من ان تنفذ يوماً ما كل توافيق النغمات الموسيقية فيمتنع كل جديد في التأليف الموسيقي . وواضح ان تسلط فكرة كهذه دليل الاعياء العصبي ، وقد كان في كبره كلما صادف حجة تشير الى احتمال خطأ فلسفة أبيه جفل منها جفول الحصان الخائف ، وقلل ذلك كثيراً من قيمة قواه الاستنباطية . ومن المرجح انه لو كان اكثر مجاراة للطبع في شبابه لكان أكثر مرونة عقلية وأقدر على الابتكار في تفكيره ، ومهما

يكن من أمر فان ذلك كان يجعله من غير شك أقدر على الاستمتاع بالحياة . ولقد تربيت انا نفسي تربية انفرادية الى سن السادسة عشرة - تربية أقل عنتاً من تربية مل ، لكنها كانت مع ذلك أفقر مما ينبغي من افراح الصبا العادية . وقد وجدت في دور المراهقة نفس الميل الى الانتحار الذي وصفه مل ، وكان الدافع اليه عندي ما تصورته من ان قوانين الحركة كانت تسيطر على حركات جسمي جاعلة الارادة مجرد وهم . ولما بدأت أخالط من في سني وجدت نفسي محرفاً مغروراً . اما ماذا بقي عندي من ذلك فليس الحكم عليه إلي .

وبالرغم من كل ما قدمت من حجج فاني مستعد للتسليم بأن هناك عدداً معيناً من الاولاد والبنات ينبغي ألا يذهب الى المدارس ، وان بعض هؤلاء أفراد على جانب عظيم من الأهمية . اذا كانت القوى العقلية لولد فوق المألوف في اتجاه معين وكان مع هذا ضعيف البنية عصبياً جداً ، فقد يكون غير صالح بالمرّة لأن يندمج في مجموعة من الاولاد العاديين ، وقد يضطهدونه الى حد يسوقه الى الجنون . وليس من النادر ان تقترن القدرات الشاذة بقلة الاتزان العقلي ، وفي مثل هذه الأحوال يستحب اتخاذ طرق لا يصلح بها الولد العادي . وينبغي ان يتحرى معرفة ما اذا كان للحساسية غير الطبيعية سبب معين ، كما ينبغي عندئذ ان نصبر على بذل الجهود لعلاجها ، لكن هذه الجهود ينبغي ألا تستلزم أبداً تحميله الآلام الفظيعة التي قد يضطر الولد الشاذ ان يتحملها من رفاقه القساة . وفي رأيي ان مثل هذه الحساسية يرجع اصلها على العموم الى اخطاء في عهد الرضاع أفست هضم الطفل او اعصابه ، فاذا اتبعت الحكمة في معاملة الرضع ، كان ذلك كفيلاً في رأيي بأن ينمو الكثير الغالب منهم اولاداً او بناتاً على غرار من الطبيعة يكفي لاستمتاعهم بصحبة غيرهم من الاولاد والبنات . ومع ذلك فستكون هناك استثناءات ، وهذه اقرب الى الوقوع بين الذين فيهم نوع من العبقرية . ففي مثل هذه الأحوال النادرة تكون المدرسة غير مستحبة ، ويفضل عليها نشأة اكثر حظاً من الحماية والعزلة في الشباب .

المحبة والعطف

قد يعتقد كثير من القراء اني أهملت المحبة الى الآن من غير داع وهي من بعض النواحي قوام الخلق الطيب . اني اعتقد أن الحب والمعرفة هما الأساسان اللازمان لحسن التصرف ، ومع ذلك ففيما كتبت عن التربية الخلقية لم أقبل الى الآن شيئاً عن الحب ، وسبب ذلك عندي ان النوع الصالح من الحب ينبغي أن يكون الثمرة الطبيعية للمعاملة المناسبة للطفل في نموه ، لا أن يكون شيئاً نرمي اليه ونقصد خلال جميع مراحل النمو المختلفة . ويجب ان نكون على بينة من نوع المحبة التي نبتغيها ، والميل الملائم للأعمار المختلفة ، فمن العاشرة او الثانية عشرة الى سن البلوغ والمراهقة يغلب جداً ان يكون الولد خلواً من المحبة ، ولا نجني شيئاً من محاولة اخراجه عن طبيعته .

وفي الصبا كله تقل فرص اظهار العطف عنها في الكبر لضعف المقدرة على التعبير عنه تعبيراً فعالاً ، ولأن اليافع مضطر للتفكير في اعداد نفسه للحياة غير آبه بما يهم غيره من الناس ، لهذه الاسباب ينبغي أن نكون اكثر اهتماماً بتكوين

كبار ذوي عطف ومحبة منا باستخراج هذه الصفات كرهاً قبل أو أنها في السنوات المبكرة . والمشكلة التي امامنا كجميع مشاكل التربية الخلقية ، مشكلة علمية تنتمي الى ما يصح تسميته بعلم الحركة النفسية . ان الحب لا يمكن ان يوجد كواجب ، فمن العبث - ان لم يكن شراً من العبث - ان نقول لطفل انه ينبغي له ان يحب والديه واخوته واخواته ، وعلى الوالدين اللذين يودان ان يحبهما اولادهما ان يسلكا معهم مسلكاً يستثير الحب ، كما يجب ان يحاولا اكساب اطفالهما تلك الخصائص الحسية والعقلية التي تنتج من المحبة والحنان ما يتسع ويزداد .

وليس علينا فقط ألا نأمر الاطفال بحب والديهم ، بل يجب ألا يعمل شيء ابتغاء الوصول الى هذا الحب . ان المحبة الوالدية في خير صورها تختلف عن الحب الجنسي من هذه الناحية : فمن روح الحب الجنسي انه يبتغي استجابة له ، وهذا طبيعي ، اذ بدون الاستجابة له لا يمكنه ان يحقق وظيفته الحيوية ، لكن ليس من روح الحب الوالدي ان يبتغي لنفسه استجابة . فالفريزة الوالدية الجارية على فطرتها تشعر نحو الطفل كما تشعر نحو جزء ظاهر خاص من الجسم . انك اذا اهتممت بإيهاام قدمك لضرر أصابها ، تعنى بها لمصلحتك غير منتظر منها اقراراً باحسانك . والمرأة المتوحشة كما أتخيل شعور كبير الشبه بهذا نحو طفلها ، فهي ترغب في صلاحه رغبتها في صلاح نفسها تماماً ، لا سيما وهو صغير جداً ، فهي لا تحس من انكار الذات حين تعنى بطفلها بأكثر مما تحس به حين تعنى بنفسها ، ولهذا السبب نفسه لا تنتظر منه شكراً ، فاحتياج الطفل اليها استجابة لها كافية ما دام الطفل كلاً عاجزاً ، فاذا ما أخذ يشب تناقصت محبتها له وتزايدت طلباتها منه . والمحبة الوالدية تزول عند الحيوانات متى كبر طفلها واستغنى ، ثم لا ترى لنفسها عليه حقاً . وليس هذا عند الآدميين ، حتى البدائيين منهم ، فالابن ذو الفتوة والقوة ينتظر منه والداه ان يطعمها ويحميها اذا اقعدهما الكبر . وكما بعد نظر الناس للمستقبل ازداد نزوعهم الى استغلال محبة الاطفال كي يعينوهم اذا جاء الهرم ، ومن ثم نشأ مبدأ بر الوالدين الذي كان ولا يزال موجوداً

في الدنيا كلها . وبنمو الملكية الخاصة والحكومة المنظمة تتضاءل أهمية بر الوالدين ، وسيدرك الناس هذه الحقيقة في بضعة قرون وتصبح العاطفة لا يؤبه بها . وفي الدنيا الحديثة قد يكون رجل الحسنيين عالة على والده في الثمانين ، أي ان الأمر المهم لا يزال هو محبة الوالد لطفله لا محبة الطفل لوالده ، وهذا بطبيعة الحال يصدق في الأكثر على الطبقات الموسرة ، أما الطبقات المأجورة كساب العيش ، فلا تزال العلاقة القديمة هي القائمة بينهم ، لكننا نراها حتى بين هؤلاء تفسح المجال لغيرها بالتدريج نتيجة قوانين معاشات الشيخوخة وما إليها . فمحبة الأطفال والديهم آخذة في ان تفقد من اجل ذلك مكانتها بين الفضائل الرئيسية ، بينما تبقى محبة الوالدين أطفالهم على جانب عظيم من الأهمية .

وهناك طائفة أخرى من الأخطار ، ابرزها علماء التحليل النفسي وان كنت ارى موضعاً للشك في تفسيرهم للوقائع ، اعني الاخطار المتصلة بتعلق الطفل بأحد والديه أكثر من اللازم . وما ينبغي للكبير بل ولا للمراهق ان يستظل بأبيه او امه الى حد يجعله غير قادر ان يستقل بفكره وبشعوره ، كما قد يقع بسهولة اذا كانت شخصية الوالد او الوالدة أقوى من شخصية الطفل . اني لا اعتقد صحة ما يقال من وجود جاذبية خاصة بين الابناء وأمهاتهم وبين البنات وآبائهم ، اللهم الا في احوال نادرة مرضية ، فاذا وجد لأحد الوالدين تأثير مفرط فسيكون لأيهما هو أكثر اتصالاً بالطفل - الأم عادة - بغض النظر عن الاختلاف الجنسي ، وقد يحدث بالطبع ان بنتاً لا تحب أمها ولا ترى والدها الا غراراً تجعل من هذا الوالد مثلاً أعلى ، لكن التأثير في مثل هذه الحالة يكون مرده الى الاحلام لا الى الوالد الواقعي واتخاذ المثل العليا من الناس عبارة عن تعليق الآمال بشيء ، شيء موافق ليس غير ، ولا علاقة له مطلقاً بطبيعة الآمال . والنفوذ المفرط لأحد الوالدين أمر مخالف لهذا تماماً ، لأنه يتصل بالشخص الواقعي لا بصورة خيالية .

ومن السهل ان يصبح الكبير الدائم الاتصال بطفل مستحوذاً عليه في حياته

استحوذاً يجعله من ناحية العقل عبداً له حتى في كبره . والعبودية قد تكون فكرية او عاطفية او هما معاً ، ومن الأمثلة الجيدة للنوع الاول جون ستيوارت مل الذي لم يكن يستطيع حتى عند الاحراج أن يطوع لنفسه التسليم بأن من الممكن ان يكون والده على خطأ . ومن الطبيعي ان يكون الانسان في بدء حياته عبداً للوسط من الناحية الفكرية ، وقليل جداً من الكبار من يستطيع من الرأي غير ما علمهم الوالدان او المعلمون ، اللهم الا حيث يوجد تيار عام يحرفهم معه . ومع ذلك فمن الممكن ان يقال ان العبودية الفكرية طبيعية عادية ، وأراني ميّالاً للتسليم بأنه لا سبيل الى تجنبها الا بتربية ترمي لهذا الغرض . هذا الشكل من التأثير المفرط للآباء والمدرسين يجب ان يعنى بتجنبه ، فمن الخطر الشديد في دنيا سريعة التغير ان نلتزم آراء جيل مضى ، لكنني سأقتصر الان على النظر في رق العواطف والارادة لأنه اكثر ارتباطاً بالموضوع الحاضر .

ان الشرور التي ردها علماء التحليل النفسي خطأ الى ميل جنسي لا ينبغي أن تنشأ عن رغبة مفرطة من الوالدين في ان يظفروا من اطفالهما بعاطفة مقابل عاطفة . واني اعتقد كما قلت منذ لحظة ان الغريزة الوالدية الخالصة لا تبغي استجابة مقابلة ، فهي ترضى باعتماد الصغار وتطلعهم الى الوالدين ليحميهم ويطعمهم . فاذا ما انتهى ذلك الاعتماد انتهت ايضاً المحبة الوالدية . هذا هو الحال بين الحيوانات وهو يفي بأغراضها تماماً ، لكن مثل هذه البساطة في الغريزة بعيد أن يتحقق بين الآدميين . وقد سبق لي ان تكلمت عن اثر الاعتبارات الحربية والاقتصادية في الدعوة الى بر الوالدين . والذي يعنيني الآن مصدران نفسيان صرفان للخلط والفوضى فيما يتعلق بقيام الغريزة الوالدية بعملها .

وأول هذين نوع يحدث كلما لاحظ الفكر المسرات التي تستفاد من الغريزة ، فالغريزة على العموم تدفع الى اعمال سارة لها نتائج نافعة ، لكن هذه النتائج قد لا تكون سارة ، فالأكل سار ولكن الهضم ليس كذلك لا سيما اذا ساء ، والعلاقة الجنسية سارة لكن الوضع ليس كذلك ، واعتماد الرضيع على الوالدة سار ، لكن استقلال الابن الفتى ليس كذلك . والمرأة التي أمومتها من طراز بدائي تستقي معظم سرورها من طفلها حين ترضعه ، ويقل سرورها

هذا بالتدريج كلما ترعرع الطفل وقل عجزه . ومن ثم كان هناك من اجل
السرور ميل الى اطالة فترة العجز وتأجيل الوقت الذي يستطيع الطفل فيه ان
يستغني عن ارشاد الوالدين له ، يشهد بذلك بعض التعبيرات مثل : (لا يزال
أخذاً بذيل أمه) . وكان الظن ان من المستحيل علاج هذا الشر في الاولاد الا
بارسأهم الى مدرسة ، اما في البنات فلم يكن يعد شراً ، لأنه كان يرى مستحباً
لهن ان كن في يسار أن ينشأن عاجزات تابعات ، على أمل أن يلزمن ازواجهن
كما كن من قبل يلزمن أمهاتهن ، ولكن هذا لم يحدث الا نادراً . والظاهر انه لم
يكن هناك من يدرك ان البنت اذا نشأت تابعة معتمدة على امها ، ظلت كذلك
ولم يتسن لها بعد الزواج ان تشارك زوجها مشاركة تامة كما هي روح الحياة
الزوجية .

والعقدة النفسانية الثانية اقرب من الاولى الى وجهة النظر الفرويدية الصحيحة .
فهي تنشأ حين يدخل في المحبة الوالدية عناصر تليق بالحب الجنسي ، ولا أعني
بذلك اي شيء متوقف بالضرورة على اختلاف الجنس ، انما اعني الرغبة في نوع
معين من الاستجابة العاطفية . فجزء من النفسانية الجنسية — وهو في الواقع
الجزء الذي جعل مبدأ الزوجة الواحدة ممكناً — عبارة عن رغبة الانسان في
احتلال المكانة الاولى عند شخص ما ، واحساسه بأنه ألزم من سائر البشر
لسعادة شخص واحد في الدنيا على الأقل ، واذا انتهت هذه الرغبة بالزواج فانها
لا تنتج السعادة الا مع توافر عدد من الشروط الاخرى . وهناك في الأقطار
المتعدنة نسبة كبيرة جداً من النساء المتزوجات تعوزهن ، لأسباب مختلفة الحياة
الجنسية المرضية ، وعندما يحدث ذلك لامرأة فانها تكون عرضة لأن تتطلب
عند اطفالها ارضاء ما لا يتوفر ارضاءه عادة عندهم . ولا أقصد بهذا القول ما
يتبادر منه ، وانما اقصد توتراً عاطفياً معيناً ، والتهاباً معيناً في الشعور
وسروراً في التقبيل والتدليل ، وقد كانت الامور معتبرة صواباً لا غبار عليها
في الأمهات العطوفات . والواقع ان الفرق بين ما هو صواب من هذا وما هو

ضار دقيق خفي ، ان من السخف ان يقال كما يفعل الفرويديون ان الوالدين لا ينبغي ان يقبلوا اطفالهم او يضمومهم ابداً ، فالاطفال لهم على آباءهم حق الحنو الظاهر ، فذلك يجعلهم ينظرون الى الدنيا نظرة سعيدة خالية من الهم ، كما انه ضروري لنموهم نمواً نفسياً سليماً ، لكن ينبغي ان يكون ذلك الحنو شيئاً يأخذونه لأنه موجود وجود الهواء الذي يتنفسونه ، لا شيئاً ينتظر منهم ان يستجيبوا له ويقابلوه بمثله . ومسألة الاستجابة هذه هي روح الموضوع . انهم سيستجيبون من تلقاء انفسهم استجابة معينة وهي خير كلها ، لكنها ستختلف تماماً عن سعيهم وراء اكتساب صداقة رفاقهم من الاطفال . ان ما ينبغي من الناحية النفسية ان يكون الوالدان في الوراثة وألا يحمل الطفل على ان يتصرف بقصد ادخال السرور على والديه ، فسرورهما ينبغي ان يجدها في نمو طفلها وتقدمه ، وما يأتيها من محبة استجابة لمحبتهما ، ينبغي ان يتقبلاه بالاغتراب على انه زيادة صرفة جاءتهما كما يجيء الجو الصحو في الربيع ، لا كأمر متوقع تقتضيه طبيعة الامور .

ان من الصعب جداً على المرأة ان تكون لصغار الاطفال أمّاً كاملة او معاملة كاملة ما لم تكن راضية من الناحية الجنسية . ومهما يقل المحللون النفسيون فالغريزة الوالدية تختلف في صميمها عن الغريزة الجنسية ويضرها تدخل العواطف الملائمة للجنس . ومن الخطأ النفسي استخدام النساء العوانس معلمات ، فالمرأة الصالحة لمعاملة الاطفال هي التي لا تتطلب غريزتها منهم انواعاً من الارضاء لا ينبغي ان ينتظر منهم ان يمدوها بها ، فالمرأة السعيدة في زواجها يمكنها ان تكون من هذا الطراز بغير جهد ، لكن غيرها من النساء تحتاج الى ضبط نفس دقيق لا يكاد يتيسر . وهذا بطبيعة الحال ينطبق على الرجال اذا وجدوا في نفس الظروف ، لكن هذه الظروف أقل كثيراً في الرجال ، لأن الغريزة الأبوية ليست في العادة قوية جداً عندهم ، ولأنه يندر ان يكونوا محرومين من الناحية الجنسية .

ومن المستحسن ان نكون على بينة من الموقف الذي ينتظر من الاطفال ان

يتخذوه بالنسبة لوالديهم . اذا كان ما لدى الوالدين من حب لأطفالهما من النوع الصحيح كانت استجابة الاطفال من النوع الذي يرغبان فيه بالضبط ، فسيسر الاطفال لقدوم والديهم وسيحزنون لذهابهما ، الا اذا كانوا مستغرقين في اعمال تروقهم ، وسيتطلبون الى والديهم ليساعدهم في ورطة جسمانية او عقلية ان نزلات بهم ، وسيجروا ن على المغامرات اعتماداً في قرارة نفوسهم على حماية والديهم ، لكن هذا الشعور لا يكادون يحسونه الا في اوقات الخطر . وسينتظرون من والديهم ان يجيبا على استئلتهم ويحلا مشكلاتهم ويعاوناهم في الصعب من الاعمال ، ولن يعوا معظم ما يقوم به الوالدان من اجلهم . فسيحبون والديهم لا لأنها يمدانهم بالماكل والمسكن ، ولكن لأنها يلعبان معهم ويبينان لهم كيف يعملون الجديد من الاشياء ، ويحكيان لهم حكايات عن الدنيا . وسيدر كون بالتدريج ان والديهم يحبانهم ، لكن هذا ينبغي ان يتلقوه كأمر طبيعي . وستكون المحبة التي يشعرون بها نحو والديهم من نوع مخالف تماماً للمحبة التي يشعرون بها نحو غيرهم من الاطفال ، والوالد يجب ان ينظر الى الطفل فيما يفعل . لكن الطفل فيما يفعل يجب ان ينظر الى نفسه والى الدنيا المحيطة به ، وهذا هو الفرق الأساسي بين الوالد والطفل . ليس للطفل وظيفة هامة يؤديها نحو والديه ، فوظيفته هي ان ينمو في الحكمة وفي القامة ، وما دام يفعل ذلك فان الفريزة الوالدية السليمة تجد فيه ما يرضيها .

انه ليحزنني أن ألقى في روع القراء اني اريد انقاص المحبة في حياة الأسرة او مظاهرها التلقائية ، فهذا ما لست أقصده بتاتاً ، وانما الذي اعنيه ان هناك انواعاً مختلفة من المحبة . فمحبة الزوج الزوجة شيء ، ومحبة الوالدين اطفالهما شيء آخر ، كما ان محبة الاطفال والديهم شيء ثالث ، ويأتي الضرر من الخلط بين هذه الانواع المختلفة للمحبة الفطرية . ولست ارى الفرويديين قد وصلوا الى الحقيقة لأنهم لا يدركون هذه الفروق في الغرائز . وهذا يجعلهم على وجه متشددين فيما يتعلق بالوالدين والاطفال ، لأنهم ينظرون الى الحب بينهم كأنه نوع من حب جنسي منقوص .

عندما كان عمر ابني سنتين واربعة اشهر سافرت الى امريكا حيث تقيبت

ثلاثة اشهر ، وكان اثناء غيابي سعيداً تماماً ، لكنه لما عدت كاد يحزن من الفرح . وجدته ينتظرني متلهفاً عند بوابة الحديقة ، فأمسك بيدي وشرع يريني كل شيء يهمه ويعجبه ، وكنت اريد الاستماع وكان يريد التحدث ، فكانت النزعتان مختلفتين ولكن متوافقتين ، الا في الحكايات ، فعندها كان يرغب في الاستماع وارغب انا في التحدث ، وبذا يتحقق التوافق مرة اخرى . ولم ينعكس هذا الوضع الا مرة واحدة ، عندما كان في سن الثالثة والنصف جاء عيد ميلادي ، وأنباته امه ان كل شيء يجب ان يعمل لارضائي ، ولما كانت الحكايات تسره الى اقصى حد ، فقد أدهشنا لما حان وقتها قوله انه سيقص عليّ حكايات لأنه عيد ميلادي ، وبعد ان حكى نحو اثني عشرة حكاية قفز الى الارض قائلاً : « لا حكايات اخرى اليوم » . كان ذلك منذ ثلاثة اشهر ، لكنه بعدها لم يحك مرة اخرى حكاية ما .

نأتي الآن الى مسألة أوسع ، مسألة المحبة والعطف عامة ، ولما كان هناك تعقيدات قد تنشأ بين الوالدين والاطفال راجعة الى احتمال اساءة الوالدين استعمال قوتهم ، كان لا بد من معالجتها قبل الخوض في المسألة العامة .

ليس في الامكان قسر الطفل بأية طريقة على ان يستشعر العطف او المحبة ، والطريقة الوحيدة الممكنة هي ملاحظة الظروف التي تنشأ فيها تلك المشاعر من تلقاء نفسها ثم الاجتهاد في تهيئة تلك الظروف . ان العطف بلا شك بعضه غريزي ، والاطفال يبتئسون كلما بكى اخوتهم او اخواتهم ، وكثيراً ما يبكون هم ايضاً ويفتصرون لهم على الكبار اذا اتوا اليهم ما يكرهون . لما جرح ابني في ساعده واحتاج الأمر لتطهيره وربطه كانت اخته التي عمرها سنة ونصف تسمع بكاءه في غرفة اخرى فاضطربت له وجعلت تكرر : (جوني يبكي ، جوني يبكي) حتى انتهت العملية المؤلمة . ولما رأى ابني امه تستخرج شوكة بالابرة من قدمها قال باشفاق : (انها لا تؤلم يا اماء) فقالت له انها تؤلم لتلقي عليه درساً في الاحتمال ، فأصر على انها لا تؤلم ، وأصرت امه على انها تؤلم ، فاذا

به ينفجر بالبكاء كما لو كانت الشوكة في قدمه هو . فمثل هذا ينبجم عن عطف حسي غريزي . وهذا هو الاساس الذي يجب ان ينبنى عليه من صور العطف ما هو أعقد وأرقى . وواضح اننا لا نحتاج لأكثر من ذلك في سبيل التربية الايجابية الا ان نشعر الطفل ان الناس والحيوانات تستطيع الاحساس بالألم وانها تحسه بالفعل في ظروفه . على ان هناك غير هذا شرطاً سلبياً ، هو ألا يرى الطفل من يحترمهم من الناس يرتكبون من الأفعال ما فيه غلظة او قسوة . فاذا اصطاد الأب الحيوان وأغلظت الأم للخادومات فسياخذ الطفل عنهما هاتين الرذيلتين .

ان مسألة كيف ومتى يطلع الطفل على ما في الدنيا من شر مسألة صعبة . ان من المستحيل ان ينمو الطفل وهو يجهل الحروب والمذابح والفاقة والامراض التي لم تمنع مع امكان منعها ، فلا بد ان يعرف الطفل هذه الاشياء في مرحلة ما ، كما يجب ان يجمع بين هذه المعرفة وبين يقين راسخ بأن انزال ألم او مصيبة ، بل والسماح بانزال ذلك مع امكان تجنبه ، امر عظيم . وهنا تواجهنا مشكلة كالتى تواجه الذين يبتغون حفظ العفاف على الاناث ، فهؤلاء كانوا يعتقدون فيما مضى ببقاء البنات في جهلن حتى الزواج لكنهم في الوقت الحاضر يتخذون طرقاً ايجابية اخرى .

لقد عرفت من السلميين من يود لو يعلم التاريخ بغير اشارة الى الحروب ويرى ان الاطفال ينبغي ان يبقوا اكبر زمن ممكن يجهلون ما في العالم من قسوة ، لكني لا استطيع ان امتدح (الفضيلة الهاربة المنعزلة في صومعة) التي تتوقف على عدم المعرفة . فمتى حان الوقت لتعليم التاريخ فينبغي ان نعلمه بالصدق ، فاذا تعارض التاريخ الحق مع مبدأ اخلاقي ترغب ان تعلمه تحتم ان يكون المبدأ خطأ ، وكان الأولى ان تقلع عنه . واني لأعترف ان كثيراً من الناس وفيهم قوم من اكثر الناس تمسكاً بالفضيلة ، لا يرتاحون الى الحقائق ، ولكن مرد هذا الى ضعف في فضيلتهم . فالاخلاق المتينة حقاً لا يقويها الا المعرفة الشاملة لكل ما يحدث بالفعل في الدنيا . يجب ألا نتعرض لخطر اتجاه الشبان ، والذين ربيناهم في جهل ،

الى الشر بابتهاج بمجرد اكتشافهم ان شيئاً كهذا موجود . انهم لن يمتنعوا عن القسوة اذا نحن لم نبغضها اليهم ، ولن يستطيعوا بفضاً لها اذا لم يكونوا على علم بوجودها .

ومع ذلك فليس من السهل العثور على الوسيلة الصحيحة لتعريف الاطفال الشر . والذين يعيشون منهم في أحياء الفقر المدقع في المدن الكبيرة يعرفون مبكرين بطبيعة الحال كل ما يتعلق بعريضة السكيرين والمشاجرات وضرب الزوجات وهلم جرا ، ولعل هذا لا يضرهم اذا كانت هناك عوامل اخرى لمحو آثاره ، لكن ليس هناك والد حذر يقظ يعرض طفلاً صغيراً جداً لمثل تلك المناظر عمداً . واعظم اعتراض عليها في رأيي هو انها تشير في نفس الطفل خوفاً شديداً يصطبغ به بقية حياته ، والطفل لعجزه لا مندوحة له عن الشعور بالفزع عندما يدرك لأول مرة ان القسوة على الاطفال ممكنة .

كانت سني اربعة عشر عاماً عندما قرأت رواية أوليفر تويست لأول مرة ، ومع ذلك ملأتني بمشاعر من الرعب ما كان ليتيسر لي احتمالها في سن اصغر ، فالاشياء الفظيعة ينبغي ألا يعلمها النشء الا عندما يبلغ احدهم من العمر ما يكفي لمواجهة بالاتزان المطلوب . وهذه السن يصل اليها بعض الاطفال قبل بعض ، وذوو الخيال والتهيب من بينهم يجب حمايتهم مدة اطول من ذوي الرصانة او الذين وهبوا شجاعة فطرية . فمن الواجب ان ترسخ في الطفل عادة عدم الخوف الناشئة عن توقعه الشفقة والرحمة قبل ان يطلع على ما في الدنيا من غلظة ، واختيار اللحظة الملائمة او الكيفية يحتاج الى لباقة وفهم ، اذ هو ليس بالامر الذي يتقرر بقاعدة توضع .

ومع ذلك فهناك بعض حكم ينبغي اتباعها : اولها ان الحكايات التي على شاكلة ذي اللحية الزرقاء وجاك قاتل العماقة لا تستلزم احاطة بالقسوة ، فلا تدخل فيما نحن بصددده لأنها عند الطفل خيالية صرفة ، وهو لا يربطها بالدنيا

الحقيقية اي ربط . لا شك في ان السرور الذي يجده فيها متصل بالغرائز الوحشية ، لكن هذه لا ضرر منها ، اذ هي مجرد نزعات لعبية في طفل لا حول له ولا قوة ، ومن شأنها ان تتلاشى كلما نما الطفل وكبر . لكن عندما يبدأ في اطلاع الطفل على القسوة كشيء موجود في الدنيا يجب ان يعنى باختيار الحوادث التي يكون هوى الطفل فيها مع المجنى عليه لا مع الجاني . ان بعض الوحشية سيتحرك فيه فيفتبط بحكاية يكون هواه فيها مع الظالم ، ومن شأن أمثال هذه الحكاية ان توجد الامبراطوريين في الناس . لكن قصة ابراهيم وهو يتأهب لتضحية اسحاق ، او الدببة وهي تقتل الاطفال الذين لعنهم اليسع تثير بطبيعتها عطف الطفل على طفل مثله . ومن نفس الباب حكاية هيوبرت ينفقاً عين ارثر الصغير في رواية الملك جون .

ثم ان التاريخ يمكن ان يعلم بجميع ما فيه من حروب ، لكن في التحدث عن الحروب ينبغي ان يكون العطف في اول الامر مع المهزوم ، وينبغي ان نبدأ بالمعـارك التي يشعر الانسان فيها بطبيعته مع الجانب المغلوب كمركة هيستنجس في التاريخ الانكليزي ، وينبغي توكيد ما تعقبه المعارك من جراح وآلام ، وينبغي ان نعود الطفل بالتدريج ألا يتحيز حين يقرأ عن الحروب وأن ينظر الى الجانبين كليهما كما ينظر الى رجال حمقى فقدوا حلمهم وكان الأولى ان تعنى بهم ممرضات يلزمهم الفراش حتى يهدأوا ويحسن سلوكهم ، وينبغي ان تشبه الحروب بالمشاجرات بين الاطفال في المحضن . وبهذه الطريقة يكون من المستطاع في اعتقادي حمل الاطفال على ان يفهموا الحروب على حقيقتها ويدركوا انها حمق .

واذا ما وقعت تحت نظر الطفل حادثة من عدم الشفقة او من القسوة فينبغي مناقشتها مناقشة وافية مع توضيح جميع القيم الخلقية التي يعلقها الرجل الكبير نفسه على الحادثة ، ومع الايحاء دائماً بأن الناس الذين قسوا كانوا حمقى ولم يفعلوا خيراً مما فعلوا لانهم لم يربوا كما ينبغي . لكن لا يصح ان نلفت الطفل

الى مثل تلك الاشياء في دنياه هو اذا لم يلحظها من تلقاء نفسه حتى يكون قد ألفها في التاريخ والقصص ، وعندئذ يصح ان نتدرج به الى معرفة الشر في بيئته هو . لكن ينبغي دائماً ان نشعره ان في الامكان محاربة الشر وان الشر ينتج عن الجهل وعدم ضبط النفس وسوء التربية ، وينبغي ألا نشجعه على الخلق على الأشرار ، بل على ان يعتبرهم متخبطين لا يدرون ما هي السعادة .

وتنمية العطف الشامل مسألة فطرية في صميمها اذا وجدت البذرة الغريزية ، فهي تتوقف على التوجيه الصائب للالتفات وعلى ادراك الحقائق التي يكتسبها ويخفيها القائلون بالحرب والسيطرة ، خذ مثلاً وصف تولستوي لنابليون وهو يتفقد ميدان معركة استرلتز بعد انتصاره . ان اكثر التواريخ ينصرف عن ميدان القتال بمجرد انتهاء المعركة ، وتولستوي بالبقاء فيه اثني عشرة ساعة اخرى ، قد رسم صورة للحرب مختلفة عن صورتها التاريخية غاية الاختلاف ، وهذا يحىء لا بكتان الوقائع ولكن بالاكتار منها . وما ينطبق على المعارك ينطبق ايضاً على غيرها من اشكال القسوة ، وينبغي في جميع الاحوال ألا يكون هناك ضرورة ما لتبيين المغزى ، اذ ينبغي ان يكون في عرض القصة على الوجه الصحيح ما يكفي . لا تستنبط مغزى ، ولكن اترك الوقائع تنتج مغزاهما في عقل الطفل .

بقي ان نقول بضع كلمات عن المحبة التي تختلف عن العطف بكونها في صميمها تخصيصية حتماً . وقد تكلمت بالفعل عن المحبة بين الوالدين والاطفال وما اريد الآن ان انظر فيه هو المحبة بين الأنداد .

المحبة لا يمكن ان تخلق ولكن يمكن ان تطلق . وهناك نوع من المحبة اصله الخوف الى حد ، ومحبة الطفل والديه ، فيها هذا العنصر ، لأن الوالدين يقومان بحمايته وهذا النوع من المحبة طبيعي في الطفولة ، لكنه غير مستحب بعدها . وحتى في الطفولة ليست محبة الطفل غيره من الاطفال من هذا النوع ،

فابنتي الصغيرة متعلقة بأخيها تعلقاً شديداً رغم كونه الشخص الوحيد في دنيائها الذي يعاملها بحفاوة وغلظة . أما محبة الند للند وهي خير الأنواع فأجدر أن توجد حيث تسود السعادة ويغيب الخوف . فالمخاوف سواء أكانت محسوسة أم غير محسوسة من شأنها إحياء الكراهية لأنها تجعل الخائف يتوقع الأذى ممن يخافه . والحسد يحول دون التعاطف بين معظم الناس كما هو مشاهد . ولا اظن في الامكان منع الحسد الا بالسعادة ، اذ التأديب الخلقى عاجز عن أن يمس الحسد في مكانه من النفس . والسعادة بدورها يحول دونها الخوف الى حد كبير . واذا سنحت فرصة من فرص السعادة للنشء فان الوالدين والاصدقاء يصرفونهم عن انتهازها بناء على اعتبارات خلقية في الظاهر وبدافع الحسد في الواقع ، واذا كان هند النشء قدر كاف من الجرأة فسيستجاولون امر الناعبين المتشائمين والا فسيسمحون لأنفسهم ان تشقى ، ويلحقون بركب الخلقين الحاسدين . والتربية الخلقية التي كانت موضع نظرنا آنفاً مقصود بها إحياء السعادة والشجاعة ، ومن ثم ارى انها تعمل كل الممكن كي تطلق ينابيع المحبة ، وليس في الامكان المزيد على هذا . انك اذا اخبرت الأطفال انه ينبغي عليهم ان يتعابوا تتعرض لخطر ايجاد الرياء والمداهنة ، لكنك اذا جعلتهم سعداء احرارا وجعلت الرفق والرحمة من حولهم فستجد انهم يصبحون من تلقاء انفسهم اخوان كل انسان ، وان كل انسان تقريبا يستجيب لمودتهم بمثلها . فالنزوع الى الثقة والمحبة يبرر نفسه لأنه يكسب صاحبه سحرا لا سبيل الى مقاومته ، ويخلق من حوله ما ينتظر من استجابة لعواطفه ، وهذه نتيجة من أهم النتائج التي نتوقعها من التربية الخلقية الصحيحة القويمة .



الزبينة الجَنَسِيَّة

ان موضوع الجنس محاط بالخرافات والتحريم لدرجة انني اقتحمه بارتعاش .
انني اخشى على اولئك القراء الذين قبلوا حتى الآن بما قلته من مبادئ ونظريات
ان يشكوا فيها عندما يجري تطبيقها في هذا المجال . فقد قبلوا باستعداد كاف
على ان عدم الخوف والحرية صالحان للولد ومع هذا فأنهم يرغبون في موضوع
الجنس ان يفرضوا العبودية والرعب . انني لا استطيع ان اعيد المبادئ التي
اعتقد بأنها صحيحة وسأعتبر الجنس تماماً بالشكل الذي عاملت فيه الدوافع
الأخرى التي تشكل الشخصية الانسانية .

هنالك ناحية واحدة يكون فيها الجنس مصطبغاً بصبغة خاصة بشكل
منفصل ومستقل عن التحريم وهي الحالة التي تنضج فيها الغريزة نضوجاً متأخراً .
فصحيح ، كما اشار الى ذلك المحللون النفسيون (رغم ما يكتنف ذلك من
مبالغات عظيمة) ان الغريزة ليست مفقودة في سن الطفولة ولكن مظاهرها
الطفولية تختلف عنها في الكبار . كما وان قوتها اضعف كثيراً ومن المستحيل

جسمانيا لأي غلام ان ينهمك فيها على شاكلة الكبار ، وتستمر حالة البلوغ محنة عاطفية هامة مندفعة وسط التربية الذهنية ومسببة اضطرابات تثير مشاكل صعبة المعلم . وهنالك العديد من هذه المشاكل التي سوف لا احاول بحثها ولكنني بصورة نسبية ارجب في بحث ما يجب عمله قبل البلوغ . اذ انه في هذه الناحية يكون هناك حاجة ماسة للأصلاح التربوي وبصورة خاصة خلال سني الطفولة المبكرة ، ورغم انني اتفق مع ما ذهب اليه (الفرويديون)^١ في العديد من النواحي فاني ارى انهم قاموا بخدمات قيمة جداً في الاشارة الى الاضطرابات العصبية التي تنتاب الانسان في حياة الشيخوخة بسبب الاخطاء التي ترتكب في الحياة المبكرة في الامور المتصلة بالجنس . وان مؤلفاتهم قد اثمرت نتائج مفيدة في هذا المجال ولكن لا يزال هنالك مقدار واف من الحيف يجب التغلب عليه . فالصعوبة هنا بالطبع تزداد حدة عندما يترك الاولاد خلال سنواتهم الاولى كليا بين ايدي نساء غير متعلات من اللواتي لا ننتظر منهن ان يعرفن او يعتقدن بما قاله العلماء في كلامهم الطويل في ضرورة تجنب الاضطهاد ضد البذاءة .

فاذا تناولنا مشاكنا في ترتيبها حسب تاريخ حدوثها فان المشكلة الاولى تواجه الامهات والمربيات هي (الاستئناء) . ويقول العلماء الثقة ان هذه العملية يمارسها الجميع بين الفتيان والفتيات في السنتين الثانية والثالثة ولكنها تتوقف من ذاتها بعد ذلك بقليل . وفي بعض الاحيان تصبح اكثر وضوحاً بتهيجات جسمانية محددة وهذه يمكن ازالتها . (انها ليست ضمن نطاق ان ادخل في تفاصيل طبية) ولكنها توجد عادة حتى في حالة عدم وجود مثل هذه الاسباب الخاصة . فقد كان من العادة ان ينظر اليها بهلع وان تستعمل تهديدات مخيفة بغية توقيفها . وكقاعدة لا تنجح هذه التهديدات رغم الايمان بها ، وتكون

(١) الفرويديون — اتباع العالم النفسي سيجموند فرويد .

النتيجة ان يعيش الولد في نوع من الهلع الذي يصبح فوراً منفصلاً عن سببه الأصلي (الذي يكبح في وعينا الداخلي) ولكنه يبقى ليحدث الكابوس والثورات العصبية والوساوس والرعب الجنوني . واذا ترك الطفل لنفسه فان الاستمناء الطفولي ليس له تأثير سيء على الصحة^١ ، كذلك ليس له تأثير سيء ظاهر على الاخلاق . ان التأثيرات السيئة التي لوحظت في كلتا الناحيتين يبدو انها معزوة لمحاولات ايقافه . حتى ولو كان ذلك ضاراً فانه ليس من الحكمة اصدار حظر سوف لا يراعى او يطاع . فمن طبيعة الاشياء انه من المستحيل ان تتأكد من ان الولد سوف لا يستمر بعد ان تكون قد منعت من ان يفعل ذلك ، فاذا لم تفعل شيئاً فان الاحتمال هو ان الممارسة ستقطع عاجلاً ولكنك ان فعلت شيئاً تجعل الامر اقل املا في ان تتوقف وانك بذلك تضع الاساس لاضطرابات عصبية خفيفة ، وهي صعبة كما تبدو لنا ولهذا يجب ان يترك الولد وحده في هذا الشأن . وانني لا اعني ان عليك الامتناع عن اتخاذ وسائل اخرى غير الحظر بالقدر الذي تكون فيه هذه الوسائل متوفرة ، دعه يكون نعلسان عندما يلجأ لفراشه وبذلك لا يبقى مضطجعاً فيه مستيقظاً لمدة طويلة ، لتكن لديه لعبة محبوبة في فراشه مما تذهل انتباهه ، ان هذه الوسائل لا يعترض عليها ولكنها اذا فشلت يجب ان لا تلجأ الى الحظر او ان تلتفت انتباهه الى انه قد همك نفسه بالممارسة . وبعدها لربما توقفت من تلقاء نفسها .

ان حب الاستطلاع الجنسي يبدأ بصورة طبيعية خلال السنة الثالثة بشكل اهتمام في الفروق الجسدية فيما بين الرجال والنساء وفيما بين الكبار والاولاد . ان حب الاستطلاع هذا ليس له صفة خاصة بالطبيعة خلال الحقبة المبكرة من الطفولة ولكنه بشكل بسيط يشكل جزءاً من حب الاستطلاع العام . ان الصفة الخاصة التي وجدت متوفرة بالاولاد الذين ينمون تقليدياً انما هي عائدة الى

(١) في حالات نادرة جداً تسبب ضرراً بسيطاً ولكن هذا يعالج بسهولة وهو ليس خطيراً اكثر من نتائج مص الباهم .

الممارسة النامية لعمل الامور الغامضة ، فعندما لا يوجد غموض يضمحل حب الاستطلاع ويفنى حالا بعد ان يحصل الاكتفاء فيجب ان يسمح للولد ، من البداية ، ان يرى والديه واخوانه واخواته بدون ملابس في الحالات التي يصادف فيها ذلك بشكل طبيعي . ويجب ان لا يحدث ضوضاء من اي منهما ويجب ان لا يعلم بان بعض الناس لهم شعور حول العري (التجرد من الملابس) - (وبالطبع سيعلم ذلك فيما بعد) . وسنجد بأن الولد يلاحظ فوراً الفروق فيما بين ابيه وامه ويربط ذلك فيما بعد بالفروق فيما بين اخوانه واخواته . ولكن حالا بعد ان يكون الموضوع قد درس لهذا المدى يصبح شيئاً عادياً لا يدعو للاهتمام مثل الخزانة التي غالباً ما تكون مفتوحة . وبالطبع ان اي اسئلة يوجهها الطفل خلال هذه الفترة يجب ان تجاوب بالشكل الذي تجاوب اسئلة عن مواضيع أخرى .

تشكل الاجابة على الاسئلة الجزء الاكبر من التربية الجنسية ، فهناك قاعدتان : اولاً تقصي دائماً الجواب الصادق للسؤال ، ثانياً اعتبار المعلومات الجنسية بانها تشبه تماماً اي معرفة اخرى . اذا سألك الولد سؤالاً عميقاً عن الشمس او القمر او الغيوم او عن السيارات او المحركات البخارية فانك تسر وتبتهج وانك تحكي له بقدر ما يستطيع استيعابه . ان الاجوبة على الاسئلة هذه تشكل جزءاً كبيراً جداً من التربية المبكرة . ولكنه اذا سألك سؤالاً حول الجنس فانك تتشوق بأن تقول له « صه صه » واذا تعلمت بأن لا تفعل ذلك فانك مع هذا لا تجيب الا باختصار ويحذف ولربما بقليل من الاحراج في طبعك . ويلاحظ الولد فوراً القلق وبذلك تكون قد وضعت الحجر الاساسي للشوق الجازع . عليك ان تجيب بنفس الاتساع والرحابة وعلى الطبيعة كأن السؤال قد كان حول شيء آخر . يجب ان لا تسمح لنفسك بأن تشعر حقى ولو في بعض الاحيان ، ان هنالك شيئاً مخيفاً وقذراً يتعلق بالجنس Sex فاذا فعلت ذلك فان شعورك سيشغل به . عليك ان تفكر بالضرورة بان هنالك شيئاً كريهاً سيراه في علاقات والديه وفيما بعد سيدنتج بأنهم يفكرون سواء عن التصرف الذي أفضى الى تكوينه . ان

هذا الشعور في الفتوة يجعل الانفعالات الفطرية السعيدة مستحيلة ليس فقط اثناء الشباب ولكن في حياة الكهولة ايضاً .

اذا كان للولد أخ او أخت ولد عندما كان كبيراً لدرجة أن باستطاعته أن يسأل أسئلة عن الطفل ، ولنفرض أن الولد كان في سنه الثالثة ، فقل له بأن الطفل قد نما داخل جسم والدته وقل له انه قد نما بنفس الطريقة ، دعه يرى أمه ترضع الطفل وان يقال له نفس الشيء قد حدث معه . كل هذا مثل كل شيء خلافه متصل بالجنس يجب ان يقال له بدون خطورة بروح علمية بحتة . يجب ان لا يقال للولد عن « اعمال الامومة الغامض المقدس » وان يكون كل شيء كأمر حقيقي .

اذا لم يحدث للعائلة اي زيادة عندما يصبح الولد كبيراً لدرجة كافية بحيث يكون بوسعه ان يسأل أسئلة عنها فان الموضوع من المحتمل ان ينشأ بالقول له « هذا حدث قبل ان تولد » . انني أجد ابني لا يزال عاجزاً عن ادراك انه كان هنالك وقت عندما لم يكن هو موجوداً ، فاذا حكيت له عن بناء الاهرام او عن اي موضوع مشابه فانه يريد دائماً ان يعلم ماذا كان يفعل عندئذ وهو دائماً يبدو انه في حيرة عندما يقال له انه لم يكن وقتها موجوداً . انه يريد ان يعلم عاجلاً ام آجلاً ماذا تعني عبارة « كونه موجوداً » ومن ثم نروي له .

ان حصة الاب في الجيل اقل احتمالاً بأن ترد بصورة طبيعية في الاجوبة على الاسئلة ما لم يكن الولد يعيش في مزرعة . ولكنه من المهم جداً ان يعلم الولد عن هذا أولاً من والديه او من معلمه وليس من الاولاد الذين جعلهم سوء التعليم رديئين . انني اتذكر بوضوح انني علمت كل شيء عن هذا من قبل غلام آخر عندما كنت في سن الثانية عشرة . كل هذا قد عولج في روح دفينه كموضوع لمزاح بذيء . تلك كانت الخبرة العادية للأولاد في جيلنا . ومن الطبيعي ان يتبع ذلك بأن الاكثريه الساحقة استمرت طول حياتها ترى بأن الجنس موضوع رديء وسيء

بنتيجة انهم لم يستطيعوا ان يضعوا أساساً قوياً للمخالطة .

لقد اتبع الوالدان خطة غير جريئة في الاتكال على الحظر مع انه كان على الآباء أن يتذكروا كيف اكتسبوا معلوماتهم الاولى . كيف يمكن ان يفترض أن مثل هذا النظام ساعد في الحكمة او الاخلاق المتينة ، انني لا أستطيع أن أتصور ذلك . يجب ان يعالج الجنس من البداية كشيء طبيعي ومبهج ومحترم . واذا أردنا ان نفعل خلاف ذلك فأننا نكون سمننا العلاقات فيما بين الرجل والمرأة ، وبين الآباء والاولاد ، ويكون الجنس في ذروة مجده فيما بين أب وأم يحبان بعضهما ويحبان اولادهما ، ومن الافضل جداً ان يعلم الاولاد اولاً الجنس في علاقات والديهم بدلاً من ان يستقوا انفعالاتهم الاولى من الاشياء القبيحة ، فمن الخطأ بصورة خاصة ان يكتشفوا الجنس فيما بين والديهم كشر أثم بقي مخفياً عنهم في سر الكتمان ، واذا لم يكن هنالك احتمال ان يتلقن الاولاد عن الجنس من قبل اولاد آخرين فان الامر يمكن تركه للعملية الطبيعية التي تنتج عن حب الاستطلاع عند الاولاد ويمكن للوالدين ان يحرصوا أنفسهم في اجابة الأسئلة دائماً شريطة ان كل شيء قد اصبح معروفاً قبل سن الادراك . ان هذا بالطبع ضروري تماماً . وانه لشيء قاس ان ندع غلاماً او فتاة يتباغت بالتغيرات الجسدية والعاطفية التي تلتقيها في ذلك الوقت دون تحضير ، ولربما كان هذا باعثاً لأن يهاجم ببعض الامراض الخفية . كما وان كامل موضوع الجنس بعد سن البلوغ يعتبر كهربائياً لدرجة أن الفتى او الفتاة لا يمكنهم الاصفاء بروح علمية مما يكون ممكناً تماماً في سن البكور . ولهذا فانه بشكل منفصل عن امكانية الحديث الرديء ، على الفتى او الفتاة ان يعلما طبيعة العمل الجنسي قبل بلوغهم سن الرشد .

الى اي مدى قبل هذا يجب اعطاء هذه المعلومات ؟ ان ذلك يتوقف على الظروف ، فالولد الفضولي والنشط ذهنياً يجب أن يحكى له بوقت أبكر مما لو كان بليداً ، وعلينا أن نغمره في الاجابة عن حب استطلاعه . ومهما كان الولد

حدثاً علينا أن نقول له اذا سأل . ويجب ان يكون سلوك الوالدين أنه سيسأل اذا اراد ان يعرف . ولكنه اذا لم يسأل من تلقاء نفسه فانه يتحتم ان يحكى له قبل ان يبلغ سن العاشرة خشية ان يروى له قبل اي شيء من قبل اشخاص آخرين بطريقة سيئة ، ولهذا يكون من المرغوب فيه ان يشارعده حب الاستطلاع بإعطاء التعليمات حول التناسل بالنباتات والحيوانات . يجب ان لا يكون هنالك مناسبة خطيرة بل توضيحاً للصوت وحسن ديباجة : « الآن يا ولدي أريد أن أحكي لك شيئاً أصبح الوقت مناسباً لان تعرفه » وكل شيء يتحتم ان يكون عادياً وفي كل يوم . ولهذا فان الموضوع يأتي بشكل افضل جواباً على اسئلة .

أظن انه ليس من الضروري في هذا السن ان نجادل على ان الفتيان والفتيات يجب ان يعاملوا بشكل متماثل . عندما كنت حدثاً كان لا يزال من الشائع جداً لفتاة نامية نمواً حسناً أن تتزوج قبل ان تعرف اي شيء عن طبيعة الزواج وان تتعلم ذلك من زوجها ، ولكنني لم اسمع كثيراً عن مثل هذا في السنوات الاخيرة . وأرى ان معظم الناس يعلمون الآن بأن الفضيلة التي تستند الى الجهل لا قيمة لها وان الفتيات هن نفس الحق في المعرفة كالفتيان . فاذا كان هنالك اي شخص لا يزال يقصر في معرفة هذا فان ذلك الشخص لا يليق به قراءة هذا الكتاب وبذلك لا نتحمل مشقة الجدل معه . انني لا اريد ان اقترح بحث تعليم الاخلاق الجنسي في معناه الضيق . وهذه مسألة اختلفت حولها الآراء ، فالمسيحيون يختلفون عن المسلمين ، والكاثوليكيون عن البروتستانت الذين يبيعون الطلاق وذوو التفكير الحر عن الرجعيين . فالآباء يرغبون أن يتعلم اولادهم (بالصفة الشخصية) عن الاخلاق الجنسية بالشكل الذي يظنون به أنفسهم وانني لا أربح في ان تتدخل الدولة معهم . ولكن بدون الدخول في اسئلة رديئة فهناك الكثير مما يمكن ان يكون اساساً مشتركاً .

قبل اي شيء هناك علم الصحة ، وينبغي على الشباب ان يلموا بالأمراض الجنسية قبل ركوب المخاطر ، كما ان هذا الايمان يجب ان يكون حقيقياً بعيداً

عن المبالغة التي يلجأ اليها بعض الناس في مضار الاخلاق . ويجدر بهم ايضاً ان يعرفوا كيفية الشفاء من هذه الامراض بالاضافة الى محاولة تجنبها ، اذ انه من الخطأ إلقاء هذه التعليمات من قبل اناس فاضلين كلما دعت الضرورة ، في حين تعتبر المآسي التي تحل بالآخرين جزاء وفاقاً لمعصية او زلل . واذا ما اردنا القياس على هذا الزعم فقد نمتنع عن اداء العون لانسان اصيب في حادثة صدام سيارة متعللين بأن الرعونة في قيادة السيارة خطأ فادح زد على ذلك ان العقاب في هذه الحال قد يكون من نصيب الابرياء اذ لا يمكن اعتبار الاطفال الذين يولدون مرضى بالزهري أطفالاً آثمين بنفس الطريقة التي لا يجوز النظر بموجبها الى رجل دهم بسيارة عابرة باعتباره آثماً .

وعلى الشباب ان يعلموا ان انجاب طفل أمر ذو اهمية بالغة ، فلا ينبغي القيام به اذا لم تكفل للطفل مقدماً الصحة الجيدة والسعادة التامة . وقد كان الرأي التقليدي انه من المبرر انجاب اطفال اثناء فترة الزواج حتى ولو جاء الفاصل الزمني قصيراً بين طفل وآخر بحيث ينهك هذا صحة الام ، وحتى لو كان الاطفال مرضى او معتوهين ، وحتى لو لم يتوفر لهم الغذاء الكافي . وفي ايامنا هذه اضحى المكابرون وحدهم هم الذين يتبنون هذا الرأي متعللين بأن كل ما يصيب الانسانية لا بد ان يزيد في مجد الله ، اما اولئك الذين يهتمون بأطفالهم ولا يجدون متعة رخيصة في تسبب شقاء الضعفاء فانهم يتمردون على هذا التعنت المتهور الذي يبرر هذه القسوة . ولهذا يجب ان تشكل العناية بحقوق الاطفال والحرص على اهميتهم جزءاً اساسياً من الثقافة الخلقية .

ويجدر لفت انظار الفتيات الى احتمال كونهن امهات في المستقبل ، وبالتالي ينبغي عليهن الالمام ببعض اسس المعرفة التي قد تفيدهن في هذا المجال . ومن البديهي أن على الفتيان والفتيات ان يتعلموا شيئاً عن حفظ الصحة وعن وظائف اعضاء الجسم ، ولكن يجدر التأكيد على انه ما من فتاة يمكن ان تكون امماً صالحة بدون الحنو الامومي ، ومن جهة اخرى وبالإضافة الى هذا الحنو فلسنا

في غنى عن المعرفة السليمة الوافية . فالغريزة دون المعرفة لا تصلح في تربية الاطفال بقدر ما لا تصلح المعرفة دون الغريزة . فكما ازداد فهم الحاجة الى المعرفة ازدادت النساء الذكيات تعلقاً بالامومة . وفي ايامنا هذه لا تعدم بينهن من ذوات الثقافة والعلم من تحتقر هذه الحقيقة متعللات بأن هذه المعرفة لا تمنحهن المجال الكافي لممارسة مواهبهن العقلية . وهذه مأساة كبرى لان في مقدورهن ان يصبحن افضل الامهات ان وجهت افكارهن هذه الوجهة .

وهناك شيء اساسي في تعليم حب الجنس . فلا ينبغي اعتبار الفيرة إلحاحاً مبرراً على الحقوق ، بل هي مأساة لمن يشعر بها ، وهي خطأ بحق من يستهدفه . فعندما تتطفل دواعي الامتلاك على الحب تراه يفقد قوته الحيوية ويلتزم الشخصية . اما اذا جرد الحب من هذه الدوافع فهو ينمي الشخصية ويعظم الاحساس بالحياة . وقد كان الآباء يهدمون علاقاتهم بأطفالهم حين كانوا يلقنونهم الحب كفريضة يجب تأديتها ، ولا زال بعض الأزواج والزوجات يهدمون زواجهم بنفس الخطأ . فالشعور بالحب نحو الآخرين يتعصى ان يكون واجباً معروضاً لانه غير خاضع للارادة .

فالحب منحة من السماء وهو أفضل ما يمكن ان تجود به .

اما اولئك الذين يعلقون على الحب أحكاماً ، فهم يهدمون الجمال والفرح الذي لا يمكن للحب ان يمنحها ما لم يكن حراً وعفويًا . وهنا مرة اخرى يبرز الخوف كعدو وحيد ، فمن يخشى فقدان اسباب سعادته كمن فقدتها فعلاً .

وفي هذا المجال كما في مجالات اخرى تكون الجرأة جوهر الحكمة .



مدرسة الحضانة

تناولت في الفصول السابقة مختصراً لما يمكن عمله في سبيل خلق العادات التي تجعل الطفل الصغير سعيداً نافعاً في حياته المقبلة ، ولكنني لم أناقش مسألة هل على الوالدين ان يقوموا بهذه التربية او هي من عمل مدارس مهياة لهذا الغرض . ورأيت ان الحجج المؤيدة لمدرسة الحضانة حجج غالبية جارفة ، لا فيما يتعلق بأطفال الفقراء او الجهلة او المجاهدين بالعمل فحسب ، ولكن فيما يتعلق بجميع الاطفال او على الاقل جميع الاطفال الذين يعيشون في المدن . اعتقد ان الاطفال الذين في مدرسة حضانة الآنسة مرغريت مكلان في رتفورد يحصلون على تربية تفضل كل ما يستطيع ابناؤ الميسورين ان يحصلوا عليه في الوقت الحاضر . وبودي ان أرى هذا النظام يعمم حتى يشمل جميع الاطفال ، الاغنياء منهم والفقراء على السواء . لكن دعنا قبل بحث اي مدرسة حضانة بالذات نستعرض الاسباب التي تجعلنا نرغب في مدرسة الحضانة من حيث هي :

واول ما نذكر من ذلك ان بواكير الطفولة لها اهمية لا تقدر من الناحيتين

الطبية والنفسية ، وهاتان الناحيتان مترابطتان متشابكتان ، فالخوف مثلاً يسبب للطفل سوء التنفس ، وسوء التنفس يعرضه لطائفة من الامراض^١ . ومثل هذه العلاقات المتشابكة هي من الكثرة بحيث لا يمكن لأحد ان يطمع في النجاح في تربية الطفل خلقياً اذا لم يكن على بعض معرفة بالطب ، او ان ينجح في العناية بصحته اذا لم يكن على بعض معرفة بعلم النفس ، ومعظم المعرفة اللازمة في الناحيتين كليهما حديثة جداً ، وكثير منها يتعارض مع التقاليد التي درج الناس على احترامها جيلاً بعد جيل . خذ مثلاً مسألة التأديب . ان القاعدة العظمى في النضال مع الطفل هي : لا تخضع لكن لا تعاقب ، فالوالد الطبيعي العادي يخضع احياناً في سبيل الحياة الهادئة ، ويعاقب احياناً حين ينفد صبره ، والطريقة الصائبة تتطلب لنجاحها خليطاً صعباً من الصبر والمقدرة على الانحاء ، هذا مثل نفسي ، والهواء النقي مثل طبي ، فاذا توفرت العناية والحكمة استفاد الاطفال من التعرض الدائم للهواء الطلق ليلاً نهاراً بغير ائصال في الملابس ، لكن اذا لم تتوفر العناية والحكمة فلا يمكن اغفال خطر اصابة الاطفال بالبرد من الببال او من التغيرات الجوية المفاجئة .

وليس من المنتظر ان تتوفر للوالدين المهارة والفراغ اللازمان للفن الجديد الصعب ، فن معاملة الاطفال الصغار كما ينبغي ، وهذا واضح فيما يتعلق بالوالدين غير المتعلمين فهم يجهلون الطرق المثلى ، ولو تعلموها لظلموا غير مقتنعين بها . اني أسكن في منطقة زراعية قرب البحر يسهل فيها الحصول على الطعام الطازج ولا يشتد فيها البرد ولا الحر ، واكثر ما اخترتها من اجله انها خير ما يلائم صحة الاطفال ، ومع ذلك فان معظم اطفال الزراع فيها واصحاب الحوانيت ومن على شاكتهم كلهم تقريباً وجوههم شاحبة معتلون ، لأنهم موسع عليهم في الأكل مضيق عليهم في اللعب ، لا يذهبون الى الشاطئ ابداً لأن ابتلال الاقدام عندهم

(١) راجع في هذا الشأن (مدرسة الحضانة) لمرغريت مكلان (طبعة دنت سنة ١٩١٩)
صفحة ١٩٧ وكذلك : (مدرسة المعسكر) لنفس المؤلفة (جورج آلن وأنون ليمنت) .

خطر ، ويلبسون خارج البيوت معاطف صوفية سميككة حتى في اشد ايام الصيف
حرأ ، واذا علت اصواتهم في اللعب حملوا على الغض منها ليكونوا مهذبين ،
لكنهم يسمح لهم بالسهر ويعطون من مختلف ألوان الطعام كل ما يعسر هضمه
الا على الكبار . ويعجب آباؤهم من اولادي كيف لم يموتوا من زمن بعيد من
البرد والتعرض لتقلبات الجو ، لكن لا هذا الدرس العلمي ولا غيره يقنعهم بأن
أساليبهم ممكن تحسينها . وهم لا تعوزهم المحبة الوالدية ، لكنهم جهلاء متمسكون
بجهلهم لسوء تربيتهم . اما اطفال فقراء المدن المجهدون فحالهم بالطبع
أدهى وأمر .

لكن حتى اطفال الوالدين المتعلمين تعليماً راقياً الذين لهم ضمائر حية والذين
ليسوا اشغل من اللازم ، حتى اطفال هؤلاء لا يمكن ان يحصلوا في البيت على ما
يحتاجون اليه في سبيل التربية على مثل ما يحصلون عليه في مدرسة الحضانة ،
واول ذلك وأهمه انهم لا يحصلون على صحبة اترابهم من الاطفال . واذا كانت
الأسرة صغيرة كالعادة في امثال هذه الأسر فمن السهل ان يلقي الاطفال من
عناية الكبار اكثر مما ينبغي ، وربما صاروا عصبيين سابقين لأوانهم في النضج ،
وعلاوة على هذا فانه ليس في مقدور الوالدين ان يحصلوا على تجارب في معاملة
اعداد كبيرة من الاطفال مما يجعل اتصالهم بكل واحد من هؤلاء الاطفال نافعا
أكيداً . ثم ان الاغنياء وحدهم هم الذين يستطيعون توفير الباحة والبيئة الأنسب
للاطفال الصغار ، ومثل هذه الاشياء اذا وفرتها أسرة لأطفالها خاصة خلقت
فيهم زهواً بالتملك واحساساً بالعلمو يضران من الناحية الخلقية ضرراً بليفاً .
لهذه الاسباب كلها اعتقد ان الوالدين ولو كانوا من الخيرة يحسنون صنعا اذا بعثوا
اطفالهم من سن الثانية وما بعدها الى مدرسة ملائمة ولو جزءاً من النهار بشرط
ان توجد مثل تلك المدرسة في جوارهم .

ان لدينا في الوقت الحاضر نوعين من المدارس تبعاً لمركز الوالدين . هناك
مدارس فربلية ومدارس منتسورية للاطفال الموسرين ، وهناك عدد صغير من

مدارس الحضانة للاطفال المدقعين اشهرها مدرسة الآنسة مكلان التي يصفها الكتاب الذي سبق ذكره وصفاً يتحتم على كل محب للاطفال ان يقرأه . واكبر ظني انه ليس في الموجود من مدارس اطفال الموسرين مدرسة تضارع مدرستها ، لأن لديها من جهة اعداداً اكبر ، ولأنها من جهة اخرى غير مبتلاة بكبرياء اهل الطبقة الوسطى وتأففاتهم التي يضايقون بها المعلمين . وترمي الآنسة مكلان الى الاحتفاظ بالاطفال من الواحدة الى السابعة اذا أمكن وان مال الثقات في التربية الى الرأي القائل بالتحاق الاطفال بمدرسة أولية عادية في سن الخامسة . ويأتي الاطفال الى مدرستها في الثامنة صباحاً ويمكثون حتى السادسة مساء ، ويتناولون جميع طعامهم بالمدرسة ، ويصرفون اكثر ما يمكن من اوقاتهم في العراء ، ولديهم في الداخل مقدار غير عادي من الهواء النقي . وقبل ان يقبل الطفل بالمدرسة يفحص طبيباً ، ذكراً كان او انثى ، ويعالج حتى يشفى في القسم الطبي او في المستشفى ، وبعد القبول يصير الاطفال أصحاباء ويظلون كذلك الا في احوال نادرة . وفي المدرسة حديقة ظريفة فسيحة يقضي الاطفال كثيراً من وقتهم يلعبون فيها ، ويسير التعليم فيها اجمالاً على النظام المنتسوري ، وينام الاطفال كلهم بعد الغداء . وعلى الرغم من انهم يقضون الليل ويوم الاحد في بيوت قد عضتها الفاقة وربما في سراديب مع آباء سكارى ، فان هؤلاء الاطفال يصبرون في بنيتهم وذكائهم مضارعين لخيرة اطفال الطبقة الوسطى . واليك وصف الآنسة مكلان لتلاميذها الذين في سن السابعة :

كلهم تقريباً اطفال طوال معتدلو القوام ، كلهم في الواقع معتدلو القوام ان لم يكونوا طوالاً ، لكن متوسطهم طفل كبير نام نظيف الجلد براق العينين ناعم الشعر ، فهو (او هي) يزيد قليلاً عن متوسط خير طراز اطفال ذوي اليسار من الطبقة المتوسطة العالية . هذا عن البنية . اما من حيث العقلية فهو يقظ ، يألف ويؤلف ، متشوق الى الحياة والى اكتساب الجديد

من الخبرة . في وسعه ان يقرأ ويتهجى باتقان (او قريباً من
الاتقان) ، يجيد الكتابة ويعبر عما في نفسه بسهولة ، يتكلم
الانجليزية جيدة والفرنسية ايضاً ، ولا تقتصر قدرته على
مساعدته نفسه ، فقد اعتاد من سنوات مساعدة الاطفال
الأصغر منه ، ثم هو يستطيع العد والقياس شيئاً من التفنن
وقد أعد بعض الاعداد لتلقي العلم ، قضى سنواته الاولى في
جو من المحبة والهدوء والفكاهة وامتلات سنتاه الاخيرات
بالخبرات الممتعة والتجارب . له دراية بالجنينة فقد زرع فيها
وسقى ، وعنى بالنباتات كما عنى بالحيوانات . والذي بلغ السابعة
منهم يستطيع ايضاً ان يرقص ويغني ويلعب ألعاباً عديدة .
هؤلاء هم الاطفال الذين سيتقدمون قريباً بالآلاف الى ابواب
المدرسة المتوسطة فماذا يفعل بهم ؟ أريد ان أنبه قبل كل شيء
الى ان معلمي المدارس الأولية سيتغير عملهم بهذا الفيض المفاجيء
من الحياة الصغيرة النظيفة القوية المتفجرة من أسفل . فمدرسة
الحضانة اما ان يسفر المستقبل عن انها امر تافه او بعبارة اخرى
فشل جديد ، واما ان تحدث في الغريب العاجل أثراً ملحوظاً
لا في المدارس الأولية وحدها ولكن في المدارس الثانوية ايضاً .
انها ستمدها بنوع جديد من الاطفال لتربياهم ، وسيكون لذلك
حتماً في العاجل او الآجل رد فعل لا في جميع المدارس فقط
ولكن في حياتنا الاجتماعية بأسرها ، وفي نوع الحكومة
والقوانين التي تصاغ للشعب ، وفي علاقة أمتنا بغيرها من الأمم

ولا ارى هذه الدعاوى مبالغاً فيها ، فمدرسة الحضانة اذا عمت تستطيع
في جيل واحد أن تزيل الفروق العميقة في التربية التي تقسم الطبقات في الوقت
الحاضر ، وتستطيع أن تنتج مواطنين متمتعين كلهم بالنمو العقلي والبدني

المقصود الآن على اكثر الناس حظاً ويساراً ، كما تستطيع أن تزيل كابوس المرض والغباوة والحقد الذي يجعل التقدم الآن على صعوبته الحاضرة . وطبقاً لقانون التعليم الصادر سنة ١٩١٨ كانت مدارس الحضانة لتنشأ على حساب الحكومة ، لكن لما هوى معول الجذر الاقتصادي تقرر أن الأهم هو بناء البوارج السريعة وحوض سنغافورة لتسهيل الحرب مع اليابان . والحكومة تنفق الآن ٦٥٠٠٠٠ جنياً في العام على اغراض مثل حمل الناس على تسهيم أنفسهم بالكيمياويات التي تحفظ لحم خنزير بلاد الدومنيون وزبدها بدلاً من أن يأكلوا الزبد النقي من الدنمرك ، ومن أجل هذا يحكم على أطفالنا بالمرض والشقاء وركود الذهن .. بلايا كانت تنجو منها جماهير الأطفال لو أن نفس المبلغ صرف سنوياً على مدارس الحضانة . وللأمهات الآن حق التصويت ، فهل سيتعلمن يوماً ان يستخدمنه فيما يعود على أطفالهن بالخير ؟

وبغض النظر عن هذه الاعتبارات الاوسع فان ما يجب ادراكه هو أن العناية الحقة بالأطفال الصغار عمل يحتاج الى مهارة عالية لا رجاء للوالدين في القيام بها على الوجه المرضي ، وأنه عمل يخالف تماماً للتعليم بالمدارس في السنوات المقبلة . ولنقتبس مرة أخرى من الآنسة مكلان :

طفل الحضانة يتمتع ببذية متوسطة الجودة ، وليس جيرانه في أماكن الفقر المدقع هم وحدهم الذين يقصرون عنه كثيراً اذ يقصر عنه كذلك من (هم خير منه) في الأحياء الجيدة ، أي أطفال الطبقة الوسطى من الطراز الجيد جداً . ومن الواضح أننا نحتاج الى شيء اكثر من الحب الوالدي و (المسؤولية الوالدية) . فقواعد المسطرة قد انهارت كلها كما انهار كذلك (الحب الوالدي) الخالي من المعرفة . أما تنشئة الطفل فلم يتطرق اليها الانهيار . انها عمل يتطلب مهارة وبراعة عالية .

وتقول عن الناحية المالية :

يمكن اليوم ادارة مدرسة حضانة تحوي مئة طفل بمبلغ ١٢ جنيهاً سنوياً عن كل طفل ، يستطيع الآباء في أفقر الأحياء أن يدفعوا منه ثلثه . ومدرسة حضانة يقوم الطلاب بالتدريس فيها فتكلف اكثر من ذلك ، لكن معظم الزيادة في التكاليف ، التي تدفع لهؤلاء الطلاب كنفقة تعليم واقامة ، انما تدفع لمعلمي المستقبل . وتبلغ تكاليف مركز للحضانة والتدريب في الهواء الطلق نحو ٢٢٠٠ جنية سنوياً اذا كان كل من فيه ١٠٠ طفل و ٣٠ طالباً .

واليك فقرة أخيرة :

سيكون من النتائج العظيمة لمدرسة الحضانة أن يسير الأطفال أسرع في تلقي مناهج العصر الحاضر ، وعندما يتمون نصف حياة المدرسة الأولية الحالية او ثلثها سيكونون على استعداد للانتقال الى دراسات أرقى . وبالجمله فمدرسة الحضانة ، اذا كانت حقاً مكان تنشئة وتربية لا مجرد مكان (لرعاية) الاطفال حتى يبلغوا الخامسة ، ستؤثر في نظام التعليم كله تأثيراً قوياً وسريعاً جداً ، وسترتفع بسرعة بالمستوى الممكن للثقافة والتحصيل في جميع المدارس ابتداء من المدارس المتوسطة ، وستثبت ان في الامكان نحو ما نعيش فيه من حماة المرض والبؤس التي تجعل خدمات الطبيب تبدو اعظم من خدمات المعلم ، وستجعل المدارس ذات الجدران السميكة والبوابات الرهيبة والملاعب الصلبة والفصول الضخمة التي لا تدخلها الشمس تبدو قبيحة فظيعة كما هي في الواقع . انها ستعطي المعلمين فرصة .

وتحتل مدرسة الحضانة مكاناً متوسطاً بين تربية الخلق المبكرة وما يتلوها من تعليم ، فهي تواصل كليهما في وقت واحد مستعينة بكل واحد على الكل بحيث يزداد نصيب التلقين بالتدريج كلما تقدم الطفل في العمر . وقد استطاعت مدام منتسوري في منشآت تشبه مدارس الحضانه في وظيفتها ان تصل بطرقها الى الكمال . ففي بيوت كبيرة للسكنى بروما افردت غرفة كبيرة للأطفال الذين بين الثالثة والسابعة ، وعهد الى مدام منتسوري في الاشراف على بيوت الاطفال هذه . وكان الاطفال كما في دتفورد اطفال افقر الناس ، وقد دلت النتائج ، كما دلت في دتفورد ، على ان العناية المبكرة تستطيع ان تتغلب على المساوىء البدنية والعقلية للبيت السيء .

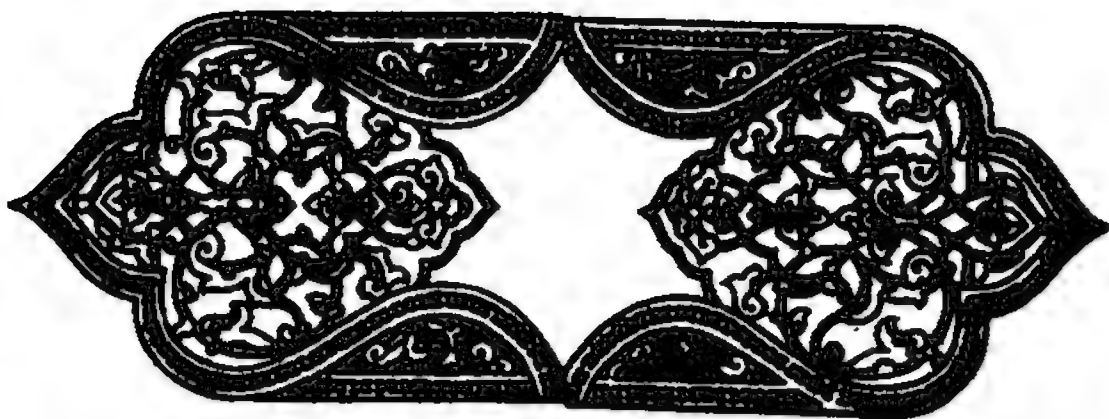
ومما هو جدير بالذكر انه منذ ايام سفوين للآن قد جاء التقدم في اساليب تربية الاطفال الصغار من دراسة المعتوهين وضعاف العقول الذين لا يزالون من بعض النواحي اطفالاً صغاراً في عقليتهم . واني اعتقد ان السبب الذي دعا الى هذا الملف هو ان غباوة مرضى العقول لم تكن تعد مما تلام عليه او مما يمكن علاجه بالضرب . انه لم يخطر على بال احد ان وصفه الضرب التي وصفها الدكتور ارنولد تشفيهم من (الكسل) . وكانت نتيجة ذلك ان عولجوا علمياً لا غضبياً ، فاذا قصرنا عن الفهم لم يثر عليهم اي معلم مغيظ ولم يقل لهم ان عليهم ان ينجلوا من انفسهم . ولو ان الناس راضوا انفسهم على ان ينظروا الى الاطفال نظرة علمية بدلاً من النظرة الوعظية لاستطاعوا ان يكشفوا عما قد عرف الآن من طريقة تربية الاطفال دون ان يضطروا اولاً لدراسة ضعاف العقول . ففكرة (المسؤولية الادبية) هي (المسؤلة) عن كثير من الشر . تصور طفلين كان من حسن حظ احدهما ان يكون في مدرسة الحضانة بينما ظل الآخر متروكاً لحياة الجهل في احياء الفقر المدقع ، هل يكون الطفل الثاني (مسؤولاً ادبياً) اذا شب دون الاول

(١) راجع (طريقة منتسوري) لمنتسوري (هاينمان سنة ١٩١٢) ص ٤٢ وما يليها ،

في خلقه ؟ وهل يكون والداه (مسؤولين ادبياً) عن الجهل والاهمال الذي اهجزهما عن تربيته ؟ وهل يكون الاغنياء (مسؤولين ادبياً) عن الانانية والغبابة اللتين مرنوا وربوا عليها في المدارس العامة واللتين تحملانهم على تفضيل ترفهم الاخرق على خلق مجتمع سعيد ؟ كل هؤلاء ضحايا الظروف ، وكلهم عوجت اخلاقهم في عهد الرضاع او وقف نمو فهمهم في المدرسة ، ولا يصلح من الامر شيئاً ان يعتبروا (مسؤولين ادبياً) وينحى عليهم باللائمة والتقريع لانهم كانوا اسوأ حظاً مما كان يمكن ان يكونوا .

ليس هناك الا طريق واحد للتقدم في التربية والتعليم وفي الشؤون الانسانية الاخرى الا وهو العلم يسخره الحب . فالحب عاجز بغير العلم ، والعلم هادم مدمر بغير الحب . ان كل ما عمل لتحسين اساليب تربية الاطفال الصغار عمله اولئك الذين يحبونهم ، عمله اولئك الذين عرفوا كل ما يستطيع ان يعلمه الناس في هذا الموضوع . وهذه مزية من المزايا التي نجنيها من التعليم العالي للنساء . ففي الايام الخالية حين لم يكن تعليم كهذا كان احتمال الجمع بين العلم وحب الاطفال اقل كثيراً منه الآن . ان القدرة على صياغة العقول الصغيرة - تلك القدرة التي يضعها العلم في ايدينا - قدرة هائلة قابلة لسوء استعمال مهلك ، واذا وقعت في ايد غير صالحة فقد تنتج دنياً تفوق في قسوتها وقلة مبالاتها دنيا الطبيعة الجزاف . فقد يعلم الاطفال التعصب وحب الحرب والوحشية تحت ستار تعليم الديانة والوطنية والشجاعة ، او الشيوعية والسلطة الشعبية والحماسة الثورية . ان التعليم يجب ان يوحى به الحب ويجب ان يرمي الى ايقاظ الحب في الاطفال والا صار اداة ضارة ، تزداد مقدرتها على الاضرار كلما تحسنت الاساليب العلمية وتقدمت . ومحبة الاطفال موجودة في المجتمع كقوة فعالة يدل عليها تقليل نسبة وفيات الاطفال وتحسين التربية . ولا تزال هذه القوة اضعف مما ينبغي والما جرؤ سياسيوننا على تضحية حياة عدد لا حصر له من الاطفال وتضحية سعادتهم في سبيل خططهم الخبيثة لاراقة الدماء واقامة الظلم ، لكنها على هذا قوة

موجودة تزداد . على ان صور الحب الاخرى تنقصنا نقصاً عجبياً ، فالاشخاص الذين يسبقون على الاطفال عنايتهم هم انفسهم يمارن في قلوبهم شهوات ونزوات تعرض اولئك الاطفال انفسهم في مستقبل حياتهم للموت في حروب هي مجرد اعمال جنونية للجماعات . فهل كثير علينا ان نرجو ان تمتد بالتدريج دائرة الحب من الطفل الى الرجل الذي سيشب اليه الطفل ؟ وهلا يتعلم محبو الاطفال ان يتابعوهم في مستقبل سنواتهم بشيء من نفس الحب الابوي والاشفاق ؟ اما آن لنا وقد وهبناهم اجساماً قوية وعقلاً فتيه ان ندعهم يستخدمون قوتهم وعقولهم وفتوتهم في خلق عالم افضل ؟ ام سنجفل فزعاً حين يتجهون الى هذا ونغرقهم مرة اخرى في العبودية والمسكرية ؟ ان العلم متأهب لتحقيق اي البديلين نختار والخيار هو بين الحب والبغض ، وان كان البغض هو المستخفي وراء العبارات المعسولة التي يشيد بها من يحترفون الدعوة الى الخير والاخلاق .



التربية الفكرية

مبادئ عامة

ان تكوين الخلق ، الذي كان موضع اهتمامنا الى الآن ، ينبغي ان يعالج في صميمه في السنوات المبكرة وينبغي اذا احسن القيام عليه ان يكون قد أشرف على التمام في سن السادسة . ولا أعني بذلك ان الخلق لا يمكن ان يفسد بعد هذه السن فليس هناك سن تعجز فيها الظروف أو البيئة الفاسدة عن احداث الاضرار الخلقية ، إنما أعني انه بعد سن السادسة يكون الولد او البنت الذي أحسنت تربيته المبكرة قد كون لنفسه من العادات والميول ما يكفل لنا قيادته في الاتجاه الصحيح اذا أعيرت البيئة التي يعيش فيها شيئاً من العناية . فالمدرسة التي تتألف من اولاد وبنات نشأوا كما ينبغي في سنواتهم الست الاولى تعتبر بيئة صالحة اذا توفر عند القائمين عليها قدر مناسب من حسن التصرف . وينبغي ألا تكون هناك حاجة لتخصيص وقت طويل او قدر كبير من التفكير في المسائل الخلقية ، فان الفضائل الاخرى التي يحتاج اليها النشء ينبغي ان تأتي كنتيجة طبيعية للتربية الفكرية المحضة . ولا اقصد ان اجعل من هذا قاعدة دقيقة ، وإنما اورده كقاعدة

تسترشد بها السلطات المدرسية عند تقرير المسائل الجديرة بالعناية والتوكيد الخاص . و يقيني انه اذا احسنت رعاية الاطفال الى سن السادسة كان خير ما يفعله القائمون على المدارس التي يؤمنونها ان يركزوا جهودهم في التقدم الفكري المحض ويعتمدوا عليه في الوصول الى كل ما يستحب من تقدم خلقي جديد .

ولو ان تحسين الخلق لا ينبغي أن يكون هدفاً من اهداف التعليم فهناك صفات معينة مستحبة للغاية ولا غنى عنها للنجاح في طلب العلم ، يصح ان تسمى الفضائل الفكرية ، ومن الواجب ان تنتج عن تربية الفكر - تنتج عند الحاجة اليها في التعلم لا كفضائل نسعى وراءها لذاتها . ورأس تلك الصفات كما يبدو لي : حب الاطلاع وانفتاح العقل ، واعتقاد امكان المعرفة وإن صعبت ، والصبر والجهد وحصر الذهن والدقة . وحب الاطلاع أساسي من بين هذه الصفات ، فحيثما يكون قوياً وموجهاً الى الأشياء الجديرة به فانه يستتبع بقية الصفات ، لكن لعل التشوف وحب الاطلاع ليس فعالاً الى الدرجة التي تجعل منه اساساً للحياة العقلية أجمعها ، فلا مفر من ان تكون هناك ايضاً رغبة دائمة في القيام بعمل صعب . ان المعرفة التي يحصلها التلميذ يجب ان تبدو له بمثابة مهارة اكتسبها ، شأنها في ذلك شأن المهارة في الألعاب الرياضية البدنية . ولعله لا مفر من ان تكون المهارة المكتسبة مقصورة الى حد على النوع الذي تتطلبه الواجبات المدرسية المصطنعة ، لكن كلما امكن اظهارها بمظهر ضروري لتحقيق غرض ما غير مدرسي يشوق التلميذ نكون قد قمنا بعمل عظيم الاهمية . ومما يؤسف له الفصل بين المعرفة وبين الحياة ، وان كان ذلك لا يمكن تفاديه تماماً في خلال السنوات الدراسية . وحيثما كان التفادي متعذراً فلا مناص من ايراد احاديث من آن لآخر توضح فائدة المعرفة في الحياة (المقصود الفائدة هنا في اوسع معانيها) . ومع ذلك ينبغي ان يسمح بقدر كبير من الاستطلاع والبحث الذي بغيره ما كان يستطاع اكتشاف بعض المعرفة الثمينة جداً (كالرياضة البهتة مثلاً) فهناك كثير من المعرفة يبدو لي قيماً في ذاته بغض النظر عن أي تطبيق عملي

يمكن ان يكون له . وما ينبغي لي ان اشجع الصغار على البحث بدقة لاستكشاف غرض من وراء المعرفة جميعها ، فالاستطلاع او حب الاطلاع الخالي من الغرض أمر طبيعي بالنسبة للصغار ، وهو صفة ثمينة جداً . ويجب ألا نلجأ لإثارة حب المهارة التي تتجلى في الحياة العملية الا حينما يفشل حب الاطلاع الخالي من الغرض . فلكل من الهدفين مكان وما ينبغي ان يسمح لأيهما بأن يزحم الآخر .

واتساع أفق العقل صفة ستظل على الدوام موجودة حيث تصدق الرغبة في المعرفة ، ولا تفارق الانسان الا حيث تختلط رغباته الأخرى باعتقاد انه يعرف الحقيقة بالفعل ، وهذا هو السر في ان هذه الصفة اكثر شيوعاً بين الشبان منها بين المتقدمين في السن . فأوجه نشاط الانسان لا تكاد تنفك عن الارتباط بما يقر عليه رأيه ورجل القانون لا مناص له من القول بأن المجرمين يجب ان يعاقبوا - الا اذا استطاعوا توكيل احد مشاهير المحامين ، والمدرس يتحيز لطريقة التعليم التي يصلح لها بحكم اعدادة وتجاربه ، والسياسي لا يكاد يملك الا الايمان بمبادئ الحزب الذي يغلب ان ينال العمل على يديه . فاذا ما اختار المرء الطريق الذي سيسلكه في الحياة فلن ينتظر منه ان يظل يفكر فيما اذا كان احد الطرق الأخرى أليق وأجدى عليه . ومن ثم كان لاتساع أفق العقل حدوده عند المتقدمين في السن ، وان كان ينبغي ان تكون هذه الحدود اقل ما يمكن . اما في الشباب فما يسميه ولیم جيمس (اختبارات جبرية) اقل بكثير منها بعد الشباب ، وتقل بالتتابع الظروف التي تحمل الانسان على ارادة الاعتقاد . وينبغي ان نشجع الشبان على ان يعتبروا كل شأن من الشؤون قابلاً للمناقشة ، وان يكون في استطاعتهم ان ينبذوا اي رأي تبعاً للحجة . وينطوي تحت هذه الحرية في التفكير الا تكون هناك حرية كاملة في الافعال ، فلا يصح ان يطلق للصبي الحرية ليجري الى البحر تحت تأثير احدى قصص المفامرات الاسبانية ، لكن ما دام في دور التعاليم فينبغي ان يكون حراً في الاعتقاد ان خيراً له ان يكون احد القراصنة من ان يكون احد الاساتذة .

والقدرة على حصر الذهن صفة قيمة جداً ، وقليل من الناس من يكسبها
بغير طريق التربية . نعم انها تنمو بطبيعتها الى حد كبير كلما تقدم الشباب في
السن ، فالأطفال الصغار يندر ان يفكروا في شيء واحد لأكثر من بضع دقائق ،
لكن لكل سن يتقدمونها تجعل التفاتهم اقل تبخراً حتى يكبروا ، ومع ذلك
فلا يكاد يكون من المحتمل ان يكسبوا قدراً كافياً من حصر الذهن دون تربية
عقلية طويلة . وهناك ثلاث صفات تميز قدرة الحصر الكامل للذهن ألا وهي :
الشدة ، والطول ، والرغبة الذاتية . اما الشدة فتوضحها قصة ارشيدز التي
تروى عنه انه لم يلحظ قط استيلاء الرومان على سراكوزة ومقدمهم اليه ليقتلوه
لأنه كان مستغرقاً في حل مسألة رياضية . وأما المقدرة على حصر الذهن في
الموضوع الواحد زمناً طويلاً فضرورية للقيام بالصعب من الاعمال ، بل ولفهم
اي موضوع معقد او عويص . وهي تأتي نتيجة للاهتمام التلقائي العميق بالموضوع .
ومعظم الناس يستطيعون حصر الذهن في لغز من الالغاز زمناً طويلاً ، لكن
هذا ليس كبير الفائدة في ذاته ، فلكي يكون حصر الذهن قيماً حقاً ينبغي ان
يكون تحت سلطان الارادة ، واقصد بذلك ان يستطيع الانسان جبر نفسه على
تحصيل معرفة ما اذا كان لديه على تحصيلها باعث كافٍ ولو لم تكن في ذاتها
تسترعي الاهتمام . ورأيت ان ضبط الالتفات والتسلط عليه عن طريق الارادة
هو اكبر ما نكسبه من التعليم العالي ، ومن هذه الناحية وحدها نجد التعليم القديم
جديراً بالاعجاب ، فإني أشك في نجاح الاساليب الحديثة نجاح الاساليب القديمة
في تعليم الانسان ان يتحمل السأم مختاراً . على ان هذا العيب لو كان موجوداً
بالفعل في اساليب التربية الحديثة فهو بعيد عن ان يكون مستعصياً لا علاج له ،
وتلك مسألة سأعود اليها فيما بعد .

والصبر والجد يجب ان ينتجا عن التربية الجيدة ، وكان المظنون فيما مضى ان
الطريقة الوحيدة لضمانهما في معظم الاحوال هي فرض العادات الجديدة فرضاً على
الشخص ، ولا شك في ان هذه الطريقة تصادف بعض النجاح ، كما في ترويض

الحصان على ان يركب او ان يجز عربة . لكن الافضل في رأبي ان يحفز العااموح اللازم للتغلب على الصعوبات ، وذلك يمكن تحقيقه بتدريج الصعوبات حتى يسهل على المرء في اول الأمر احراز السرور بالنجاح . وعن هذا الطريق يعرف بالخبرة كيف يحني ثمار المثابرة ، وبالتدريج يمكن ان يزداد مقدار المثابرة المطلوبة وهذه الملاحظات تصدق بالضبط على اعتقاد ان المعرفة صعبة لكنها غير مستحيلة المنال . وخير سبيل لتوليد هذا الاعتقاد حمل التلميذ على حل سلسلة من المسائل متدرجة في الصعوبة عن عناية وإحكام .

اما الدقة فهي مثل الضبط الارادي للالتفات في ان دعاء الاصلاح في التربية ربما كانوا أميل الى ان يبخسوها حقها . فالدكتور بلارد يقرر بلهجة التأكيد ان مدارسنا الابتدائية لم تبلغ من هذه الناحية الاجادة التي بلغتها من قبل ، وان كانت هذه المدارس قد تحسنت تحسناً كبيراً من اكثر النواحي ، فهو يقول : (هناك عدد عظيم من الاختبارات التي أعطيت لتلاميذ المدارس في الامتحانات الثانوية في السنوات العشرين الأخيرة من القرن التاسع عشر ، ورتبت نتائجها في جداول للاستعانة بها عند صرف الاعانات ، فاذا ما اعطيت هذه الاختبارات نفسها في ايامنا هذه لاطفال في نفس السن ، كانت النتائج على الدوام أسوأ من تلك بشكل واضح ، ولا شك مطلقاً في هذه الحقيقة مهما تكن اسبابها . واذا نظرنا بصفة عامة وجدنا ان العمل في مدارسنا والابتدائي منها على الاقل ، اقل دقة مما كان عليه منذ ربع قرن . ومناقشة الدكتور بلارد لهذا الموضوع باهرة الى حد انني لا اجد ما يصح ان اضيفه اليها . على اني سأنقل هنا كلماته الختامية : (بعد ان نقتطع كل ما يمكن اقتطاعه تظل الدقة مثلاً اعلى سامياً ملهماً . انها ادب الفكر في السلوك . انها تحدد ما ينبغي ان يسعى الفكر ويرمي اليه حين يطلب مثله الاعلى الجدير به ، وذلك لان مدى دقتنا في افكارنا واقوالنا وافعالنا مقياس تقريبي لتعلقنا بالحق واخلاصنا له) .

والصعوبة التي يلاقيها انصار الطرق الحديثة هي ان الدقة كما نعلمها في يومنا

هذا تنطوي على الملل والسأم . ولو استطعنا ان نجعل التربية عملية مشوقة لكان في ذلك غنم عظيم . على اننا يجب ان نفرق هنا بين امرين : السأم الذي مصدره المعلم وحده وهو كله سيء بغيض ، والسأم الذي يتحمله التلميذ طائعا مختاراً لكي يحقق املاً يصبو اليه ، فهذا له قيمته ما لم يتجاوز حدوده . وينبغي ان يكون جزءاً من التربية ان نلهب في التلاميذ رغبات ليس من السهل اشباعها - كمعرفة التفاضل والتكامل او قراءة هومر ، او اجادة العزف على الكمان او ما الى ذلك ، فكل واحدة من هذه تنطوي على دقة خاصة بها . فالقادرون من الاولاد او البنات يصمدون لمتاعب لا آخر لها ، ويخضعون مختارين للقاسي من النظم كي يحصلوا نوعاً من المعرفة او المهارة يشتهونه ، اما الذين هم أقل حظاً من المقدرة فمن المستطاع أن نذكى في نفوسهم صنوفاً من الطموح شبيهة بتلك اذا علمناهم بغيرة وروح ، فالقوة الدافعة في التعليم ينبغي أن تكون رغبة التلميذ في التعلم لا سلطان المعلم ، ولا ينتج من هذا ان التعليم ينبغي في كل مرحلة من مراحلها ان يكون هيناً ليناً شائعاً . ويصدق هذا بصفة خاصة على مسألة الدقة ، فتحصيل المعرفة الدقيقة خلاق بأن يبعث على الضجر والسأم ؛ لكنه ضروري لكل نوع من انواع الاجادة والتفوق ، ومن المستطاع اظهار هذه الحقيقة واضحة لكل طفل بالطرق الملائمة . وبقدر فشل الطرق الحديثة في هذا الصدد نحكم بأنها على خطأ . وفي هذا ، كما في كثير غيره قد يجر الانتفاض على اساليب التأديب العتيقة الرديئة الى افراط في التراخي يجب ان يحل محله نوع جديد من التأديب فيه من الوازع الداخلي والباعث النفساني اكثر مما في الطريقة القديمة التي تعتمد على السلطان الخارجي ، وهذا النوع الجديد من التأديب ستكون الدقة هي التعبير الفكري عنه .

وهناك انواع مختلفة من الدقة لكل منها اهميته الخاصة . فلنتحدث عن الاساسي منها: هناك الدقة العضلية والدقة الذوقية ، والدقة في الشئون الواقعية ، والدقة المنطقية . ويستطيع كل ولد وبنت تقدير اهمية الدقة العضلية في نواح

عدة ، فهي لازمة للتسلط على الجسم ذلك التسلط الذي يصرف الطفل الصحيح كل اوقات فراغه في اكتسابه ، ولازمة بعد ذلك للألعاب التي تتوقف عليها مكانة الانسان . لكن لهذه الدقة العضلية صور اخرى اعظم اتصالا بالتعليم المدرسي ، كلافصاح في الكلام والاجادة في الكتابة والعزف الصحيح على آلة موسيقية . ويتوقف حكم الطفل على اهمية هذه الاشياء او عدم اهميتها على بيئته . اما الدقة الذوقية فمن الصعب تعريفها ، فهي تتصل بالتلاؤم بين المنبه المحسوس والعاطفة التي ينتجها . ومن الطرق التي تعلم الطفل نوعاً هاماً منها حمل الأطفال على حفظ الشعر عن ظهر قلب - كحفظ شعر شكسبير بقصد التمثيل - واشعارهم حين يخطئون لماذا كانت القطعة الأصلية افضل . وفي اعتقادي انه حينما تسود الحساسية بالجمال وتنتشر نجد الأطفال يعلمون القيام بأدوار تقليدية معادة كالرقص والغناء ، ويجدون فيها متعة ولكن يتحتم ان يأتوا بها على الوجه الصحيح طبقاً للتقاليد بالضبط ، وهذا يجعلهم يحسون بالفروق الصغيرة في الأداء وهو مالا غنى عنه للوصول الى الدقة ، فالتمثيل والغناء والرقص ، كلها تبدو لي خير الطرق لتعليم الدقة الذوقية . والرسم اقل صلاحية منها لأنه عرضة لأن يحكم عليه بمقدار مطابقته للنموذج ، لا بمعايير الجمال . حقاً ان القيام بأدوار ثابتة متكررة يستلزم ايضاً تقليد نموذج خلقته البواعث الفنية ، ينقل لانه جيد لا لأن النقل في ذاته مستحب .

والواقع ان الدقة في الوقائع من حيث هي تكون ممة الى حد لا يحتمل ، فحفظ تواريخ ملوك انجلترا او اسماء الممالك وعواصمها كان فيما مضى مما يفرع الأطفال . وخير لنا ان نحوز الدقة عن طريق الاهتمام والتكرار ، فاني شخصياً لم استطع قط ان اتذكر قائمة الرؤوس في الجغرافيا ، مع اني عندما كنت في الثامنة من عمري كنت اعرف محطات سكك الحديد تحت الأرض كلها تقريباً . ولو اننا عرضنا على الأطفال فيلماً سينمائياً يمثل سفينة تسير بجذاء الشاطئ وهي مبحرة ، فأنهم سرعان ما يعرفون الرؤوس ويحفظونها . ولست اعتقد ان

معرفة هذه الرؤوس لها قيمة ، ولكن ان كانت تستحق المعرفة فهذا هو طريق
تحفيظها للتلاميذ . فينبغي ان يكون تعليم الجغرافيا كله بواسطة السينما ، وكذلك
تعليم التاريخ في مراحله الاولى . حقيقة ان التكاليف الابتدائية ستكون باذلة
لكنها ليست فوق طاقة الحكومات وسيتلوها فيما بعد اقتصاد كبير بسبب
سهولة التعلم .

اما الدقة المنطقية فتحصيلها يتأخر عادة ويجب الا تفرض على الأطفال
الصغار . وحفظ جدول الضرب جيداً هو بالطبع دقة من ناحية الواقع ، لكنه
لا يصير دقة منطقية الا في مرحلة متأخرة جداً . والوسيلة الطبيعية لتعليمه هي
الرياضيات ، لكنها تفشل في ذلك لو بدت للطفل كأنها مجموعة من القواعد
تفرض اعتباراً بغير حكمة ظاهرة . فالقواعد يجب ان تعلم ، ولكن الأسباب
التي بنيت عليها يجب ان توضح في احدى المراحل ، فان لم نفعل ذلك اصبحت
الرياضة قليلة الفائدة من الناحية التعليمية .

والآن اتناول مسألة عرضت لنا من قبل ونحن نتكلم عن الدقة ، الا وهي :
الى اي حد يمكن او يستحب جعل التعليم كله شائعاً ؟ كان الرأي القديم ان
كثيراً من التعليم يجب ان يكون عقيماً مملاً ، وان الوسيلة الوحيدة لحل الولد
المتوسط على ان يصمد له هو استخدام السلطة الصارمة (اما البنات المتوسطة
فكان المفروض ان تظل في جهالتها) . اما الرأي الحديث فيقول بأن عملية
التعليم يمكن ان تكون في جميع مراحلها مبعثاً للسرور والابتهاج ، واني اميل
الى الرأي الحديث واشد عاطفاً عليه مني على الرأي القديم ، ومع ذلك فلا بد
له في رأبي من بضعة قيود لا سيما في التعليم العالي . وسأبدأ بما اراه فيه صواباً .

يؤكد جميع الكتاب الحديثين في موضوع نفسانية الطفولة انه من الاهمية
بمكان ألا يستحث الطفل الصغير على الأكل او النوم ، لأن مثل هذه الاشياء يبغي
ان يفعلها الطفل من تلقاء نفسه لا بدافع من الاغراء او الضغط . وان تجاربي

الشخصية لتؤيد تلك التعاليم تماماً ، وقد كنا في أول الامر نجهل التعاليم الجديدة وجربنا الطرق القديمة ففشلت ، بينما نجحت الاساليب الحديثة تماماً . ومع ذلك يجب الا يتسرب الى الذهن ان الوالد الحديث يقف مكتوف اليدين بالنسبة للأكل او النوم ، فهو على النقيض من ذلك يبذل كل ما في وسعه ليعاون في تكوين العادات الجيدة . فوجبات الطعام تقدم في اوقات منتظمة ، ويجلس الطفل خلالها لا يلعب ، سواء أكل أم لم يأكل . كذلك يحين وقت النوم بانتظام ، وعند ذاك يوضع الطفل في السرير ويسمح له بأخذ اللعب الحيوانية ليحتضنها ، ولا يسمح له باللعب التي تجري ، او التي ينبعث منها أصوات ، او التي تثير الطفل بأية حال من الاحوال . واما ان كان الحيوان أليفاً فيصح أن يلعب الطفل لعبة مؤداها ان الحيوان متعب وان على الطفل ان يحمله على النوم . بعد ذلك يترك الطفل وحده فسرعان ما يأتيه النوم . لكن حذار من ان يفهم الطفل انك حريص على ان ينام او يأكل ، فان ذلك يؤدي به في الحال الى الظن بأنك تسأله معروفاً ، وهذا يمدده بالاحساس بالقوة ، وهذا الاحساس يجعله يتطلب المزيد من الاغراء او العقاب . فيجب ان يطعم وينام لأنه يريد ذلك ، لا من اجل ان يبعث في نفسك السرور .

وواضح ان هذه النفسانية تنطبق الى حد كبير على التعليم ، فاذا أصررت على تعليم الطفل استنتج انك تطلب منه ان يفعل ما يكره من اجل مسرتك انت ، ويؤدي ذلك الى مقاومة نفسية لو نشأت في مبدأ الامر استمرت على الدوام . فاذا تقدمت سن التلميذ فقد تصير رغبته في اجتياز الامتحانات ملحة وواضحة تحفزه الى العمل ، فهو عمل غير صادر عن مجرد الرغبة في المعرفة ، ثم تعطيه المعلومات التي يريدتها على سبيل إسداء معروف اليه ، فان الموقف كله يتغير اذ تقل الحاجة الى التأديب الخارجي ونظفر بالتفات التلميذ بغير صعوبة ، ولكي تنجح هذه الطريقة يجب ان تتوفر شروط معينة كانت مدام منتسوري تنجح في خلفها بين الصغار ، فالواجبات يجب ان تكون جذابة وليست على

جانب كبير من الصعوبة . فلا بد أولاً من المثل يضربه الاطفال الآخرون في مرحلة أكثر تقدماً عن الطفل قليلاً . ويجب ألا يكون هناك امامه في نفس الوقت شاغل آخر محجب ، فكل طفل يستطيع ان يذتقي بنفسه من الاشياء العديدة التي امامه ما يفضله ليشغل به نفسه . وهذه طريقة يسر لها ويسعد بها كل الاطفال تقريباً ، ويتعلمون عن طريقها القراءة والكتابة بغير ضغط قبل ان يتموا الخامسة من عمرهم .

اما الى اي حد يمكن تطبيق طرق كهذه على الاطفال الكبار تطبيقاً مفيداً فمسألة فيها نظر . فكما تقدم الاطفال في العمر اخذوا يستجيبون لبواعث أبعد من تلك ، ولم يعد من الضروري ان تكون كل نقطة من التفاصيل مشوقة في ذاتها . لكنني اظن ان القاعدة العامة التي تفضي بأن الدافع في التربية ينبغي ان ينبع من التلميذ نفسه ، هذه القاعدة يمكن متابعة السير طبقاً لها الى اي سن . وينبغي ان نهىء الوسط والبيئة بحيث تثير هذا الدافع ، ونجعل السأم والعزلة هما البديل الوحيد من التعلم . لكن اذا أثر اي طفل هذا البديل في اية مناسبة وجب ان يسمح له بأن يختاره . ويصح التوسع في مبدأ العمل الشخصي وان كان يبدو لي انه لا يمكن الاستغناء بعد السنوات الاولى عن قدر معين من العمل الجماعي في الفصل . فاذا ما لزمنا السلطة الخارجية بعد تحمل الفتى او الفتاة على التعلم فالراجع عندئذ (ان لم يكن هناك سبب طبي) ان يكون المعلم على خطأ او أن تكون التربية الخلقية السابقة سيئة ، اذ ينبغي اذا احسنت تربية الطفل الى سن الخامسة او السادسة ان يكون في مقدور كل معلم جيد ان يظفر باهتمامه في جميع المراحل التالية .

والمزايا التي تتبع إمكان هذا عزيمة اذ يبدو المعلم صديقاً للتلميذ لا عدواً له ، ويتعلم الطفل أسرع من ذي قبل « لأنه يكون مدفوعاً بروح التعاون ، ويكون تعبته في التعلم اقل » لأنه يبذل جهداً مستمراً في استحضار ذهن صرفه الملل والسأم . ثم ان هذا يزيد فيه حاسة الابتكار الشخصي بدلاً من اضعافها . وبناء على هذه

المزايا يجدر بنا ان نفترض ان في الاستطاعة حمل التلميذ على ان يتعلم بدافع من رغباته الشخصية بغير حاجة الى استخدام الضغط من جانب المعلم . واذا ما تبين ان نسبة ضئيلة من الحالات تفشل معها هذه الطرق فان من المستطاع عزلها وتعليمها بوسائل اخرى . لكنني أعتقد انه لو هيئت الاساليب الملائمة لذكاء الطفل فان حالات الفشل تكون اقل من القليل .

ولا اعتقد ان في الامكان جعل التعليم المتين المستقصى مشوقاً من اوله الى آخره لأسباب ذكرناها عند الكلام عن الدقة ، اذ لا بد منها عظمت رغبة المرء في الامام بموضوع ما ان تظل بعض اجزاء منه جافة ثقيلة على نفسه . ولكنني اعتقد ان من الممكن بالارشاد الملائم اشعار الولد او البنت بأهمية تعلم تلك الأجزاء الجافة الثقيلة بحيث يتم تعلمها بغير ادنى ضغط . ويحسن استغلال المدح واللوم كحافز يستخدم على اثر اجادة التلميذ القيام بالواجبات او تقصيره في ادائها . وينبغي كما في الالعاب او الرياضة البدنية ان يوضح للتلميذ تماماً ما اذا كانت لديه المهارة الكافية ام انها تنقصه ، كما ينبغي على المدرس ان يوضح للتلميذ أهمية الأجزاء الجافة الثقيلة من الموضوع ، فاذا فشلت كل هذه الاساليب كان لا بد من ادخال التلميذ في عداد الاغبياء وتعليمه وحده بعيداً عن الاطفال الطبيعيين في ذكائهم مع بذل الجهد حتى لا يبدو هذا الاجراء كأنه عقوبة .

وينبغي الا في الاحوال النادرة جداً الا يكون المعلم احد والدي الطفل حتى في السنوات المبكرة (اي بعد سن الرابعة مثلاً) . فالتعليم عمل يحتاج مهارة من نوع خاص يمكن ان تكتسب ، ولكن معظم الوالدين لم تتح لهم فرصة اكتسابها ، وكلما صغرت سن الطفل زادت المهارة اللازمة في تعليمه . وبغض النظر عن هذا فان الوالدين كانا قبل ان تبدأ التربية الرسمية على اتصال مستمر بالطفل ، تكونت في خلاله لدى الطفل تجاه الوالد مجموعة من العادات والتوقعات التي لا تعتبر ملائمة تماماً تجاه المعلم . وفضلاً عن هذا فان الوالد اقرب ان يكون اشد حرصاً واعظماً اهتماماً بتقديم طفله ، فيظهر عليه اكثر مما ينبغي من السرور

بما يبدو على طفله من نجابة، ومن الغيظ لما يبدو عليه من بلادة . فالأسباب التي حملت رجال الطب على ألا يعالجوا أسرهم الخاصة هي بعينها التي تمنع الماعلم من تعليم أطفاله . لكنني بطبيعة الحال لا اقصد ان يمتنع الآباء عن ان يعطوا اطفالهم من التعليم ما يأتي عفواً ، انما اقصد انهم في العادة ليسوا خیر من يعطيهم الدروس المدرسية الرسمية ولو كانوا اهلاً لتعليم اطفال غيرهم من الناس .

ويجب ان يتخلل عملية التربية من اول ايامها الى آخرها احساس بالمغامرة الفكرية . فالدنيا مملوءة بالاشياء المحيرة التي يمكن فهمها ببذل الجهد الكافي ، وشعور الانسان بفهم ما كان يحيره يجد له انتعاشاً ومنتعة ، وكل معلم جيد ينبغي ان يكون في استطاعته ان يهب الطفل ذلك كله . وتصف مدام منتسوري سرور الاطفال وابتهاجهم حين يجدون انفسهم قادرين على الكتابة ، واني لأذكر شعوري الذي كان يقرب من النشوة عندما قرأت لأول مرة استنتاج نيوتن لقانون كبلر الثاني من قانون الجاذبية ، وقلّ ان يكون السرور نقياً ونافعاً معاً كما في حالة كهذه . فالعمل الشخصي الابتكاري يهيء للتلميذ فرصة للكشف ، ومن ثم يمدّه بحاسة المغامرة الفكرية في مناسبات اكثر وبقوة اشد منها حين يعلم كل شيء في الفصل . فلندع التلميذ يستخدم فاعليته كلما امكن ذلك بدلاً من ان يكون متلقياً فحسب . وهذا سر من الاسرار جعل التربية مصدراً للسعادة بدلاً من ان تكون مصدراً للعقاب .

منهج الدراسة قبل الرابعة عشرة

تري ماذا ينبغي ان يعلم ؟ و كيف ينبغي ان يعلم ؟ سؤالان بينهما صلة وثيقة ؟
اذ كلما تحسنت طرق التعليم ازداد ما يمكن تعلمه وبخاصة اذا كانت عند التلاميذ
رغبة في التعلم فلا يعتبرونه عملاً مملاً . وقد قلت فيما مضى شيئاً عن طرق التعليم
وسأقول اكثر في فصل تال ، اما الآن فسأفترض ان الطرق المستخدمة هي خير
الطرق ، وسأنظر فيما ينبغي ان يعلم .

اذا فكرنا فيما ينبغي ان يعرفه البالغ فسرعان ما ندرك ان هناك اشياء
ينبغي ان يعرفها كل الناس واخرى يجب ان يعرفها فريق منهم ولا حاجة بالآخرين
اليها . فالطب مثلاً يجب ان يعرفه بعض الناس ، لكن يكفي سواد الناس
تحصيل معلومات ابتدائية عن علم الصحة وعلم وظائف الاعضاء . كذلك ينبغي
ان يعرف بعض الناس علم الرياضة العالية ، لكن الاوليات البسيطة تكفي اولئك
الذين لا يستسيغون الرياضيات وينبغي ان يعرف البعض كيف ينفخ في البوق .
لكن من لطف الله انه لا يتحتم على كل طفل في المدرسة ان يتمرن على هذه الآلة .

ويمكننا ان نقول بوجه عام ان الاشياء التي تعلم في المدرسة قبل سن الرابعة عشرة ينبغي ان تكون من بين ما يتحتم على كل غرد ان يعرفه ، فان التخصص اذا صرفنا النظر عن الحالات الشاذة ينبغي ان يأتي متأخراً . ومع ذلك ينبغي ان يكون من اغراض التربية قبل الرابعة عشرة استكشاف الميول الخاصة في الاولاد والبنات حتى اذا ما ظهرت عني بتنميتها في السنوات التالية . من اجل هذا يحذر بكل انسان ان يتعلم المبادئ البسيطة للمواد التي لا يحتاج من لا يجيدونها ان يتابعوها . وبعد ان نقرر ما ينبغي ان يعرفه كل بالغ يكون علينا ان نقرر ترتيب تعليم المواد ، وسنسترشد هنا بطبيعة الحال بصعوبتها النسبية مبتدئين بأسهلها . وهذان المبدآن يعينان الى حد كبير منهج الدراسة في سنوات المدرسة الاولى .

وسأفترض ان الطفل حين يبلغ الخامسة من عمره يكون قد عرف القراءة والكتابة ، وسيقع عبء هذا على مدرسة منتسوري او ما يبتكر من تحسين عليها فيما بعد . وفي هذه المدرسة ايضاً يتعلم الطفل نوعاً من الدقة في الادراك بالحواس كما يتعلم مبادئ الرسم والغناء والرقص والمقدرة على حصر الذهن في عمل متصل بتربيته حين يكون بين عدد من رفاقه . ولن يصل الطفل بطبيعة الحال الى الكمال في هذه النواحي عندما يبلغ الخامسة ، بل سيكون في حاجة الى متابعة التعلم فيها جميعاً في خلال بضع السنوات التالية . ولست أرى وجوب القيام بأي عمل يتطلب مجهوداً عقلياً شديداً قبل سن السابعة ، لكن من المستطاع انقصاص الصعوبات الى حد كبير اذا أوتينا المهارة الكافية . والحساب من عقارب الطفولة - واني لأذكر بكائي المر لمعجزي عن حفظ جدول الضرب - لكنه اذا عولج بعناية وتدرج بواسطة جهاز منتسوري لا يترك محلاً لشعور العجز واليأس الذي كانت تبعثه فينا اسراره الغامضة . على انه لا مناص في آخر الامر من جهاد مضمّن للتمكن من بعض قواعده اذا أردنا اكتساب سهولة كافية في اجراء عملياته ، فالحساب اشد مواد الدراسة الاولى استعصاء على الدخول في منهج يراد جعله

شيقاً ، ومع ذلك فهناك قدر من المهارة الحسابية لا بد منه لأسباب عملية . كذلك الحساب مقدمة طبيعية لاعتياد الدقة ، فجواب المسألة اما ان يكون صحيحاً او خطأ ولا يكون ابداً شيقاً او فيه نظر ، وهذا يجعل للحساب اهمية كعنصر من عناصر التربية الاولى بغض النظر عن فائدته العملية ، لكن يجب ان نعنى بتدريج صعوباته وتوزيعها توزيعاً يسهل التغلب عليها فلا نخصص لها في المرة الواحدة وقتاً اطول مما ينبغي .

ولقد كانت الجغرافيا والتاريخ عندما كنت صبياً من أسوأ المواد تعليمياً ، كنت اخشى درس الجغرافيا ، ولئن تحملت درس التاريخ فانما يرجع ذلك لما كنت اشعر به على الدوام من ميل اليه . وكلتا المادتين يمكن ان تكونا خلابتين حتى لصغار الأطفال ، فولدي الصغير وان لم يتلق اي درس يعرف بالفعل من الجغرافيا اكثر بكثير مما تعرفه حاضنته . وقد اكتسب هذه المعرفة عن طريق حبه للقطارات والبواخر ، ذلك الحب الذي يشاطره فيه كل الصبيان ، فهو يريد ان يعرف الكثير عن الرحلات التي ستقوم بها بواخره الوهمية ، ويستمتع الي بمنتهى الالتفات حين احده عن مراحل الرحلة الى الصين ، ثم أريه اذا شاء صوراً ومناظر لمختلف الممالك التي في الطريق ، وهو يصير احياناً على أخذ الاطلس الكبير ليتابع الرحلة على الخريطة . والسفرة بين لندن وكورنول في القطار تشوقه الى حد كبير ، اذ يقوم بها مرتين في العام ، فهو يعرف كل المحطات التي يقف عليها القطار او التي فيها تفصل بعض العربات . وهو مفتون بالقطب الشمالي والقطب الجنوبي ، ويعجب لم لا يوجد قطب شرقي او قطب غربي . وهو يعرف اتجاه فرنسا واسبانيا وامريكا على البحر ، وقدرأ كبيراً عما يمكن رؤيته في تلك الممالك . ولم يأت شيء من هذا عن طريق التلقين وانما كان كله عن طريق الاستجابة الى الاستطلاع الملح . فكل طفل تقريباً يشعر باهتمام وشوق نحو الجغرافيا بمجرد اقترانها بفكرة السياحة . ولذا فاني افضل تعليم الجغرافيا عن طريق الصور وقصص الرحالين من جهة ، وخصوصاً عن طريق عرض ما يراه

السائح في رحلته بالسينما . ومعرفة الحقائق الجغرافية مفيدة لكن ليست لها قيمة ذاتية من ناحية التفكير . فاذا ما وضحت الجغرافيا وتحلت بالصور فعندئذ تكون لها ميزة تقديم غذاء صالح للخيال . ومن الخير ان نعرف ان هناك اقطاراً حارة واخرى باردة ، واقطاراً سهلة واخرى جبلية ، وان هنالك رجالاً سوداً وصفراً وآخرين سمراً وحمراً علاوة على الرجال البيض ، فهذا النوع من المعرفة يقلل ما للوسط المألوف لنا من طغيان على خيالنا ، ويسهل امكان شعور الانسان في حياته المستقبلية بأن الاقطار البعيدة موجودة حقاً ، وهذا ما يصعب جداً تحقيقه الا عن طريق السياحة . ولهذا الاسباب أرى ان يخصص للجغرافيا مكان كبير في تعليم الاطفال الصغار جداً ، وستأخذني الدهشة ان لم يبد عليهم الاستمتاع بهذه المادة . ثم ينبغي ان يعطوا بعد ذلك كتباً محلاة بالصور والخرائط والمعلومات الأولية عن مختلف اجزاء العالم ويطالبوا بكتابة مقالات صغيرة عن خصائص مختلف الاقطار .

وما يصدق على الجغرافيا يصدق الى حد اكبر على التاريخ وان في سن اكبر قليلاً ، لأن حاسة الوقت تكون بدائية في اول الامر . اني اعتقد ان التاريخ يمكن ان يبدأ به ويستفاد منه في سن الخامسة اذا اتخذ في اول الامر صورة قصص شيقة عن عظماء الرجال موضحة بصور كثيرة . قد اعطيت في هذه السن تاريخاً مصوراً لانجلترا ، وقد ترك في نفسي عبور الملكة ماتيلدا لنهر التايمز عند أبنجدن على الجليد أثراً عميقاً الى حد انه اخذتني هزة عندما عبرت هذا النهر على هذه الصورة في سن الثانية عشرة ، وخيل اليّ ان الملك ستيفن كان وراثي . وأعتقد انه لا يوجد ولد في سن الخامسة يعجز عن ان تشوقه حياة الاسكندر وتسترعي اهتمامه . ولعل كولبوس اكثر صلة بالجغرافيا منه بالتاريخ ، واستطيع ان اشهد انه يشوق الاطفال وهم في سن الثانية ، او على الاقل يشوق اولئك الذين يعرفون البحر منهم . وينبغي ان يكون الطفل عندما يبلغ السادسة قد نضج لتلقي صورة مختصرة من تاريخ العالم على نمط المستر ولز بعد ان يبسط

التبسيط اللازم وتعدله صور او افلام سينائية ان امكن . واذا كان يعيش في لندن ففي وسعه ان يرى الوحوش الغريبة في متحف التاريخ الطبيعي ، ولكني أرى ألا يؤخذ الى المتحف البريطاني قبل سن العاشرة او ما حولها . ومن الواجب ان نكون على حذر عند تعليم التاريخ ، فلا نقحم النواحي التي تشوقنا منه حتى يكون الطفل قد نضج لتلقيها . وأول ناحيتين تشوقانه هما : الموكب العام الذي يمثل السير من العصور الجيولوجية الى الانسان ، ومن الانسان المتوحش الى الانسان المتمدن هلمجرًا هذه ناحية . والناحية الثانية الوصف القصصي التمثيلي المشوق للحوادث التي فيها بطل يستدر العطف ولكني ارى انه يجدر بنا ان نتمثل أمام أعيننا دائماً سلسلة طويلة نهتدي بها ، هي فكرة التقدم التدريجي المتعثر تعترضه على الدوام وتعوقه في سيره الوحشية التي ورثناها ، ومع ذلك تقودنا هذه الفكرة تدريجياً عن طريق العلم نحو السيطرة على أنفسنا وعلى المحيط الذي نعيش فيه . فالفكرة كما أتصورها يتمثل فيها الجنس البشري بأسره يحارب ويصارع الفوضى من الخارج والظلام من الداخل ، بينما ينمو ويكبر بالتدريج ذلك المصباح الصغير الضئيل الذي يمثل العقل والتفكير حتى يصير نورا عظيماً يمحو الليل ويبدد الظلام . وينبغي أن تعتبر الانقسامات بين الأجناس والأمم والعقائد مجرد حمق يلهينا ويشغلنا اثناء المعركة ضد الفوضى والظلام القديم ، تلك المعركة التي تمثل نشاطنا الانساني الحق .

واني أرى أن نعطي الطفل أولاً ما يوضح هذه الفكرة واذا أعطيناه الفكرة نفسها فلا يكون ذلك الا فيما بعد . أرى أن نبين له الانسان المتوحش منكشاً في البرد يقرض فواكه الأرض دون طبخ ، ونريه استكشاف النار وآثار ذلك ، وكيف بدأت الزراعة في وادي النيل ، وكيف استألف الانسان الغنم والبقر والكلاب ، وكيف تطورت السفن ونمت من القارب الصغير الى أكبر بواخر المحيط ، وكيف تطورت المدن ونمت من محلات سكان الكهوف الى لندن ونيويورك ، وكيف نشأت الكتابة والأرقام ونمت بالتدريج ، ونريه لمعان

والاطفال الذين يشتركون في تمثيل يوليوس قيصر او تاجر البندقية أو أية مسرحية اخرى مناسبة لا يقتصرون على معرفة ادوارهم الخاصة ولكن يعرفون ايضاً معظم الادوار الاخرى ، وتظل المسرحية عالقة بأذهانهم زمناً طويلاً ذلك كله عن طريق ابتهاجهم بالتمثيل وسرورهم منه . على ان الادب الجيد ، فنصوده به ادخال السرور على النفس ، فاذا لم يستطع الاطفال ان يظفروا منه بهذا السرور فلن يستطيعوا الظفر منه بفائدة تذكر . هذه الاسباب ينبغي في رأيي ان يقتصر تعليم الادب في السنوات الاولى على حفظ ادوار للتمثيل ، وما تبقى بعد ذلك يكون عبارة عن مطالعة اختيارية لقصص جيدة الكتابة يحصل عليها الطفل من مكتبة المدرسة . والناس يكتبون في هذه الايام للاطفال كتابات سخيفة عاطفية تهين كرامة الاطفال لما قنطوي عليه من استصغار لهم . قارن ذلك بالجد البالغ في روبنسن كروزو . وتغليب العاطفة في معاملة الاطفال وفي غيرها ينم عن الفشل في العطف على نظريتهم الجدية للحياة ، فليس يوجد طفل يستظرف القيام بأعمال طفلية ، بل يود ان يتعلم بأسرع ما يمكن كيف يسلك مسلك الكبار ، ومن ثم ينبغي الا يظهر اي كتاب يصف للاطفال الانتصار لهم باتباع اساليبهم الطفلية . ان التساخف المفتعل في كثير من كتب الاطفال الحديثة ليثير الاشمزاز والسخط ، فهي اما ان تسيء الى الطفل وتغضبه ، واما ان تحيره وتربك بواعث النمو العقلي عنده . لهذا السبب كانت خير الكتب للأطفال هي التي كتبت للكبار واتفق ان كانت ملائمة للأطفال ، لا يستثنى من ذلك الا الكتب التي كتبت للأطفال وصادفت هوى لدى الكبار ، ككتب لير ، ولويس كارول .

ومشكلة اللغات الحديثة ليست بالسهولة التي يتصورها البعض . ان من الممكن في الطفولة ان يتعلم الانسان كيف يتقن الكلام بلغة حديثة ، وهذا مالا يتيسر اذا تقدم العمر ، ومن ثم كانت هناك اسباب قوية تحملنا اذا اردنا ان نعلم اللغات على ان نبكر بذلك في الطفولة . ويظهر ان بعض الناس يخشى ان تتأثر

لغة الطفل الأصلية تأثراً سيئاً اذا بكرنا بتعليمه غيرها . لكنني لا اعتقد ذلك ، فقد كان تولستوي وتورجنيف قادرين تماماً في اللغة الروسية على الرغم من انها تعلمتا في طفولتهما الانجليزية والفرنسية والالمانية ، وكان جيبون يستطيع ان يكتب بالفرنسية بنفس السهولة التي يكتب بها بالانجليزية ولم يؤثر ذلك في اسلوبه الانجليزي .

وخلال القرن الثامن عشر جرى العرف بأن يتعلم جميع الارستقراطيين الانكليزية اللغة الفرنسية في بواكير الشباب ، وكثير منهم كان يتعلم الايطالية كذلك ، ومع ذلك ، كانت لغتهم الانجليزية افضل بكثير من لغة ذرياتهم الحديثين . والغريزة التمثيلية عند الطفل تمنعه من ان يخلط لغة بغيرها بشرط ان يتكلم بها مع اناس مختلفين ، وقد تعلمت الالمانية في نفس الوقت الذي تعلمت فيه الانجليزية وتكلمت بها مع الحاضنات والمربيات الى سن العاشرة ، ثم تعلمت الفرنسية وتكلمتها مع المربيات والمعلمين الخصوصيين ، ولم اخلط بينهما وبين الانجليزية لأن كلا منها كان مقترناً عندي بملابسات خاصة . ورأيت أنه ينبغي اذا اريد تعليم لغة حديثة ان يتم ذلك على يد شخص هي لغته الأصلية ، لا لانه يكون احسن تعليماً لها فحسب ، ولكن لان الاطفال يكون شعورهم بالغرابة عندما يتكلمون لغة أجنبية مع اجني اقل مما لو تكلموها مع شخص لغته الطبيعية هي نفس لغتهم . لذلك ارى ان كل مدرسة أطفال ينبغي ان يكون بها معلمة فرنسية واخرى المانية ايضاً ان امكن ، لا تعلمان الاطفال لغتهما بالطريقة التقليدية (الا في بدء الامر فقط) ولكن بمشاطرتها الاطفال العاهلهم والتكلم معهم كل بلغتها اثناء اللعب ، وتجعلان الفوز في الالعاب متوقفاً على فهمهم واجاباتهم متدرجتين معهم فيها من الابطس الى الاعقد . بهذه الوسيلة يمكن تحصيل اللغة بغير ادنى تعب عقلي وبلاستمتاع بكل ما في اللعب التمثيلي من متعة ، ثم يكون تحصيلها عند ذاك اقرب كثيراً الى الكمال ، واقل اضاءة لزمان التعليم الثمين ، منه في اي فترة تالية .

اما الرياضة والعلوم فلا يمكن البدء فيهما الا في اواخر السنوات التي نتكلم عنها في هذا الفصل - في سن الثانية عشرة مثلاً - واني افترض بطبيعة الحال ان الحساب قد سبق تعليمه ، وانه قد كانت احاديث مبسطة عن الفلك وعلم طبقات الارض وحيوانات ما قبل التاريخ ، وعن مشاهير المستكشفين وغير ذلك من الامور الشائعة بطبيعتهما . لكنني انظر الآن في تعليم الهندسة والجبر والطبيعة والكيمياء . قليل من الاولاد والبنات يحب الهندسة والجبر ، والجمهرة العظمى لا تحبهما ، ولا اظن ذلك يرجع كله الى طرق التعليم الخاطئة ، فالاستعداد الرياضي كالمقدرة الموسيقية هو في صميمه هبة من الله نادرة تماماً فيما اعتقد حتى في درجاتها المتوسطة ، ومع ذلك فينبغي ان يتذوق الرياضة كل ولد وبنت حتى يمكن استكشاف اولى الموهبة فيهم . حتى الذين لا يتعلمون شيئاً يذكر من الرياضة يستفيدون من معرفتهم ان هناك مادة كهذه . ومن المستطاع باستخدام الطرق الجيدة ان يفهم كل انسان مبادئ الهندسة ، اما الجبر فلا استطيع ان اقول مثل هذا عنه ، لانه اكثر تجريداً من الهندسة ، ويستعصى فهمه بنوع خاص على الذين لا تقوى عقولهم على تخطي المحسوس . واذا علمنا الطبيعة والكيمياء كما ينبغي وجدنا الميل اليهما اقل ندرة من الميل الى الرياضة وان كان لا يزال مقصوراً على اقلية من النشء . وينبغي فيما بين الثانية عشرة والرابعة عشرة الانتابح تعليم الرياضة والعلوم الا الى الحد الذي يبين ما اذا كان للولد او البنت اي استعداد لهما . وليس هذا بالطبع مما يتضح في الحال ، فقد كنت ابغض الجبر في اول الأمر وان استسغته فيما بعد . وقد لا يتبين في الرابعة عشرة اهنك مقدرة ام لا ، ولا بد في مثل هذه الحالات من الاستمرار في الطرق التجريبية فترة اخرى . على اننا في معظم الأحوال نستطيع ان نصل الى قرار نهائي في سن الرابعة عشرة ، فنجد البعض يحبون المادتين قطعاً ويحيدونها ، وآخرون يكرهونها ولا يحسنون فيها ، ومن النادر ان نعثر على نابه يكرهها او غبي يحبها .

وكل ما قيل عن الرياضة او العلوم ينطبق كذلك على اللغات القديمة . واني

فترض ان التعليم عند الرابعة عشرة ينبغي ان يدخل في دور التخصص تبعاً
ذواق التلميذ واستعداداته ، فالسنوات الأخيرة قبل هذه السن ينبغي ان
صرف في تعرف خير ما يحسن تعليمه في السنوات التالية .

وينبغي ان يستمر تعليم الأمور الخارجة عن الدراسة العادية طول السنوات
لدراسية . ويمكن ان يترك مثل هذا التعليم للآباء ان كانوا من ذوي اليسار ،
ما في حالة الأولاد الآخرين فلا غنى عن ان نعتبر هذا التعليم جزءاً من عمل
لمدرسة . ولا اقصد بالأمور الخارجة عن الدراسة الألعاب ، فهذه بطبيعة الحال
لها أهميتها التي نالت التقدير الكافي ، انما اعني شيئاً مختلفاً : هو معرفة العمليات
الزراعية ، واكتساب خبرة والمام بالحيوانات والنباتات ، وفلاحة البساتين ،
واعتياد الملاحظات اللازمة في الريف ، وهلم جرا . وقد ادهشني ان اكشف ان
الناشئين في المدن يندر ان يعرفوا جهات البوصلة ، ولا يعرفون قط في اي اتجاه
تدور الشمس . ولا يستطيعون الحكم على منزل أي جانب من جوانبه خارج عن
الريح ، ويعوزهم من المعرفة بوجه عام ما تعرفه كل بقرة او شاة . قد يظنني
الناس واهماً عند ما اقول ان هذا احد الاسباب التي تحول دون فوز حزب
العمال في انتخابات المناطق الريفية ، لكنه بالتأكيد السبب في ان الناشئين في
المدن في عزلة تامة عن كل ما هو بدائي واساسي . وهو دليل شيء تافه سطحي
ماجن في نظرتهم للحياة — لا دائماً بطبيعة الحال ولكن في الكثير الغالب .
فالفصول والجو ، والبذر والحصاد ، والحاصلات والقطعان والأسراب ، لها
أهمية خاصة للانسان ، وينبغي ان يلم بها ويعرفها ويعتادها كل واحد اذا لم ترد
ان تنقطع الصلة بينه وبين أمه الارض انقطاعاً اتم واشمل . وكل هذه المعلومات
يمكن للأطفال اكتسابها في خلال مناشط لهم بها فائدة عظيمة في الصحة ، ومن
اجل هذا وحده تستحق العناية . وان سرور اطفال المدن بالريف عند ما
يكونون فيه دليل على أنهم يجدون فيه سداً لحاجة متأصلة فيهم . وما دامت
تلك الحاجة لا تلقى ما يسدها فنظام التربية عندنا ناقص .

السَّنوات المدرسيَّة الأخيرة

سأحسب أنه بعد الاجازة الصيفية التي يبلغ فيها الولد أو البنت الخامسة عشرة من العمر سيسمح له أولها بالتخصص اذا رغب، وان نسبة من سيرغب في ذلك كبيرة ، لكن اذا لم تبد رغبة واضحة في التخصص فمن الخير ان تطول مدة التعليم العام الشامل ، كما يصح في بعض الحالات الاستثنائية ان يبكر التخصص عن ذلك . ان جميع القواعد ينبغي في التربية ان تكون قابلة لان تكبر لأسباب خاصة ، لكنني أرى كقاعدة عامة ان التلاميذ الذين هم فوق المتوسط في الذكاء ينبغي ان يبدأ تخصصهم في نحو الرابعة عشرة ، وان من هم دون المتوسط ينبغي عادة الا يبدأ تخصصهم في المدرسة أبدا الا تدريباً في مهنة . وسأمسك عن التعرض لهذا الموضوع في هذا الكتاب ، لكنني لا أومن بأن يبدأ التخصص قبل الرابعة عشرة ، وحتى في الرابعة عشرة ينبغي في رأيي ألا يستغرق كل وقت التلميذ في المدرسة . ولست أنوي ان اناقش كم من الزمن ينبغي ان يستغرق ، ولا كم من التلاميذ ينبغي ان يتخصصوا ، أكلهم او بعضهم ، فهذه

مسائل لها نواح اقتصادية وسياسية لا تتصل بالتربية الا بطريق غير مباشر ، ولا يمكن بحثها باختصار ، ولذلك سأقصر بحثي على التربية المدرسية فيما بعد سن الرابعة عشرة .

أرى ان يفرق في المدرسة الانجليزية بين اقسام ثلاثة عامة :

(١) الآداب القديمة (٢) الرياضة والعلوم (٣) المواد الأدبية . وينبغي ان يشمل القسم الأخير اللغات الحديثة والتاريخ والأدب . وقد يكون في الامكان ان يزداد التخصص في كل قسم قبل الانتهاء من المدرسة الذي لن يحدث فيما افترض قبل سن الثامنة عشرة . وبديهي ان يدرس كل الذين يتخصصون في الآداب القديمة اللاتينية واليونانية ، وان استكثر بعضهم من احداها واستكثر البعض من الأخرى . اما الرياضة والعلوم فينبغي ان يسيرا جنبا الى جنب في اول الامر ، ولكن في استطاعة الطالب ان يبرز في بعض العلوم بغير حاجة الى التوسع في الرياضيات ، فكثير من العلماء المبرزين كانوا في الواقع ضعافا في الرياضة ، لذلك ينبغي في نظري ان يسمح للولد او البنت في سن السادسة عشرة بالتخصص في العلوم او في الرياضيات من غير ان يهملوا الفرع الذي لم يختاروه . وتصدق مثل هذه الملاحظات على المواد الأدبية الحديثة .

وهناك مواد معينة لها اهمية نفعية عظيمة ويجب ان يتعلمها الجميع . ومن بين هذه المواد التشريح ، وعلم وظائف الاعضاء ، وعلم الصحة ، بالقدر الذي يحتمل ان يحتاج اليه البالغ في حياته اليومية . ويجب ان اشير هنا الى ضرورة تعلم كل تلميذ شيئا عن البرلمان والدستور ، ولكن يجب ان نحذر من ان تنحدر الدراسة في هذا الموضوع الى الدعاية السياسية .

وأهم من منهج الدراسة مسألة طرق التدريس والروح التي تسود التعليم . والمشكلة الأساسية في هذا الصدد هي : كيف نجعل العمل شيقا بغير ان يصير

اسهل مما ينبغي ؟ ان الدراسة الدقيقة التفصيلية ينبغي ان تكملها كتب ومحاضرات تلقى عن النواحي العامة لتلك الدراسات . فينبغي ان تنوع الرياضيات بالقاء محاضرات من آن لآن في تاريخ الكشف الرياضي وفي أثر هذا الجزء من الرياضة او ذلك في العلوم او في الحياة اليومية ، مع اشارات الى مانجد ، في الرياضة العالية من نشوة وابتهاج . كذلك ينبغي ان تكمل الدراسات التفصيلية في التاريخ بتخطيطات بارعة لمعالمه ولو احتوت تعميمات مشكوكا فيها ، ويمكن ان يفهم الطلاب ان هذه التعميمات محل شك ويشجعوا على ان يتدبروا ما لديهم من معلومات مفصلة ليتبينوا ما اذا كانت تؤيد تلك التعميمات او تدحضها . اما في العلوم فمن الخير ان تقرأ كتب مبسطة تحوي خلاصات للبحوث الحديثة تعطي فكرة عن كيفية استغلال الحقائق والقوانين الخاصة لخدمة الأغراض العلمية العامة . كل هذا يفيد كحافز للدراسة الدقيقة الفاحصة ، ويضر اذا اعتبر بديلا عن تلك الدراسة . وما ينبغي ان يشجع التلاميذ على اعتقاد ان هناك مسارب مختصرة الى المعرفة ، فهذا خطر حقيقي في التربية الحديثة يرجع الى رد فعل التدريب القديم الشديد . وما كان في ذلك التدريب من عمل عقلي كان خيرا ، اما الشر فيه فكان قتل نواحي الاهتمام الفكرية . فعلينا ان نحاول تحقيق الكد لكن بأساليب غير أساليب المؤدبين القدماء . ولا اعتقد ان ذلك مستحيل ، فأنا نجد في امريكا من الطلاب الكسالى من يقبلون على العمل يجد حين يدخلون مدرسة الحقوق او مدرسة الطب لأنهم قد صاروا الى عمل تبدو لهم أهميته ، وهذا هو لب الموضوع فاذا جعلت العمل المدرسي يبدو للتلاميذ ذا أهمية اقبلوا عليه وجدوا فيه . أما اذا جعلت العمل أسهل مما ينبغي ادركوا بغريزتهم انك لا تعطيهم ما هو في الواقع حقيق بالأخذ . ان الأذكاء من البنين والبنات يحبون ان تمتحن عقولهم بالصعاب . فبالتعلم الجيد واقتلاع الخوف يظهر ذكاء كثيرين من الاولاد والبنات كانوا يبدوون أغبياء كسالى .

وينبغي ان نحرص في جميع مراحل التعليم على ان تأتي البداية من جانب

التلميذ بقدر الامكان ، وقد بيّنت مدام منتسوري كيف يتحقق ذلك مع صغار الأطفال ، أما الكبار منهم فيحتاجون لأساليب أخرى . واطن من المقرر عامة هند رجال التربية الحديثة ان قسط التلميذ من العمل الفردي ينبغي ان يزداد كثيراً عما جرت به العادة ، وان يقل كثيراً نصيبه من العمل الجمعي ، وان كانوا يحتمون ان يتم العمل الفردي في حجرة ممثلة بالبنيات والاولاد المشتغلين بأعمال مشابهة . كما ينبغي ان تكون المكتبات والمعامل فسيحة كافية وان يصرف جزء كبير من العمل اليومي في دراسة اختيارية يوكل الى التلميذ توجيهها ، كما يكون عليه ان يكتب بياناً عما يدرسه وخلاصة لما يحصله من المعلومات ، فان هذا يعين على التثبيت في الذاكرة ، وعلى جعل المطالعة موجهة نحو غرض بعد ان كانت مشتتة ، وعلى ان يجعل للمعلم ذلك القسط من التوجيه الذي لا يكون لازماً في كل حالة . وكلما كان التلميذ اذكى كان مقدار التوجيه اللازم اقل . اما الذين ليسوا على جانب كبير من الذكاء فيحتاجون الى قدر كبير من الارشاد ، لكن حتى ارشاد هؤلاء ينبغي ان يكون عن طريق الایحاء والاستفهام والحفز لا عن طريق الأمر . ومع ذلك فينبغي ان تكون هناك مشروعات مقررة تمرن التلميذ على الاستيثاق من الحقائق المتصلة بموضوع ما محدود ، وعلى عرض هذه الحقائق بصورة منظمة .

وينبغي ان يشجع الاولاد والبنيات علاوة على اهتمامهم بأعمالهم اليومية على ان يهتموا بالمسائل الجدلية الجارية ذات الأهمية ، من سياسية او اجتماعية بل ولاهوتية ، وان يشجعوا على قراءة كل ما ينشر من هذه المناقشات ، فلا يقتصرون على الجانب الذي معه الأغلبية . واذا كان فيهم من يشعر شعوراً قوياً مع جانب فينبغي ان يعلم كيف يبحث عن الحقائق التي تؤيد وجهة نظره ، وان ترتب له مناظرات في الموضوع مع الذين يرون عكس ما يراه ، فالمناظرات يمكن ان تكون ذات قيمة عظيمة اذا كانت جدية ومرتبطة بقصد اجتلاء الحقيقة . وينبغي ان يعتاد المعلم الا ينتصر في مثل هذه المناظرات لفريق على

فريق حتى ولو كانت له في الموضوع معتقدات راسخة فاذا ما رأى المعلم ان كل تلاميذه تقريباً قد انحازوا الى جانب فليأخذ هو الجانب الآخر قائلاً انه انما يفعل ذلك من اجل المناقشة وتبيين الحجة ، والا فعلياً ان يقصر عمله على تصحيح الخطاء فيما يتعلق بالوقائع . بهذه الوسائل يتسنى للتلاميذ ان يتعلموا المناقشة ابتغاء تبين الحق لا على انها نضال من اجل الانتصار الخطابي .

ولو كنت على رأس مدرسة للكبار من الاولاد او البنات لرأيت من غير المستحب على السواء ان أتجنب الخوض في المسائل الجارية او ان اقوم بدعاية لأياها . ان من الخير ان تشعر التلاميذ ان تربيتهم تهيئهم للتصدي للامور التي تشغل بال الناس ، فان ذلك سيجعلهم يحسون ان التعليم المدرسي ليس منقطعاً عن دنيا الناس العملية ، لكن ينبغي ألا أحمل آرائي عليهم . ان الذي ينبغي علي هو ان اضع امامهم اتخاذ الوجهة العلمية ازاء المسائل العملية مثلاً أعلى يطلبونه . وينبغي ان انتظر منهم ايراد حجج هي حجج ، ووقائع هي بالفعل وقائع ، ففي السياسة بنوع خاص نجد هذه العادة نادرة بقدر ما هي قيمة . فكل حزب سياسي متحمس يذسج شرقة من الخرافة حول نفسه تنام عقليته داخلها في سلام . ان الحماس كثيراً ما يقتل الذهن ، وفي أهل التفكير الذهني لا يقل ان يقتل الذهن الحماس ، فهدفي هو تجنب هذين الامرين المؤسفين . ان الشعور المتحمس مستحب بشرط ألا يكون هداماً ، وقوة الذهن مستعبة بنفس الشرط ، فينبغي ان تكون بغيتي جعل الحماسة السياسية الاساسية بنائية ، ثم احاول ان اسخر الذهن لخدمة تلك الحماسة ، لكن يجب ان تخدمها خدمة حقيقية فعلية لا في دنيا الاحلام وحدها . فنحن جميعاً عندما نجد الدنيا الواقعية لا تتملقنا ولا تجري على هوانا الى الحد الذي نرتضيه ننزع الى الالتجاء الى دنيا خيالية تلقى رغباتنا فيها ما يرضيها بغير كبير عناء ، وهذا هو روح الخيال ، وهو كذلك منبع الخرافات الوطنية والدينية والطائفية ، وهو ينم عن ضعف خلقي يكاد يكون عاماً في دنيانا الحاضرة ، ومحاربة هذا الضعف الخلقي ينبغي ان تكون من اهداف التربية

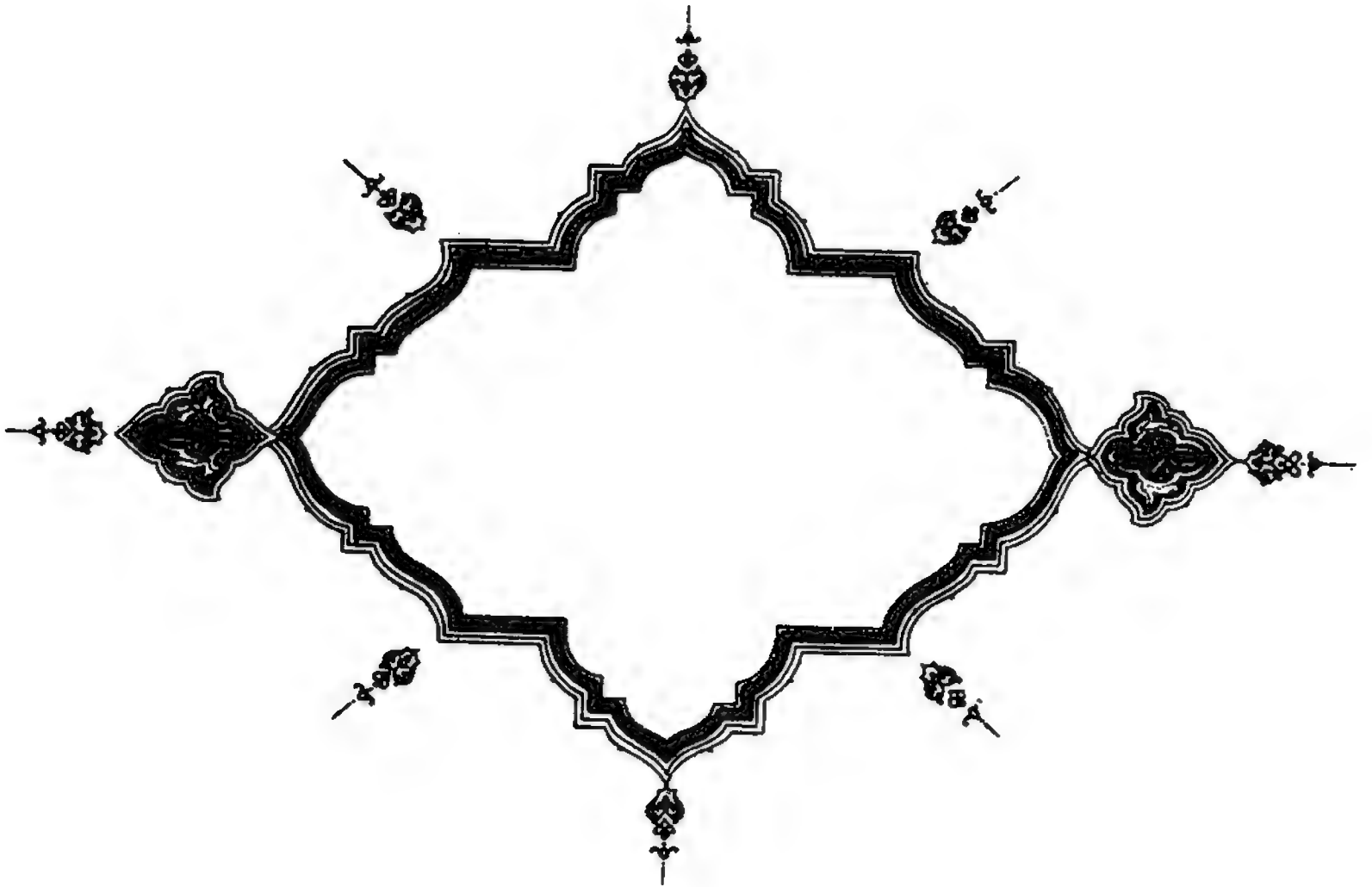
المدرسية في مراحلها الأخيرة . ومحاربتة طريقتان كلتاها ضرورية وان كانتا الى حد ما متعارضتين : اولاهما ان نزيد في حساسة تقديرنا ما نستطيع ان نحققه في العالم الواقعي ، والاخرى ان نزيد في حساسيتنا لما نستطيع الحقيقة والواقع عمله في سبيل فض احلامنا . وكلاهما داخل في المبدأ القائل بأن يحيا الانسان حياة موضوعية وفق ما حوله اكثر منها ذاتية وفق ما هي في نفسه .

والشخصية المضروبة مثلاً للذاتية دون كيشوت ، فانه حين صنع طاسة لرأسه أول مرة اختبر احتمالها للضربات بضربها حتى تحطمت وتغير شكلها ، وفي المرة التالية لم يختبرها واكتفى بأن (خالها) طاسة جيدة جداً ، وعادة (الخيالة) هذه قد تسلطت على حياته . وكل امتناع عن مواجهة الحقائق غير السارة عمل من نفس النوع ، فكل منا دون كيشوت الى حد كبير او صغير . وما كان دون كيشوت ليتصرف كما تصرف لو انه تعلم في المدرسة كيف يصنع طاسة جيدة حقاً ، وكان محوطاً برفاق يرفضون ان (يخالوا) أي شيء يريد هو منهم ان يعتقدوه . وعادة العيش في عالم الخيال الطبيعية وصائبة في بواكير الطفولة ، لأن الاطفال الصغار فيهم عاجز لكن لا عن مرض . لكنهم في اقترابهم من حياة البالغين يجب ان يزدادوا بالتدريج ادراكاً جلياً ان الاحلام والاماني ليس لها قيمة الا بقدر ما نستطيع تحقيقه منها ، ان عاجلاً او آجلاً ، في عالم الواقع . والاولاد مقدرة عجيبة على تصحيح الدعاوى الشخصية المحضة لغيرهم من الصبيان ، فمن الصعب في المدرسة ان يخدع تلميذ نفسه فيما يتعلق بمقدرته خيال رفاقه . لكن ملكة خلق الخرافات تظل نشيطة فعالة في نواح اخرى بمعاونة المدرسين في الغالب . فمدرستنا الخاصة هي خير المدارس في الدنيا ، ووطننا الخاص دائماً على حق ودائماً منتصر ، وطبقة الانسان الاجتماعية الخاصة (ان كان غنياً) تفضل كل الطبقات الاخرى . كل هذه خرافات غير مستحبة ، لانها تحملنا على ان نخال طاستنا جيدة مع ان سيف انسان آخر يشقها في الواقع الى نصفين ، فهي خرافات تحمل على الكسل وتؤدي الى الدمار .

هذا الذي اقول لا يخرج عن انه ينبغي ان نزرع الروح العلمية . ان كثيراً من رجال العلم المبرزين ليس عندهم هذه الروح خارج دائرة علمهم الخاص ، وواجب المعلم ان يسعى لجعلها متغلغلة في جميع النواحي . والروح العلمية تتطلب اولاً وقبل كل شيء الرغبة في تبين الحق ، وكلما اشتدت هذه الرغبة وحميت كانت خيراً واجدى ، وهي تتضمن فوق هذا صفات عقلية معينة فيجب ان نبدأ بالطالب من غير اليقين ونصل الى قرار تبعاً للأدلة ، ويجب ألا نتخيل مقدماً اننا نعرف بالفعل ما ستؤدي بنا الأدلة اليه ، كما يجب ألا نقنع بتشكك الكسل الذي يعتبر الحق الواقعي مستحيل المنال والأدلة كلها غير قاطعة . بل ينبغي ان نعترف انه حتى معتقداتنا المبنية على خير الاسس قد تكون في حاجة الى شيء من التصحيح ، لكن الحق الذي في وسع البشر الوصول اليه نسبي على درجات . ولا شك في ان ما نعتقد من علم الطبيعة في الوقت الحاضر اقل خطأ منه قبل ايام غاليليه ، وان معتقداتنا فيما يتصل بنفسانية الطفل هي بكل تأكيد اقرب الى الحق من معتقدات الدكتور ارنولد . وقد كان مصدر التقدم في كل من هاتين احوال الملاحظة محل الاهواء الشديدة والآراء المكونة مقدماً . ومن اجل هذه الخطوة تأتي اهمية البدء من غير اليقين . ومن ثم كان من الضروري تعليم هذا ، وكذلك تعليم المهارة اللازمة لحشد الأدلة واستعراضها . واهمية هذه العادة الفكرية الناقدة تزداد وتعمم في عالم نجد فيه الدعايات المتنافسة تقذف بالاكاذيب على الدوام في وجوهنا لتحملنا على ان نتجرع السم في حبوب او على ان يجرعه بعضنا بعضاً في غازات سامة . فاستعداد الناس لتصديق اقول المكرر هو من آفات العالم الحديث الحديثة ، وعلى المدارس ان تبذل ما في وسعها لتحصين التلاميذ منه .

ينبغي ان يكون هناك في خلال سنوات الدراسة كلها احساس بالمغامرة الفكرية ، ولذا ينبغي ان يعطى التلاميذ فرصة للبحث بأنفسهم عن الامور التي تثير حماسهم بعد ان يقوموا باداء واجباتهم المدرسية التي ينبغي ان يكون لهذا السبب الا تكون اثقل من اللازم . ويجب ان ينال الثناء كل من يستحقه اما

الاططاء فلفت النظر اليها واجب ، لكن ينبغي ان يكون ذلك من غير تشهير .
وحذار ان تجعل التلاميذ بسبب غباوتهم . ان الحافز الكبير في التربية هو
الشعور بان الفوز ممكن ، فالمعرفة التي تمل التلميذ وتضجره قليلة الفائدة ، اما
المعرفة التي يقبل عليها ويهضمها فتستقر في نفسه ملكاً دائماً له . احرص على ان
تكون العلاقة بين المعرفة وبين الحياة الواقعية واضحة تماماً لأعين تلاميذك ،
وافهمهم كيف يمكن بواسطة المعرفة تغيير العالم وتحويره ، وليكن المعلم دائماً حليف
التلميذ الطبيعي لا عدوه ، وليظهر ذلك ، واذا حسنت التربية في السنوات الاولى
فان هذه النصائح كافية لأن تجعل تحصيل المعرفة عملية ممتعة للاغلبية العظمى من
البنين والبنات .



المدارس النهارية والمدارس الخارجية

ان أمر ادخال الولد او البنت الى مدرسة نهارية او مدرسة خارجية هو. في نظري مسألة تتقرر في كل حالة تبعا للظروف وللمزاج ، فلكل من النظامين مزاياه الخاصة ، ترجح مزايا احدهما في بعض الحالات وفي غيرهما ترجح مزايا الآخر. وقد رأيت ان اعرض في هذا الفصل نوع الحجج التي لها وزن في نظري حين أحاول اتخاذ قرار في هذا الشأن فيما يتعلق بأولادي وهي التي يخيّل الى انه سيكون لها وزن عند غيري من الآباء ذوي الضمير .

هناك اولاً الاعتبارات الصحية . ان من الواضح مهما تكن حقيقة المدارس ففي الواقع في الاستطاعة جعلها من هذه الناحية اكثر عناية علمية من معظم البيوت ، لأن في وسعها استخدام الأطباء، وحكام الأسنان والسيدات المشرفات كل مزود بأحدث المعلومات حين يغلب ان يكون الآباء لانشغالهم بأعمالهم أقل علماً بالشئون الطبية. وفوق هذا فان من المستطاع وضع المدارس في بيئة صحية، وهذه الحجة وحدها ترجح كفة المدارس الداخلية بالنسبة لمن يعيشون في المدن

الكبرى . فمن الواضح ان من الخير ان يصرف الناشئ معظم حياته في الريف ، واذا كان الوالدان مضطرين للمعيشة في المدن فقد يكون من المستحب ان يرسل الاطفال بعيداً الى المدارس الريفية . هذه حجة لعلها تبطل قبل انقضاء وقت طويل بتحسين الحالة الصحية في المدن ، فمدينة لندن يطرد تحسينها من هذه الناحية وقد تصل الى مستوى الريف باستخدام الضوء الصناعي فوق النفسيجي ، ومع ذلك فاذا فرض انه قد امكن الهبوط بالمرض الى مستواه في الريف فسيظل في المدن قدر كبير من التوتر العصبي ، فالضوضاء المستمرة مضرّة بالصغار وبالكبار على السواء ، في حين ان المناظر الريفية ورائحة التّرى الرطب والرياح والتجّوم ، كل هذا ينبغي ان يختزن في ذاكرة كل رجل وامرأة . لذلك ارى انه مهما أدخل من التحسينات الصحية على المدن فسيظل من الاهمية بمكان بالنسبة للصغار ان يمضوا في الريف الجزء الاكبر من العام .

وهناك حجة اخرى ترجح المدارس النهارية ، وان كانت اخف وزناً من السابقة ، هي انها توفر وقتاً طويلاً يصرف في الذهاب والاياب ، فليس هناك مدارس خارجية جيدة حقاً بمقربة من معظم الناس ، بل قد تبعد المدارس عنهم بمسافات طويلة يضطرون الى قطعها . وهذه الحجة اقوى ما تكون في الريف ، كما ان الحجة السابقة اقوى ما تكون بالنسبة لسكان المدن .

واذا اريد تجربة نوع من التجديد في اساليب التربية فانه يكاد يتحتم اجراؤها في اول الامر في مدرسة داخلية اذ لا يحتمل ان يكون الآباء الذين يؤمنون بهذا التجديد يقطنون في منطقة صغيرة واحدة . ولا يصدق هذا على صغار الاطفال لانهم ليسوا جميعاً في قبضة السلطات التعليمية ، ولذا استطاعت مدام منتسوري والآنسة مكيلان اجراء تجاربهما على ابناء الفقراء جداً اما في حدود السنوات الدراسية المعتمدة فالامر على عكس ذلك ، اذ ان الاغنياء وحدهم هم الذين يسمح لهم باجراء التجارب في تربية اطفالهم ومعظمهم بطبيعة الحال يفضل القديم التقليدي ، والقليلون الذين يرغبون في غير ذلك موزعون توزيعاً جغرافياً

متباعداً . ولا يكفي عددهم في اي مكان لفتح مدرسة خارجية ، واذاً فلا سبيل
لاجراء تجارب كالتجربة تجري في مدرسة بديلز الا في مدارس داخلية .

ومع ذلك فان الحرج التي في الجانب الآخر في غاية القوة . فهناك كثير من
نواحي الحياة لا تظهر في المدرسة ، فهي دنيا مصطنعة ، مشاكلها ليست نفس
مشاكل الدنيا على اطلاقها . والولد الذي لا يأوي الى بيته الا في خلال الاجازات
وعندها يدلل كل انسان لا يحتمل ان يحصل من المعرفة بالحياة الا قدرأ اقل من
الذي يحصله الولد الذي يأوي الى بيته كل صباح ومساء . وهذا اقل انطباقاً في
الوقت الحاضر على البنات لأنهن في كثير من البيوت يطالبن باعمال اكثر من
الاولاد ، لكن كلما ازداد الشبه بين تعليمهن وتعليمهم اقتربت حياتهن المنزلية
من حياة هؤلاء ، ومن ثم يتلاشى ما يمتزج به الآن من خبرة بالشؤون المنزلية .
ثم ان من الخير للاولاد والبنات بعد سن الخامسة عشرة او السادسة عشرة ان
يأخذوا بنصيب معين من مشاغل والديهم ومتاعبهم ، لا الى حد يؤثر في تعليمهم ،
ولكن الى الحد الذي يحول دون عدم ادراكهم ان كبار السن من الناس لهم حياتهم
الخاصة ومواطن اهتمامهم واهميتهم الذاتية . في المدرسة النهارية يكون الصفار
هم وحدهم موضع الاهتمام ، من اجلهم يسخر كل شيء ، حتى اذا جاءت الاجازات
تعرض جو البيت لان يتحكموا فيه ، فهم في المدرسة الداخلية والبيت اقرب
الى ان يصيروا متفطرسين جفاة يجهلون مشاكل الحياة عند الكبار ، ويكونون
عن والديهم في شبه انقطاع .

وجريان الامور على هذه الصورة جدير ان يكون له أثر سيء في عواطف
النساء ، فمحببتهم لوالديهم يعتريها الضمور ، ولا يجدون في أنفسهم حاجة أبداً
لأن يلائموا بين انفسهم وبين الذين يختلفون عنهم في المشارب والمشاغل من الناس ،
وهذا فيما أرى ينزع بصاحبه الى نوع من استئثار النفس الى شعور بأن شخصيته
شيء عن غيره بمعزل . والأسرة هي خير مصحح طبيعي لهذه النزعة لأنها وحدة
مؤلفة من اناس مختلفي العمر والجنس والأعمال ، ففيها حياة عضوية لا تتوافر في

المجموعة المتشابهة من الناس . والوالدان يحبان اطفالهما لما يسببون لهما من متاعب
جمّة ، فاذا لم يسبب الوالدان لأطفالهما متاعب من اي نوع لم يحفل بهما الأطفال .
لكن هذه المتاعب التي يسببونها لهم يجب ان تكون متاعب مشروعة بالقدر اللازم
لقيام الأطفال بأعمالهم وليحيوا حياتهم الخاصة . واحترام حقوق الآخرين هو من الأشياء
التي يجب ان يتعلمها النشء ، وتعلمه اسهل في الأسرة منه في اي مكان آخر . ومن
الخير للبنين والبنات ان يعرفوا ان الاب قد تساوره وتثقله الهموم ، وان الأم
قد يرضنها انشغالها بمختلف التفاصيل . ومن الخير ان يظل بر الوالدين وحبهم
حيا بعد البلوغ . فان دنيا تخلو من تحاب ذوي الأرحام خليفة ان تكون جافة
آلية تتألف من افراد يحاولون السيطرة فاذا ما فشلوا ذلوا وخنعوا . واني
اخشى ان هذه الآثار السيئة تنتج الى حد معين من ارسال الاطفال الى المدارس
الداخلية ، واعدها من الخطورة بحيث توازي او ترجح العظم من المزايا .

وفي الحق بالطبع كما يؤكد علماء النفس الحديثون ان نفوذ الوالد او الأم اذا
زاد عن الحد اضر ضرراً بليغاً ، لكنني استبعد حدوث هذا اذا ارسل الاطفال
الى المدرسة من سن الثانية او الثالثة كما سبق ان افترضت . فالمدرسة الخارجية
في العمر المبكر تهيب في رأيي الحل الصحيح الوسط بين سيطرة الآباء وزوال
نفوذهم . والظاهر انه اذا احسن البيت كان هذا خير مسلك فيما يتعلق بالاعتبارات
التي كنا نتحدث عنها آنفاً .

وهناك خطر معين على الأولاد ذوي الحساسية في تركهم وصعوبة غيرهم من
الأولاد فحسب ، فالأولاد في سن الثانية عشرة يكونون في معظم الاحيان
اقرب الى البربرية وعدم الاحساس ، فقد حدث منذ قليل في إحدى المدارس
العامة الشهيرة ان اصاب ولد بأضرار جثمانية خطيرة من جراء اظهار عطفه على
حزب العمال . فالأولاد الذين يختلفون عن الاغلبية في آرائهم واذواقهم يكونون
عرضة للاذى الشديد ، وفي احداث المدارس النهارية واكثرها تقدماً كان انصار
البوير يلقون عننا اثناء حرب البوير ، وكل ولد شغوف بالقراءة او لا يحس

بكراهية لعمله المدرسي لا يكاد ينجو من سوء معاملة زملائه . وفي فرنسا يذهب
انجب الاولاد الى مدرسة المعلمين العليا (النورمال) ولا يختلطون بعد ذلك
بالاولاد المتوسطين . ولهذا الخطة حقاً مزايا ، فهي تقوي العقول الراجعة
ان تحطم اعصابهم ، وفي تجنب الولد الذي لا يحبه زملاؤه ما لا بد ان يلقاه من
عنت وابتئاس ، وهي تمكن من اعطاء النجباء التعليم الذي يلائمهم والذي يكون
أسرع كثيراً مما يتسنى لمن هم اقل ذكاء . هذه هي مزاياها ، لكنها من جهة
اخرى تعزل الممتازين في عقولهم عن بقية افراد المجتمع في الحياة المقبلة ، وقد
تجعلهم اقل مقدرة على ان يفهموا الرجل العادي ، وعلى الرغم من هذا العيب
المحتمل فهي في نظري خير مما اعتادته الطبقة العالية من البريطانيين من سوء
جميع الاولاد الممتازين في عقليتهم او في صفاتهم الخلقية العذاب الا اذا تصادف
وكانوا ايضاً بارعين في الالعاب .

ومع ذلك فان توحش الاولاد غير ميثوس من علاجه ، وهو في الواقع أقل
بكثير مما كان عليه . فأيام (توم براون المدرسية) تعطي صورة سوداء لو
طبقت على المدارس العامة في ايامنا لكان فيها مبالغة ، وهي اقل انطباقاً على
الاولاد الذين يتلقون في تربيتهم الاولى النوع الذي نظرنا فيه في الفصول السابقة .
وفي رأبي ان التعليم المشترك بين البنين والبنات - الذي أظهرت بديلاً انه ممكن
في المدارس الداخلية - جدير ان يكون له اثر تهذيبي في البنين . اني اتخرج من
الاعتراف بفروق ذاتية بين الجنسين ، لكنني أعتقد ان البنات اقل من البنين ميلا
الى معاقبة الغرابة بالاذى البدني الشديد . ومع ذلك فليس هناك في الحاضر الا
قليل جداً من المدارس الداخلية أجروا على ان ابعث اليها بالصبي الذي يكون
فوق المتوسط في ذكائه وفي اخلاقه وفي حساسيته ، او الصبي الذي يكون غير
محافظ من الناحية السياسية او غير تابع للكنيسة العامة في مذهبه الديني . اني
على يقين من ان نظام المدارس العامة الموجودة ضار بأمثال هؤلاء الاولاد ، وفي
زمرتهم يدخل تقريباً كل ذي موهبة غير عادية من اي نوع .

وليس في الاعتبار السابقة سواء اكانت للمدارس الداخلية ام عليها سوى اعتبارين اساسيين ثابتين ، كل منهما في طرف . هناك في طرف ميزة الريف والهواء والفضاء ، وهناك في الطرف الآخر التراحم والتحابب والتربية المستقاة من معرفة التبعات في الاسرة . وهناك حجة اخرى للمدارس الداخلية بالنسبة للوالدين اللذين يسكنان الريف ، هي ضعف احتمال وجود مدرسة خارجية جيدة حقاً بجوارهم . ونظراً لتلك الاعتبار المتناقضة لا ارى في الامكان الوصول الى قرار عام ، فحيثما يكون الطالب من الصحة والقوة بحيث لا يقوم للاعتبارات الصحية وزن كبير تسقط حجة للمدارس الداخلية ، وحيثما يكون الاطفال شديدي التعلق بوالديهم تسقط حجة للمدارس الخارجية اذ يكون في الاجازات الكفاية للابقاء على محبة الاسرة ، ولعل العمالات تكفي في ان تحول دون الافراط في تلك المحبة . ومن مصلحة الطفل الحساس ذي المواهب الخارقة الا يذهب الى مدرسة داخلية بل قد يكون الافضل في بعض الحالات عدم ذهابه الى مدرسة ما . والمدرسة الجيدة بطبيعة الحال خير من البيت الرديء ، كما ان البيت الجيد خير من المدرسة الرديئة ، لكن اذا كان الاثنان جيدين وجب ان يحكم في كل حالة تبعاً لظروفها .

لقد كنت الى الآن اكتب من وجهة الآباء ذوي اليسار الذين يمكن كل منهم الاختيار بين المدرستين . اما اذا نظرنا في الامر من الناحية السياسية ، اي من وجهة الجماعة كلها ، دخلت امور اخرى في اعتبارنا ، فهناك من جهة مصاريف المدرسة النهارية ، ومن جهة اخرى تسهيل مشكلة السكن اذا كان الاطفال بعيدين عن بيوتهم ، واني - بغض النظر عن حالات نادرة قليلة - ارى واتشدد انه ينبغي ان يتلقى كل انسان تربية مدرسية الى سن الثامنة عشرة ، والا يبدأ الاعداد المهني الصنف الا بعد هذه السن . ومع انه من المستطاع ان يقال الكثير

في هذا الموضوع من وجهة نظر الطرفين فسيظل الاعتبار المالي مدة طويلة هو الحكم الفصل في تفضيل المدارس، الخارجية لأولاد أكثر كسب العيش وبناتهم .
واذا لم يكن هناك اسباب واضحة تدعو لتخطئة هذا القرار ، فمن الجائز لنا ان نقبله على الرغم من انه لا يقوم على أسس تربوية .



الجامعة

تناولنا في الفصول السابقة تربية الخلق والمعرفة ، وينبغي في النظام الاجتماعي الجيد ان يتمتع كل واحد بالحقيقة الواقعة ، باستثناء العقول الراجحة القوية مثل العبقرية الموسيقية (وقد شاء سوء حظ موزارت ان يجبر على تعلم مواضيع المدرسة العادية في سن الثامنة عشرة من عمره) ولكنني أحسب في الجماعة السائرة على المنهج العقلي ان بعضها لا يفكر في الذهاب الى الجامعات ، على أني أميل الآن الى ان حداثة التعليم تكون ذا فائدة اكثر في التربية الى سن الواحد والعشرين والاثني والعشرين ، ويتساءل الآباء عند بلوغ أولادهم المرحلة الجامعية الى اي جامعة سوف يرسلون بنينهم ، وقبل الاجابة عن هذا السؤال عليهم ان يبحثوا غرض الجامعة في الهيئة الاجتماعية .

وفي فرضنا ان للجامعات هدفين : ان تعد من جهة الرجال والنساء لمن معينة ، وان تتابع من جهة أخرى الدرس والبحث بغض النظر عن المنفعة العاجلة ، فاذا نحن نبغي ان نرى في الجامعات اولئك الذين سيارسون تلك

المهن بعد ، وأولئك الذين وهبوا ذلك النوع الخاص من المقدرة الذي سيجعل منهم نافعين للدرس والبحث . لكن هذا وحده لا يقرر كيف يتسنى لنا اختيار الرجال والنساء للمهن المختلفة .

ومن العسير جداً في الوقت الحاضر ان يتطلع الشخص لمهنة كالحقوق او الطب ما لم يكن لدى والديه مقدار معين من المال ، لأن الاعداد حتى التخرج باهظ النفقة ، ولأن الكسب لا يبدأ بعد التخرج مباشرة ، ونتيجة ذلك ان اصبحت قاعدة الاختيار اجتماعية وراثية بدلا من ان تكون الصلاحية للعمل . نخذ الطب على سبيل المثال . فالجماعة التي تبغي ان يكون طبيبها عن كفاية تختار لمهنة الطب من بين النشء من كان أعظم رغبة فيه واستعداداً له ، وهذه تطبق في الوقت الحاضر تطبيقاً جزئياً ، اذ يكون الاختيار من بين أولئك الذين يقدررون على تحمل الأعباء المالية لهذا التعليم . ولكن من المرجح جداً ان كثيرين من الذين لو أعطوا الفرصة لكانوا خيرة الأطباء، يمنعهم الفقر من ان يسلكوا هذا الطريق ، وفي ذلك ضياع للمواهب يؤسف له .

ولنأخذ مثلاً آخر يختلف قليلا في نوعه ، الزراعة . ان الزراع يختارون في الغالب بالوراثة ، هم في العادة ابناء زراع لكن فيهم من هم أبناء من اشتروا مزارع مما يدل على أنهم ذوو رأس مال من غير ان يكونوا حتما ذوي مهارة زراعية . ومن المعروف ان الطرق الدفتركية الزراعية اكثر انتاجا من طرقنا ، لكننا لا نتخذ سبيلا الى تعريف زراعنا بها . ينبغي ان نصر على ان من يزرع أكثر من مساحة قليلة يجب ان يكون حاصلاً على دبلوم علمي في الزراعة ، اصرارنا على ان السائق يجب ان يكون حاصلاً على رخصة . ان قاعدة العمل الوراثي ينبغي ان يستعاض عنها بقاعدتين بينهما صلة : أولاها ألا يسمح لأحد بمباشرة عمل مهم الا اذا حصل على المهارة اللازمة ، والثانية ان هذه المهارة يجب ان تعلم لأقدر الراغبين فيها من غير نظر الى ثروة والديهم . ومن الواضح ان هاتين القاعدتين اذا اتبعتا تزيدان كثيراً في كفاية القائمين بالمهم من الأعمال .

فالتربية الجامعية ينبغي اذا ان تعتبر امتيازاً يتمتع به ذور المواهب الخاصة بحيث يكون على الدولة ان تنفق على الذين تتوفر فيهم المهارة دون المال اثناء تعليمهم الجامعي . لا ينبغي ان يقبل أحد في هذا التعليم الا اذا اجتاز اختبارات القدرة ، كما لا ينبغي ان يسمح لأحد بالاستمرار فيه ما لم تطمئن السلطات الجامعية الى انه ينتفع بزمه الانتفاع اللازم . ان فكرة ان الجامعة مكان للفراغ يصرف فيه الشبان الموسرون ثلاث سنوات او اربع آخذة في التلاشي مثل تشارلس الثاني ولكن ببطء شديد .

واذا قلت ان الفتاة او الفتى لا يصح ان يكون في الجامعة كسلانا فعلي ان اسارع فأضيف ان الاختبارات التي تدل على العمل لا يصح ان تكون مجرد اتباع آلي للنظم . ففي الجامعات الحديثة في إنجلترا ما يؤسف له من النزوع الى الاصرار على حضور عدد من المحاضرات لا يحصى ، مع ان الحجب التي في جانب العمل الفردي والتي تعتبر قوية في حالة الأطفال بالمدرسة المنتسورية هي أشد قوة في حالة الشباب في سن العشرين ، وعلى الأخص عند ما يكون كما نفترض متحمساً موهوباً . ولما كنت طالباً بالجامعة كان شعوري أنا ومعظم اخواني ان المحاضرات كانت مضيعة قامة لوقتنا ، ولا شك في أننا كنا مبالغين لكنها مبالغة لم تكن كبيرة . ان السبب الحقيقي في وجود المحاضرات هو انها عمل ظاهر يستريح رجال الاعمال الى التبرع له بالاموال . ولو ان معلمي الجامعة اتبعوا خير الطرق وأجداها لحسبهم رجال الاعمال كسالى ولأصروا على إنقاص عددهم . وفي وسع أكسفورد وكامبردج نظراً لمكانتهما ان تتبعوا الطرق الصحيحة الى حد ما . لكن الجامعات الاحداث منها لا تقوى على مقاومة رغبات رجال الاعمال ، وكذلك معظم الجامعات الامريكية . ان المعلم ينبغي ان يعطي الطلبة في مبدأ الفصل الدراسي قائمة بالكتب التي يتحتم عليهم قراءتها بعناية ، ويشير الى كتب اخرى قد يرتاح اليها بعضهم دون بعض . وينبغي ان يضع أوراقاً من الاسئلة لا تيسر الاجابة عليها الا لمن لاحظ وتفهم النقاط المهمة اثناء قراءة الكتب . وعليه

ان يقابل تلاميذه فرادى مقابلة شخصية عقب اجاباتهم على الاسئلة ، وينبغي ان يرتب اجتماعاً في المساء مرة كل اسبوع او اسبوعين يقابل فيه من يكلفون انفسهم المجيء في المساء ويحدثهم عقب الساعة في المسائل المتصلة من قريب او بعيد بمعلمهم . وهذا كله لا يختلف كثيراً عن المتبع في الجامعات القديمة . واذا عن الطالب أن يضع لنفسه اسئلة تختلف عن اسئلة معلمه فيجب ان يسمح له ما دامت أسئلته تعادل اسئلة معلمه من حيث الصعوبة . أما جد التلاميذ فيمكن الحكم عليه من اجاباتهم .

على ان هناك نقطة في غاية الاهمية ، هي انه ينبغي على كل مدرس في الجامعة ان يشغل نفسه بالبحث ، وان يكون لديه من النشاط وان يتيسر له من الفراغ ما يكفي لتمكينه من الاطلاع على ما يجري في جميع الممالك الاخرى في مادته . والبراعة في فن التعليم تفقد أهميتها في التعليم الجامعي ، فالمهم فيه هو تمكن الانسان من مادته وحرصه على التعرف على ما يجري فيها في كل مكان ، وتحقيق هذا مستحيل على الشخص المثقل بالعمل المجهدة اعصابه بالتدريس ، فقد تصير مادته من جراء ذلك ثقيلة على نفسه ، ويكاد يكون من المحقق ان تصير معلوماته قاصرة على ما تعلم في صباه . وينبغي ان يعطى لكل معلم سنة اجازة (بعد كل ست سنوات في العمل) يصرفها في الجامعات الاجنبية او بالصورة التي تمكنه من اكتساب المعرفة التي استحدثت في الخارج ، وهذا أمر شائع في امريكا . لكن الممالك الاوربية عندها من الزهو العقلي ما يمنعها من الاعتراف بضرورة هذا ، وهم في هذا جسد نخطئين ، فالذين علموني الرياضيات بكامبردج كانت صلتهم تكاد تكون مقطوعة تماماً بما استحدثت في الرياضيات في القارة الاوربية خلال العشرين او الثلاثين سنة السابقة ، فلم اسمع مدة دراستي الجامعية كلها بفرايرشتراس Weierstrass ، ولم أتصل بالرياضيات الحديثة الا في رحلاتي واسقاري بعد ذلك . ولم تكن حالتي بالنادرة أو الشاذة ، فمثل هذا يمكن ان يقال عن كثير من الجامعات في كثير من الفترات .

ويوجد في الجامعات بعض تعارض بين الفريق الذي يجعل الالاهية الاولى للتعليم والفريق الذي يجعل الالاهية الاولى للبحث ، ويكاد يرجع هذا كله الى فكرة خاطئة عن التعليم ، والى وجود عدد من الطلاب لا يصل اجتهادهم ولا كفاءتهم الى المستوى الذي يجب ان تتطلبه الجامعة كشرط اساسي يجب توفره فيمن يقيم فيها. فلا تزال فكرة المدرس القديم سائدة الى حد ما في الجامعات وهي الرغبة في التأثير الخلقى الجيد على الطلاب ، وفي تدريبهم على كثير من المعلومات العتيقة التي ظهر بطلان اكثرها ، ولكن يظن انها ترفع المستوى الخلقى. والطلبة ينبغي ألا يحضوا على العمل ، وكذلك ينبغي ألا يسمح لهم بالبقاء اذا تبين انهم يضيعون وقتهم عبثاً سواء أكان ذلك عن كسل ام من عدم استعداد . ان الخلق الوحيد الذي يحسن الاصرار عليه هو الجد والعمل ، اما الباقي فموضعه قبل ذلك من سنى التربية . وخلق الجد والعمل ينبغي ان يفرض باخراج من يعوزهم هذا الخلق اذا لا شك ان من مصلحتهم الاشتغال بعمل آخر . كذلك المعلم بالجامعة ينبغي الا ينتظر منه ان يصرف ساعات طويلة في التدريس ، ينبغي ان يكون لديه الفراغ الكافي للبحث ، لكن ينبغي كذلك ان ينتظر منه ان يستخدم هذا الفراغ بحكمة .

ان البحث على أقل تقدير يعدل التربية في اهميتها عند النظر في وظيفة الجامعات في حياة الجنس البشرى . فالمعرفة الجديدة هي السبب الاساسي للتقدم وبدونها سرعان ما تصبح الدنيا جامدة واقفة . نعم تستطيع ان تظل فترة من الزمن تتحسن ببث المعارف الموجودة بالفعل والتوسع في استعمالها واستخدامها. لكن هذه عملية لا يمكن ان تستمر وحدها طويلاً ، بل ان البحث وراء المعرفة اذا كان لغاية نفعية لا يمكن ان يعيش طويلاً بنفسه . فالمعرفة النفعية محتاجة لكي تثمر الى ان تطعم بالبحث الخالي من الغرض الذي ليس له هدف وراء الرغبة في

فهم الدنيا فهماً احسن . فخطوات التقدم العلمي العظيمة تكون كلها في اول الامر نظرية صرفة ، ولا تكشف صلاحيتها للتطبيقات العملية الا فيما بعد . واذا لم يقدر لبعض النظريات البارة ان تستخدم في الحياة العملية فانها تظل مع ذلك قيمة بذاتها لأن تفهم الدنيا خير ما يطمح اليه الانسان .



النهاية

الآن وقد انتهينا من رحلتنا فلنلق نظرة شاملة على الطريق الذي سلكناه لنرى الاراضي التي اجتازناها .

ان المعرفة التي يسخرها ويديرها الحب هي ما يحتاجه المربي وما ينبغي ان يحصل عليه تلاميذه . وفي السنوات الاولى يكون حب المعلم تلاميذه هو الالم ، فاذا ما تقدمت السنون ازدادت بتقدمها اهمية المعرفة المعطاة . والمعرفة المهمة في اول الامر هي معرفة علم وظائف الاعضاء ، وعلم الصحة ، وعلم النفس ، والاخير من بينها يهم المعلم بصفة خاصة . والفرائز والانعكاسات التي يولد بها الطفل يمكن ان تنميها البيئة الى عوائد مختلفة شتى ، ومن ثم الى اخلاق مختلفة شتى . ويحدث معظم هذا في بواكير الطفولة ، ولذا كانت هذه الفترة من العمر هي التي نستطيع ان نحاول فيها تكوين الخلق مع اعظم الرجاء في النجاح . ان الذين يرتاحون الى الشرور القائمة بالفعل يلذ لهم ان يقرروا ان الطبيعة البشرية لا سبيل الى تغييرها ، فاذا كانوا يعنون بهذا ان لا سبيل الى تغييرها بعد سن السادسة

كان لما يقولون نصيب من الصحة ، واذا كانوا يعنون انه ليس في وسعنا تغيير العرائز والانعكاسات التي يولد بها الطفل كانوا كذلك على حق الى حد كثير او قليل وان كان في استطاعة علم تحسين النفس بطبيعة الحال ان يصل حتى في هذا المجال الى نتائج تذكر ، ولعله سيصل بالفعل . اما اذا كانوا يعنون كما هي عادتهم ان لا سبيل الى خلق جيل من البالغين يختلف سلوكه اختلافاً اساسياً عن سلوك الجيل الحالي فانهم بقولهم هذا يرفضون علم النفس الحديث كله . انه اذا كان لدينا طفلان ولدا على خلق واحد فقد يتحولان بتأثير اختلاف البيئة الاولى الى بالغين يختلفان تمام الاختلاف من حيث الميل والمزاج . وعمل التربية المبكرة وواجبها ترتيب الغرائز وتدريبها بحيث تلتج خلقاً متسقاً ، البناء احب اليه من الهدم ، والتودد احب اليه من التجهم ، فيه شجاعة وصراحة وذكاء وفهم . كل هذا ممكن تحقيقه في الجمهرة العظمى من الاطفال ، وهو يتحقق بالفعل حينما يعامل الاطفال وتعالج شؤونهم كما ينبغي . فلو ان المعرفة الموجودة استعملت ، والطرق المخصصة باختبار طبقت ، لاستطعنا في ظرف جيل واحد ان نظفر بسكان يكادون يخلون من الامراض ومن النزوع الى الشر ومن الغباوة . والسبب في اننا لا نفعل ذلك أننا نؤثر الظلم والحرب .

فمادة الغريزة الفطيرة قابلة في معظم الاحوال ان تؤدي على السواء الى المستحب او الى غير المستحب من الافعال . ولم يكن الناس فيما مضى يفهمون تدريب الغريزة ولذا كانوا يضطرون للالتجاء الى القمع ، وكان العقاب والخوف هما الحافزين العظيمين لما كان يسمى بالفضيلة . ونحن نعلم الآن ان القمع طريقة رديئة لسببين ، انه لا ينجح قط نجاحاً حقيقياً وانه يؤدي الى اضطرابات عقلية . اما تدريب الغرائز فهو طريقة تخالف ذلك تمام المخالفة ، في ذاتها وفي اسلوبها الفني . فالعوائد والمهارة يشقان كما يبدو قناة تسيل فيها الغريزة ، مرة في طريق ومرة في آخر تبعاً لاتجاه تلك القناة . فاذا ما كونا العادات الصحيحة والمهارة الصالحة جعلنا غرائز الطفل نفسها تدفعه الى الافعال المستحبة ، ولا يكون

هناك شعور باجتهاد اذ لا يكون هناك حاجة الى مقاومة اغراء. لا يكون هناك صد او صدم ، ويشعر الطفل انه يعمل من تلقاء نفسه بغير تقييد . ولا اريد ان تؤخذ هذه الاقوال بمعناها المطلق ، فستعرض على الدوام ظروف غير منتظرة قد يتحتم فيها استخدام الطرق القديمة ، لكن كلما ازداد علم نفس الطفل كمالاً ازدادت خبرتنا المكتسبة من مدارس الحضانة ، وازددنا اتقاناً في تطبيق الاساليب الحديثة .

لقد حاولت ان اضع امام القارئ الاحتمالات العجيبة المفتحة امامنا في الوقت الحاضر . فليفكر فيما تنطوي عليه : الصحة ، والحرية ، والسعادة ، والشفقة ، والفظنة ، كل ذلك عاملاً شاملاً على وجه التقريب . اننا في جيل واحد نستطيع اذا شئنا ان نحقق عصر السعادة المنشود .

لكن لا شيء من هذا يمكن تحقيقه بدون الحب . ان المعرفة موجودة لكن عدم الحب يحول دون تطبيقها . واحياناً ما يدفعني اليأس عدم حبنا الاطفال ، وحين أجد مثلاً قادة الاخلاق المعترف بهم كلهم تقريباً لا يريدون ان يتخذ اي اجراء لمنع ولادة اطفال مصابين بالامراض الزهرية . ومع ذلك فحب الاطفال يتجدد فينا وينطلق بالتدريج ، وهو من غير شك احدى نزعاتنا الفطرية . ولقد غشت عصور من الوحشية على نوازع الشفقة والرحمة التي فطر عليها السواء من الرجال والنساء . فلم تعد الكنيسة الا حديثاً عن الحكم على الاطفال الذين لم يعمدوا بالعذاب في الآخرة . والوطنية مذهب آخر يحفف بنابيع الانسانية ، ففي خلال الحرب العظمى الاولى قضينا على جميع الاطفال الالمان تقريباً بالكساح . يجب ان نطلق العنان في نفوسنا لما فطرت عليه من الشفقة والرحمة ، واذا عرض لنا مذهب يتطلب انزال البؤس والشقاء بالاطفال وجب ان ننبذه مهما كان عزيزاً علينا . والمصدر النفسي لمذاهب القسوة هو في جميع الحالات تقريباً الخوف ، وهذا هو احد الاسباب التي من اجلها اكدت بقوة ضرورة التخلي عن الخوف في الطفولة . فكنبعث من اصولها المخاوف التي تكن في النواحي المظلمة من عقولنا .

فاذا ما نجحنا في خلق جيل من الشباب قد تحرر من الخوف ومن الخطر ومن
الفرائز الثائرة او المكبوتة فسنستطيع ان نفتتح لهم دنيا المعرفة حرة كاملة ،
دون ان تكون هناك اركان مظلمة مخبوءة . واذا ما سلكننا في تعليمهم سبيل
الحكمة وجدوا التعليم اقرب الى اللذة والسرور منه الى النصب والثقل . وليس
من المهم ان نزيد مقدار ما نعلمه عما يعلم عادة في الوقت الحاضر لأطفال الطبقات
ذوات الحرف . ان المهم هو روح المغامرة والحرية ، هو الشعور بالبداية في رحلة
للاستكشاف ، اذا ما اتبعنا هذه الروح في التربية الرسمية فسيتممها التلاميذ
الاكثر فطنة . دكاء بجهودهم الخاصة التي يجب ان تهيأ لها كل فرصة . ان المعرفة
هي التي تنجي من سلطان القوى الطبيعية ومن الشهوات المحطمة . فبغير المعرفة
لا يكون بناء دنيا آمالنا . وان جيلاً يربى على الحرية التي لا يشوبها خوف
سيكون اوسع وأجراً في آماله منا نحن الذين لا يزال علينا ان نصارع المخاوف
الخرافية الكامنة لنا تحت مستوى الشعور والوعي . ان احرار الرجال والنساء
الذين سننشئهم هم ، لا نحن ، الذين سيكون من نصيبهم شهود الدنيا الجديدة اولاً
في احلامهم وآمالهم ، ثم في النهاية في بهاء طبيعتها الممتازة .



الفهرس

٩	مقدمة
١٣	مقدمة المؤلف
	المثل العليا التربوية
١٩	١ - مسلمات نظرية التربية الحديثة
٣٨	٢ - غاية التربية
	تربية الخلق
٦٥	٣ - السنة الأولى
٧٤	٤ - الخوف
٨٩	٥ - اللعب والتخيل
٩٨	٦ - خاصية التنشئة
١٠٥	٧ - حب النفس والحياسة
١١٢	٨ - الصدق
١١٨	٩ - العقاب
١٢٧	١٠ - أهمية أقران الطفل
١٣٣	١١ - المحبة والعطف
١٤٦	١٢ - التربية الجنسية
١٥٥	١٣ - مدرسة الحضانة
	التربية الفكرية
١٦٧	١٤ - مبادئ عامة
١٧٩	١٥ - منهج الدراسة قبل الرابعة عشرة
١٩٠	١٦ - السنوات المدرسية الأخيرة
١٩٨	١٧ - المدارس النهارية والمدارس الخارجية
٢٠٥	١٨ - الجامعة
٢١١	١٩ - النهاية